



الجزء الثاني

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعـوة للطبع والنـشـر والتـوزيع

١ شـــارع منشـــا - محـــرم بك - الإســـكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضــراء للنشر والتـوزيــع

حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

مواقف وعبر

فى خلافة أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

- مكاتبات بين أمير المؤمنين عمر وأبي عبيدة ومعاذ -

كان أول خطاب وصل إلى الشام من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل نبأ وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتولية أبي عبيدة على الشام وقد جاء فيه : أما بعد فإن أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ قد توفي فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ورحمة الله وبركاته على أبي بكر الصديق العامل بالحق ، والآخذ بالعرف ، اللين الستير الوادع ، السهل القريب الحكيم ، ونحتسب مصيبتنا فيه ومصيبة المسلمين عامة عند الله تعالى ، وأرغب إلى الله في العصمة بالتقى في مرحمته ، والعمل بطاعته ماأحيانا ، والحلول في جنته إذا توفانا ، فإنه على كل شيء قدير ، وقد بلغنا حصاركم لأهل دمشق ، وقد وليتك جماعة المسلمين ، فابثث سراياك في نواحي أهل حمص ودمشق وماسواها من أرض الشام ، وانظر في ذلك برأيك ومن حضرك من المسلمين ، ولايحملنك قولي هذا على أن تعري عسكرك فيطَمع فيك عدوك ، ولكن من استغنيت عنه فسيره ، ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبسه ، وليكن فيمن تحتبس خالد بن الوليد فإنه لاغنى بك عنه [1] .

ففي هذا الكتاب يذكر أمير المؤمنين عمر خبر وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ويثني عليه ذلك الثناء العاطر ، ثم يذكر تولية أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه على الشام ، وهذا هو الظاهر أن عمر كتب إلى أبي عبيدة بتوليته وعزل خالد والمسلمون محاصرو أعدائهم في دمشق خلافا لما ذهب إليه سيف بن عمر واعتمده الطبري من أن كتاب عمر

---

(١) تاريخ دمشق ٢/ ١٢٥ .

وصل والمسلمون يواجهون أعداءهم في اليرموك وذلك بناء على ماذهب إليه من أن اليرموك كانت في الشهور الأولى من العام الثالث عشر[1].

وما كان عمر وهو الخبير بمصائر الحروب الشفيق بالأمة . . ماكان ليربك المسلمين بعزل خالد وتولية أبي عبيدة وهم يواجهون أضخم معركة خاضوها في حياتهم ، تلك المعركة التي كانت أعصاب المسلمين فيها جيمعًا مشدودة نحو الشام ، وقلوبهم واجفة ، وألسنتهم تلهج بالدعاء للمسلمين بالنصر وعلى رأسهم عمر رضي الله عنه .

وسيتبين لنا عند استعراض مواقف هذه المعركة كيف أن إنقاذ المسلمين تم بإذن الله تعالى على يد خالد بن الوليد ، حينما طلب من أبي عبيدة لما تأزم الموقف أن يوليه القيادة العامة للجيوش الإسلامية ، فتنازل له أبو عبيدة راضيًا مختاراً مؤملا أن يتم النصر على يد سيف الله المصبوب على الكافرين .

وجاء في رواية الأزدي : قالوا : فلم يُسمَع من أبي عبيدة شيء يَنتفع به مقيم ولاظاعن . فدعا أبو عبيدة معاذ بن جبل ، فأقرأه الكتاب ، فالتفت معاذ إلى الرسول فقال : رحمة الله ورضوانه على أبي بكر ، وَيْحَ غيرك ، ما فعل المسلمون ؟

قال : استخلَفَ أبو بكر - رضي الله عنه - عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه .

فقال معاذ : الحمد لله ، وُفِّقوا وأصابوا .

وقال أبو عبيدة : مامنعني عن مسألته منذ قرأت الكتاب إلا مخافة

---

(١) انظر تحقيق هذا الموضوع في معركة اليرموك .

أن يستقبلني ، فيخبرني أن الوالي غير عمر .

فقال الرسول : يا أبا عبيدة ، إن عمر يقول لك أخبرني عن حال الناس، وعن خالد بن الوليد، أيّ رجل هو ؟ ، وأخبرني عن يزيد بن أبي سفيان، وعن عمرو بن العاص ، وكيف هما في حالهما وهيئتهما ، ونصحهما للمسلمين .

فقال أبو عبيدة : أما خالد فخير أمير ، أنصحه لأهل الإسلام، وأشدُّه شفقة عليهم، وأحسنه نظرًا لهم، وأشده على عدوّهم من الكفار، فجزاه الله عنهم خيراً ، ويزيد وعمرو في نصحهما وحَدِّهما ونظرهما للمسلمين وشفقتهما عليهم كما يحب عمر أن يكونا عليه، وكما أُحبّ .

قال : فأخبرني عن أخويك سعيد بن زيد ، ومعاذ بن جبل .

فقال : هما كما عهدت ، إلا أن يكون السن زادهما في الدنيا زهداً، وفي الآخرة رغبة .

قال : ثم إن الرسول وثب لينصرف فقال أبو عبيدة : سبحان الله، انتظر نكتب معك .

فكتب إليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل كتابًا واحدًا :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب ، سلام عليكم ، فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهمّ ، وإنك ياعمر ، أصبحت وقد وُلِّيت أمر أمّة محمد ، أحمرها وأسودها، يقعد بين يديك العدو والصديق، والشريف والوضيع ، والشديد والضعيف، ولكل

عليك حقّ وحصّة من العدل ، فانظر كيف تكون ياعمر ، وإنا نذكِّرك يومًا تُبلى فيه السرائر ، وتكشف فيه العورات ، وتظهر فيه المُخبَّآت ، وتَعْنُو فيه الوجوه لملك قاهر ، قهرهم بجبروته ، والناس له داخرون ، ينتظرون قضاءه ، ويخافون عقابه ، ويرجون رحمته ، وإنه بلغنا أنه يكون في هذه الأمة رجالٌ إخوان العلانية أعداء السريرة ، وإنا نعوذ بالله من ذلك ، فلا ينزلْ كتابنا من قلبك بغير المنزلة التي أنزلناها من أنفسنا ، والسلام عليك ورحمة الله .

فمضى رسوله بالكتاب إليه ، وقال أبو عبيدة لمعاذ : والله ما أمرنا عمر أن نظهر وفاة أبي بكر رضي الله عنه للناس ، وأن ننعاه إليهم ، وما أريد أن أذكر من ذلك شيئًا دون أن يكون هو يذكره .

قال له معاذ : فإنك نعم ما رأيت .

فمضى رسوله بالكتاب إليه ، وسكتا فلم يذكرا للناس شيئًا ، ولم يلبثا إلا مقدار ما قدم رسول عمر عليه حتى بعث إليهما عمر رضي الله عنه بجواب كتابهما ، وبعهد أبي عبيدة ، وأمر أبا عبيدة أن يعظ الناس .

وجاء بالكتاب شداد بن أوس بن ثابت ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري .

وكان جواب كتابهما إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، سلام الله عليكما ، فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإني أوصيكما بتقوى الله ، فإنه رضاء

ربكما ، وحظ أنفسكما ، وغنيمة الأكياس [1] لأنفسهم عند تفريط العجزة، وقد بلغني كتابكما تذكران أنكما عهدتماني وأمر نفسي لي مُهمّ، فما يدريكما ، وهذه تزكية منكما لي ، وتذكران أني ولّيت أمر هذه الأمة ، يقعد بين يديّ الشريف والوضيع، والعدوّ والصديق ، والقوي والضعيف ، ولكلٍّ حصته من العدل، وتسألانني كيف أنا عند ذلك ، وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكتبتما تخوفاني يومًا هو آت ، وذلك باختلاف الليل والنهار، فإنهما يُبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود، حتى يأتيا بيوم القيامة ، يوم تُبْلَى السرائر ، وتُكشف العورات، وتعنو فيه الوجوه لعزة ملك قهرهم بجبروته ، فالناس له داخرون ، يخافون عقابه، وينتظرون قضاءه ، ويرجون رحمته .

وذكرتما أنه بلغكما أنه يكون في هذه الأمة رجال يكونون إخوان العلانية، أعداء السريرة ، فليس هذا بزمان ذلك ، فإن ذلك يكون في آخر الزمان إذا كانت الرغبة والرهبة، رغبة الناس ورهبتهم، بعضهم إلى بعض . والله عز وجل قد ولاني أمركم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنه كما حرسني عن غيره ، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف، إلا ما أعان الله عز وجل ، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خُلُقي شيئًا إن شاء الله ، وإنما العظمة لله عز وجل، وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر قد تغير منذ ولي ، وإني أعقلُ الحق من نفسي وأتقدم ، وأُبيِّن لكم أمري ، فأيما رجل كانت له حاجة، أو ظُلم مظلمة ، أو عتب علينا في خُلق فليؤذّني ، فإنما أنا رجل منكم ،

(١) جمع كيِّس بتشديد الياء وكسرها ، وهو النبيه الفطن .

ليس بيني وبين أحد من المسلمين هوادة ، وأنا حبيب إليّ صلاحكم ، عزيز عليّ عتبكم ، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه ، ومطلع على ما يضيرني بنفسي إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد ، ولا استطيع مابعد ذلك إلا بالأمناء ، وأهل النصح منكم للعامة ، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم ، إن شاء الله .

وما سلطان الدنيا وإمارتها ! فإن كل ما تريان يصير إلى زوال ، وإنما نحن إخوان ، فأينا أمَّ أخاه ، أو كان عليه أميرا لم يَضرّهُ ذلك في دينه ولا في دنياه ، بل لعل الوالي أن يكون أقربهما إلى الفتنة وأوقعهما بالخطيئة إلا من عصم الله ، وقليل ماهم [1] .

هذا وقد تباطأ أبو عبيدة في ابلاغ خالد والمسلمين بنبأ وفاة أبي بكر وتولية أبي عبيدة على إمرة الشام كله رجاء أن يتم فتح دمشق على يد خالد بناء على الخطة الحربية التي كان وضعها لذلك .

وعلم عمر رضي الله عنه بذلك وهو يعلم أخلاق أبي عبيدة المجبولة على الزهد في الدنيا والبعد عن الجاه ، فكتب له كتابا آخر يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي على نبيه محمد ﷺ .

وبعد : فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحيي فإن الله لايستحيي من الحق، وإني أوصيك بتقوى الله الذي أخرجك من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى ، وقد استعملتك على جند خالد، فاقبض جنده

---

(١) فتوح الشام / ٩٩ - ١٠٢ .

واعزله عن إمارته ، ولاتُنفذ المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولاتنفذ سرية إلى جيش كبير ، وغض عن الدنيا عينيك ، وأله عنها قلبك ، وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم ، وخبرت سرائرهم ، وإن بينك وبين الآخرة ستر الخمار ، وكأني بك منتظر سفراً من دار قد مضت نضارتها ، وذهبت زهرتها ، وأحزم الناس من يكون زاده التقوى .

أخرجه الأزدي قال : حدثني يزيد بن أبي يزيد بن جابر عن أبي أمامة رضي الله عنه [1] .

وهكذا أمر عمر أبا عبيدة أمرًا مؤكدًا بالبَتِّ في هذا الأمر وإعلانه ، ومع اهتمامه البالغ بأمور الحكم والجهاد ، لم يُغفل الموعظة بالتذكير بالآخرة والتزهيد في الدنيا ، مما يدل على أن هذا الأمر الكبير كان ماثلا أمام أعين هؤلاء الصحابة ، وأنه لايشغلهم عنه أي شاغل ، لأن بتذكره دائمًا تستقيم أمور الحياة الدنيا .

وفي هذه الأخبار مواقف منها :

أولا : ما قام به أبو عبيدة من كتمان خبر وفاة أبي بكر أول الأمر كي لايؤثر ذلك على المسلمين في جهادهم ، ولقد كان تعبير الراوي عن ذلك بليغًا حينما قال : فلم يُسمع من أبي عبيدة شيء ينتفع به مقيم ولاظاعن .

وهذه السِّرِّية المبنية على الحكمة والتفكير المتأمِّل كان لها دور مؤثر في تماسك مجتمع المسلمين آنذاك .

ثانيًا : كان في حسِّ أبي عبيدة ومعاذ أن أصلح المسلمين للخلافة بعد

---

(١) فتوح الشام / ١٠٢ .

أبي بكر عمر ، وكان من شدة إشفاق أبي عبيدة من أن يتولى غيره أنه لم يسأل رسول عمر عن الخليفة بعد أبي بكر ، وحينما سأله معاذ حَمِدَا الله على ذلك .

وهكذا التَقَتْ أفكار هؤلاء العظماء أبي بكر وأبي عبيدة ومعاذ والذين وافقوا أبا بكر على أقدمية عمر في ذلك حينما استشارهم . . إلتقت أفكار هؤلاء العظماء على أن أصلح الأمة للخلافة بعد أبي بكر عمر .

ولقد أثبت الواقع أنه لم يأت بعد عمر مثله في إقرار العدل ، ودعم الجهاد ، وإعزاز الدين ، وتوسيع الدولة الإسلامية وتقويتها ، وإرساء قواعد الحضارة الإسلامية الوثابة التي اتسعت وعظمت حتى هيمنت على حضارات الأمم والتهمتها ، وصاغتها بالصياغة الإسلامية .

ثالثًا : ثناء أبي عبيدة البليغ على خالد - مع أنه قد خلَفه في الإمارة ، ومع أن الذي طلب تقييمه أمير المؤمنين عمر - يدل على عظمة أبي عبيدة وعمق يقينه ورجاحة عقله ، فلم يُغَطِّ على محاسن خالد مداراةً لعمر الذي ولاه وعزل خالدا ، ولا خضوعًا لهوى منحرف .

رابعًا : في الموعظة البليغة التي وجهها أبو عبيدة ومعاذ إلى أمير المؤمنين عمر دلالة على اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بأمر الآخرة ، وتمحيص النفوس من كل ما قد يعلق فيها من شوائب حتى تصبح صفحة بيضاء ، فلم يَدُرْ بخَلَد أبي عبيدة ومعاذ أن عمر القوي الإيمان الراسخ العلم ليس بحاجة إلى مواعظ ، بل فضَّلا النظر في نجاته من عواقب المسئولية على النظر في عظمته وتفوقه في مجالات الورع والتقوى وكبح

جماح النفس ، فوجَّها له تلك الموعظة .

خامسًا : في جواب عمر لأبي عبيدة ومعاذ حكَمٌ بالغة وفوائد جَمَّة، فقد بدأ بتذكيرهما بتقوى الله تعالى ، والتقوى حماية للنفس وحارس أمين لها يحميها من بُنَيَّات الطريق ومنعطفاته الخطيرة ، وقد وصف المتقين بالفطنة ووصف المقصرين بالعجز ، وإنه لوصف صادق ، فما أعظم فطنة من نظر إلى نجاته وسعادته في حياة الخلود وما أرجح عقله!! وما أعجز من ضيَّع ذلك وأضعف عقله !!

وذكَّرهما بما ذكَّراه به من يوم الحساب وتَلَقِّي الكتاب الذي لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ، يوم يتمنى الإنسان أن يكون قدَّم من العمل الصالح أفضل مما قدم وأن يكون بريئ من كل عمل سيء ، وإنَّ تبادل هذه الموعظة بين الصحابة دليل على عظمة تذكُّرهم للآخرة وشدة فزعهم من هولها وشوقهم إلى نعيمها .

ويُذَكِّر عمر أبا عبيدة ومعاذًا وغيرهما بأن الولاية لن تغير من خُلقه المعروف شيئًا ، وأنه قد نصب نفسه للعدالة بين الناس من غير محاباة لقوي ولا هضم لضعيف .

حوار بين خالد وأبي عبيدة :

علم خالد بأمر عزله فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة فقال : يغفر الله لك ، أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك ؟ ، فقال أبو عبيدة : وأنت يغفر الله لك ماكنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وماكنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله ، ثم قد كنت أعلمك إن شاء الله ،

وماسلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، وإن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن إخوان وقُوَّام بأمر الله عز وجل، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه، في دينه ولادنياه ، بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة لما يعرض له من الهلكة، إلا من عصم الله عز وجل وقليل ماهم .

ودفع أبو عبيدة كتاب عمر إلى خالد [1] .

وهكذا نعود مرة أخرى إلى هذين العملاقين لنتعلم منهما دروسًا بالغة الأهمية في حياتنا العملية .

فهذا أبو عبيدة يؤثره عمر بالولاية العامة في الشام فيزهد بها ويتأخر في إبلاغ خالد بذلك إيثاراً للمصلحة العامة حتى تنقضي المهمة التي خطط لها خالد ، ثم يعرض الأمر وهو يفهم حقيقة الولاية فهمًا تامًا، فهي مَغْرم وليست بمغنم ، والسعيد من لم يُبْتَلَ بها، لكن من ابتلي بها فعدل ونصح فهي خير في الدنيا وثواب جزيل في الآخرة .

وخالد يلوم أخاه أبا عبيدة أن أسرَّ في نفسه هذا التكليف ولم يبلغه إياه في حينه ، وهو لايريد أن يتقدم أبا عبيدة بشيء إلا أن يكون ذلك تكليفًا من قبَل الخليفة فالطاعة إذًا واجبة على الجميع .

وهنا تبدو لنا روح الطاعة والتجرد من حظ النفس لدى هؤلاء الأماجد الكرام ، فقد وجَّه أبو بكر خالدًا لأعنف حروب الردة، فتوجه لها طائعًا مختاراً ، وكان كذلك في حروب العراق، حتى إذا كان من فتح المدائن قاب قوسين أو أدنى صدر التوجيه له إلى الشام فسلم طائعًا مختاراً .

---

(١) تاريخ دمشق / ٢/ ١٢٦ .

وأبو عبيدة بعد أن كان أمير الشام وقائد جيوشها يصبح قائد جيش واحد فيُسَلِّم الأمر لخالد طائعًا مختارًا ، ثم يرجع بعد ذلك أميرًا عاما فلايزيد شيئًا أمام نفسه ، بل يتقبل التكليف ببطء ويعلن زهده في الدنيا ومناصبها ، ويشير إلى خطورة المسئولية إلا على من عصمه الله، ثم يعود خالد جنديًا مطيعًا لأبي عبيدة يتوجه حينما وجهه .

وأمر آخر في غاية الأهمية وهو أن خالدًا بقي عند أبي عبيدة في أعلى مكانة فكان لايتقدم خطوة إلا بمشورة خالد ، حتى كأن خالدًا لم يفقد شيئًا من سلطته الأولى ، وخالد لم يبخل بخالص الرأي والمشورة على أبي عبيدة ، فكان وضعهما الإداري طيلة عملهما في أعلى وضع يمكن أن يتصوره الإنسان من مكارم الأخلاق .

وماهذه إلا لمحات موجزة عن تشخيص السمو الأخلاقي الذي بلغه هذان العملاقان ، ولو تعمق الدارس في طريقة العمل بينهما لخرج بنتائج باهرة ، تعتبر مُثُلاً عالية للأسوة الحسنة .

ولو أن هذه التصرفات من تثبيت أمير ثم عزله وتثبيت آخر ثم تكليف الأول بالمسئولية . . لو أن ذلك تم بين أبناء الدنيا وطلاب الجاه لوجدنا الغيرة تبرز قرونها والحسد يرسل لهيبه فيحرق الأخضر واليابس، ولسادت الفوضى وعم الفساد ، لأن القائد الأخير سيتكبر عن استشارة القائد الأول ، والقائد الأول سيكتم خبرته ومواهبه حتى لاتكون سببا في نجاح القائد الثاني ، والنتيجة تكون في انحدار مستوى العمل وخسارة الأمة .

وقد وقعت الأمة الإسلامية في كثير من أطوار تاريخها ضحيةً لمثل

هذه الأمراض الخلقية ، منذ أن ذهب ذلك الرعيل الأول الذي تغذى بغذاء الإيمان ، وآثر الآخرة على الدنيا .

لقد حمى الإسلام سياج الأخوة الإسلامية بتوجيهات سامية نحو الأخلاق النبيلة ، فإيثار المصلحة العامة للمسلمين ، والتجرد من حظ النفس، من أعظم الأخلاق الكريمة أثرًا في حفظ الأخوة ورعايتها فالمجتمع الذي يسود فيه الإيثار ، وحب المصلحة العامة ، ونسيان الذات في سبيل مصلحة الأمة ، هو المجتمع الذي تترعرع فيه الأخوة الإسلامية وتزدهر ، لأنه مجتمع تُبذل فيه النصيحة وتعقد المشورة بين أفراده ، حتى في الأمور الصغيرة ، فيستفيد الفرد من عقول الآخرين وتجاربهم في الحياة ، فإذا تبدل المسئول بمسئول آخر مثلا استفاد هذا الأخير من تجارب الأول ولم يبخل الأول بإسداء نصيحته ومشورته للأخير ، لأنهما أخوان في الله ، وهدفهما واحد هو إعزاز الإسلام والمسلمين .

وإذا استحكمت الأخوة الإسلامية في النفوس ظهرت آثارها الحميدة في بناء المجتمع الصالح ، وحمايته من أسباب الانهيار ، وماهذه المواقف الإسلامية التي نشيد بها إلا أثر من آثار تمكن الأخوة الإسلامية في قلوب الصحابة رضي الله عنهم .

* * *

مواقف وعبر
فى فتوح الشام الثانية
(ما قبل اليرموك)

١ - معركة فِحْل [١] -

ظل أبو عبيدة عامر بن الجراح محاصراً دمشق ومعه من القادة خالد ابن الوليد ويزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهم ، وكان في جنوب الشام جيش بقيادة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة رضي الله عنهما . وقد جاءت الأنباء إلى أبي عبيدة أن جيشًا كبيراً للروم قادم نحو المسلمين ، وعلم أنهم اتجهوا نحو فلسطين ، ولعلهم أرادوا أن يكرروا محاولتهم الأولى يوم أجنادين حيث وجهوا قوتين كبيرتين لجيشين منفصلين عن الجيش الإسلامي الرئيس ، وقد علمنا سابقًا أن خالد بن الوليد قضى على محاولتهم تلك بجمع الجيوش الإسلامية والاتجاه بها إلى أجنادين وكانت النتيجة نصراً مؤزراً للمسلمين .

وفي هذه المرة بعد مشاورة بين أبي عبيدة وخالد قرر أبو عبيدة إبقاء جيش حول دمشق بقيادة يزيد بن أبي سفيان ثم التوجه ببقية الجيش جنوبًا لمواجهة جيش الروم . وخوفًا من أن يدرك جيش الروم جيش المسلمين في فلسطين فقد قدم أبو عبيدة خالداً في خمسمائة وألف من الفرسان .

ومعروف أن خالداً وحده يكفي مع مئات من الفرسان لإرهاب جيش كبير ، وقد سار يسابق الريح حتى أدرك مؤخرة جيش الروم وقد دخل أوائلهم عسكرهم ، فهجم عليهم وقتل منهم كثيرين ، وغنم من أموالهم ، وأفلت من أفلت منهم منهزمين حتى دخلوا معسكرهم [٢] .

(١) كانت هذه المعركة في ٢٨ ذي القعدة عام ثلاثة عشر للهجرة - انظر « الطريق إلى دمشق» لأحمد عادل كمال / ٣١٤ .

(٢) فتوح الشام للأزدي / ١١٠ .

وواصل خالد سيره حتى لقي عمرو بن العاص فعسكر قريبًا منهم .

وفي هجوم خالد هذا على مؤخرة جيش مكون من عشرين ألفا ما يكشف لنا عن قوة المسلمين واستهانتهم بأرواحهم إلى جانب خوَر الروم وجبنهم ، وضياع المسئولية فيهم .

فلو أن فرقة من جيش الكفار هجمت على جيش المسلمين لكانت النتيجة أن يطوقها الجيش ويبيد جميع أفرادها .

ولقد كانت فرصة للروم أن يتخلصوا من أبرز قواد جيش المسلمين الذي دوخهم وشتت أفكارهم ، ولكن الشيء الذي كان يهيمن عليهم عند اللقاء أن يخلصوا أنفسهم من هجوم المسلمين الصاعق ، فكان أقرب تفكير يراودهم أن يفروا عند اللقاء .

بين يدي المعركة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي في سياق هذه المعركة : وكان المسلمون حيث نزلوا بهم ليس شيء أحب إليهم من معاجلتهم ، وكانت الروم ليس شيء أحب إليهم من مطاولة المسلمين رجاء المدد من صاحبهم ، ولأن المسلمين لم يكونوا في مثل مافيه الروم من الخصب والكفاية .

وأقبل المشركون يُفجِّرون المياه بينهم وبين المسلمين ليطاولوهم لما وجدوا من صبر المسلمين وجدِّهم ، ونَصْر الله إياهم ، فهم يخافون إن هم عاجلوهم أن يقعوا منهم في شدة شديدة ، أو ينهزموا هزيمة قبيحة ، فهم يدافعون ويطاولون ما استطاعوا .

وأقبل المسلمون يخوضون إليهم مافجَّروا عليهم ، ويمشون في

الوحل، فلمـا رأى ذلك الروم منهم ، وأنهم لايمنعـهم منهم [الماء] خرجوا، فعسكروا ووطنوا نفوسهم على القتال ، وكانوا في كل يوم يزدادون ، ويأتيهم المدد من الرساتيق والقرى، ومن كان على دينهم .

وأمر أبو عبيدة حين بلغه ذلك فقال للمسلمين : أغيروا عليهم، وأغيروا على أهل القرى والسواد والرّساتيق، ففعلوا ذلك ، فقطعوا عنهم المدد والميرة [١] .

وهكذا نجد أولئك الصحابة رضي الله عنهم عزائمهم قوية ، فالذي يعتبره الأعداء عوائق دون الزحف والتقدم لايكون كذلك عند أولئك المجاهدين ، لأنهم قد ألفوا حياة الخشونة والصبر على الشدائد .

وإذا كان الأعداء قد عزموا على المطاولة والتأخير لتصل إليهم الأمداد فإنهم أمام أناس قد تدثروا بالحزم الشديد ، وتلبسوا بالعزم الأكيد على المناجزة واغتنام الفرص ، فقد حالوا بين أعدائهم ووصول أي مدد بالغارات السريعة المفاجئة التي شكلت طوقا حول الأعداء .

ومن أمثلة هذه الغارات ماذكره الأزدي في سياق روايته قال : فخرج صفوان بن المعطّل الخزاعي ، ومعن بن يزيد بن الأخنس السلمي يومًا في خيل لهم ، فأغارا ، فغنما غنائم كثيرة ، فلما انصرفا عرضت لهما الروم ، فقاتلوهم قتالا شديدًا .

وإنما كانا جميعًا في نحو من مائة فارس ، وخرج الدَّرْنَجار [٢] في

---

(١) فتوح الشام / ١١٢ .

(٢) يعني قائد الروم .

خمسة آلاف خيل ، فطاردوهم ، وصبروا لهم ، واحتسبوا في قتالهم ، ثم إن الروم غلبوهم على غنيمتهم .

ثم إن حابس بن سعيد الطائي جاء في نحو من مائة رجل من طيء ، فحمل عليهم ، فزالوا غير بعيد ، ثم حملوا عليه ، فردّوه وأصحابه حتى ألحقوهم بالمسلمين ، ثم انصرفوا ، وقد بغوا ، وهم يظنون أن هذا ظفر منهم ، ولم يقتلوا أحدًا ، ولم يهزموا جَمْعًا [1] .

وهذا مثل من شدة جلد المسلمين آنذاك وقوة صبرهم وشجاعتهم ، حيث صبر مائة لخمسة آلاف وقاوموهم ولم يستطع الأعداء رغم كثرتهم أن يقتلوا مسلما واحدًا ، ثم لما جاء المائة الآخرون كشفوا الأعداء وأزالوهم ، وقد رضي الأعداء من الغنيمة أن يعودوا سالمين قد أحرزوا أموالهم ، وكأنهم قد يئسوا من قتال المسلمين .

قال الأزدي في سياق روايته : فلما انصرفوا إلى رحالهم وعسكرهم أرسلوا إلى أبي عبيدة أن أخرج أنت ومن معك من أصحابك ، وأهل دينك من بلادنا التي تُنْبت الحنطة والشعير ، والفواكه والأعناب والثمار فلستم لها بأهل ، وارجعوا إلى بلادكم ، بلاد البؤس والشقاء ، وإلا أتيناكم فيما لاقبل لكم به ، ثم لم ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف .

فردّ عليه أبو عبيدة فقال : أما قولكم ، اخرجوا من بلادنا ، فلستم لها ولما تُنْبت بأهل ، فلعمري ماكنا لنخرج منها ، وقد أذلكم الله بنا فيها ، وأورثناها ، ونزعها من أيديكم ، وصيّرها لنا ، وإنما البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ، ويعزّ من

---

(١) فتوح الشام / ١١٣ .

يشاء ، ويذل من يشاء ، وأما قولكم في بلادنا أنها بلاد البؤس والشقاء فصدقتم ، وما نجهل ماقلتم ، إنها لكذلك ، وقد أبدلنا الله بها بلاد العيش الرفيع ، والسعر الرخيص ، والأنهار الجارية ، والثمار الكثيرة فلا تحسبونا تاركيها ، ولا منصرفين عنها حتى نفنيكم ونخرجكم عنها ، فأقيموا ، فو الله لا نجشمكم إن أنتم لم تأتونا أن نأتيكم ، وإن أنتم أقمتم لنا فلا نبرح حتى نبيد خضراءكم ، ونستأصل شأفتكم إن شاء الله[1] .

وهكذا كان رد أبي عبيدة رد العالم الموقن ، فالأرض ليست ملكًا للبشر وإنما هي ملك لرب البشر جل جلاله ، فهو يورثها من يشاء من عباده ، وقد علم الصحابة رضي الله عنهم بمقتضى بشارات النبي ﷺ أن الله تعالى سيورث المسلمين ديار الفرس والروم ، فحروب المسلمين ليست كحروب سائر الأمم التي تحارب لتأكل الضعفاء وتوسع ملكها ، بل هي حروب ذات هدف أعلى ومقصد أسمى ، هو إعلاء كلمة الله تعالى وإقامة دولة الإسلام التي هي أحق بوراثة الأرض من جميع الأمم التي لاتدين بالإسلام .

محاورة معاذ مع زعماء الروم :

قال محمد بن عبد الله الأزدي في سياق روايته : فأرسلوا إلى أبي عبيدة أن أرسل إلينا رجلا من صلحائكم نسأله عما تريدون ، وما تسألون وماتدعون إليه ، ونخبره بذات أنفسنا ، وندعوكم إلى حظّكم إن قبلتم .

فأرسل إليهم أبو عبيدة معاذ بن جبل ، فأتاهم على فرس له ، فلما دنا منهم نزل عن فرسه ، وأخذ بلجامه ثم أقبل إليهم يقود فرسه ، فقالوا لبعض غلمانهم : انطلق إليه فأمسك له فرسه .

---

(١) فتوح الشام / ١١٣ - ١١٤ .

فجاء الغلام ليمسك له دابته ، فقال معاذ : أنا أمسك فرسي ، لا أريد أن يمسكه أحد غيري ، فأقبل يمشي إليهم ، فإذا هم على فُرش وبُسط ونمارق [1] تكاد الأبصار أن تغشى منها .

فلما دنا من تلك الثياب قام قائمًا [2]، فقال له رجل : أعطني دابتك ، أمسكها لك ، وادْنُ أنت فاجلس مع هؤلاء الملوك في مجالسهم، فإنه ليس كل أحد يقدر أن يجلس معهم ، وقد بلغهم صلاح وفضل عند من أنت منهم ، فهم يكرهون أن يكلموك جلوسًا ، وأنت قائم، فاجلس معهم .

فقال معاذ للترجمان : إن نبينا ﷺ أمرنا أن لانقوم لأحد من خلق الله، ولايكون قيامنا إلا لله في الصلاة والعبادة ، والرغبة إليه ، فليس قيامي هذا لكم ، ولكني قمت إعظامًا للمشي على هذا البسط والجلوس على هذه النمارق التي استأثرتم بها على ضعفائكم وأهل ملّتكم ، وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها ، وقد زهد الله في الدنيا وذمها، ونهى عن البغي والسرف فيها ، فأنا أجلس ها هنا على الأرض ، وكلّموني أنتم بحاجتكم منْ ثَمَّ ، وأقيموا الترجمان بيني وبينكم ، فليفْهمني ماتقولون، وليفهمكم ما أقول .

ثم أمسك برأس فرسه ، وجلس على الأرض عند طرف البساط ، فقالوا له : لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك ، إن جلوسك مع هذه الملوك على هذه المجالس مكرمة لك ، وإن جلوسك على الأرض منتحيا صنيع العبد بنفسه فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك .

(١) جمع نمرقة ، وهي الوسادة الصغيرة .

(٢) أي وقف ولم يجلس ، والمراد بالثياب الفرش .

فأخبره الترجمان بمقالهم : فجثا معاذ على ركبتيه ، واستقبل القوم بوجهه، وقال للترجمان : قل لهم إن كانت هذه المكرمة التي يدعونني إليها استأثرتم بها على من هو مثلكم ، إنما هي للدنيا التي زهد الله فيها ، فهي عندكم مكرمة في الدنيا ، فهذه المكرمة لكم ، ولاحاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها ، ولا في شيء يباعدنا من ربنا ، وإن زعمتم أن هذه المجالس والدنيا التي في أيدي عظمائكم- فأنتم بها مستأثرون على ضعفائكم- مكرمة لمن كانت في يديه منكم عند الله ، فهذا خطأ من قولكم، وجور من فعلكم ، وإنه لايدرك ماعند الله بالخطأ ، ولابخلاف ماجاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم عن الله من الزهادة في الدنيا ، وأما قولكم ، إن جلوسي على الأرض متنحيا صنيع العبد بنفسه ، ألا فصنيع العبد بنفسه صنعتُ، وأنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله، ولا استأثر لشيء من مال الله على إخواني من أولياء الله ، وأما قولكم أني أزريت بنفسي ، فإن كان ذلك فإنما هو عندكم وليس ذلك عند الله كذلك ، فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كانت عند الله على غير ذلك ، وإن قلتم إنما دخل على ذلك عباد الله فقد أخطأتم خطأ بينا لأن أحبَّ عباد الله إليه المتواضعون لله ، القريبون من عباد الله الذين لايشغلون أنفسهم بالدنيا ، ولايدَعون التماس نصيبهم من الآخرة .

قال ، فلما فسر هذا الترجمان لهم نظر بعضهم إلى بعض ، وتعجبوا مما سمعوا منه ، وقالوا لترجمانهم : قل له ، أنت أفضل أصحابك؟

فقال معاذ : عند الله معاذ الله أن أقول ذلك ، وليتني لا أكون شرهم .

قال : فسكتوا عنه ساعة ، لايكلمونه ، وهم يتكلمون فيما بينهم ، فلما احتبسوا عنه لايكلمونه قال لترجمانهم : قل لهم إن كانت لهم حاجة في كلامي ، وإلا انصرفت عنهم .

فقال لهم الترجمان ذلك ، فأقبلوا عليه ، فقالوا للترجمان : قل له ، أخبرونا ما تطلبون ، وإلى ما تدعون إليه ، وما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة ، وليسوا منكم ببعيد ، وتركتم أرض فارس ، وقد هلك ملك فارس ، وهلك ابنه ، وإنما تملكهم اليوم النساء ، ونحن ملكنا حيّ ، وجنودنا عظيمة كثيرة ، وإن افتتحتم من مدائننا مدينة أو من قرانا قرية ، أو من حصوننا حصنا ، أو هزمتم لنا عسكرا ، أظننتم أنكم قد ظفرتم بجماعتنا ، وأنكم قد قطعتم حربنا عنكم ، أو فرغتم مما وراءنا منّا ونحن عدد السماء وحصى الأرض ؟ ، وأخبرونا لم تستحلّون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبيّنا وكتابنا ؟

فلما قالوا هذا القول ، وفسّره الترجمان لمعاذ سكتوا ، فقال معاذ للترجمان : قد فرغوا ؟ قال له : نعم .

قال : فأفهمهم عني أن أول ما أنا ذاكر حمد الله الذي لا إله إلا هو ، والصلاة على محمد نبيه ﷺ وأن أول ما أدعوكم إلى الله أن تؤمنوا بالله وحده ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن تصلّوا صلاتنا ، وتستقبلوا قبلتنا ، وأن تستنّوا بسنّة نبيّنا ﷺ وتكسروا الصليب ، وتجتنبوا شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، ثم أنتم منا ونحن منكم ، وأنتم إخواننا في ديننا ، لكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأدّوا الجزية إلينا في كل عام وأنتم صاغرون ، ونكفّ عنكم ، وإن أنتم أبيتم هاتين الخصلتين

فليس شيء ممّا خلق الله عز وجل نحن قابلوه منكم ، فابرزوا إلينا حَتى يَحكم الله بيْننا وهو خير الحاكمين ، فهذا ما نأمركم به ، وماندعوكم إليه .

وأما قولكم ما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببعيد ، وتركتم أرض فارس وقد هلك ملكهم ، فإني أخبركم عن ذلك ، ما بدأنا بقتالكم إلا أنكم أقرب إلينا منهم ، وأنكم عندنا جميعًا بالسواء ، وماجاءنا كتابنا بالكفّ عنهم ، ولكن الله عز وجل أنزل في كتابه على نبينا ﷺ ، فقال﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ (١) وكنتم أقرب إلينا منهم ، فبدأنا بكم لذلك ، وقد أتاهم طائفة منا وهو يقاتلونهم ، وأرجو أن يظفرهم الله ويفتح عليهم وينصرهم .

وأما قولكم إن ملكنا حيّ وأن جنودنا عظيمة ، وأنا عدد نجوم السماء وحصى الأرض وتؤيسوننا من الظهور عليكم فإن الأمر في ذلك ليس إليكم ، وإنما الأمور كلها إلى الله ، وكل شيء في قبضته ، فإذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ، وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عز وجل الذي خلقنا ، وأميرنا رجل منّا ، إن عمل فينا بكتاب ديننا وسنة نبينا ﷺ أقررناه علينا ، وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا ، وإن هو سرق قطعنا يده ، وإن زنا جلدناه ، وإن شتم رجلا منا شتمه كما شتمه ، وإن جرحه أقاده من نفسه ، ولايحتجب منا ، ولايتكبّر علينا ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاء الله علينا ، وهو كرجل منّا .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٣ .

وأما قولكم جنودنا كثيرة ، فإنها وإن عظمت وكثرت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض فإنا لانثق بها ولانتّكل عليها ولانرجو النصر على عدوّنا بها [1] ، ولكنا نتبرأ من الحوْل والقوة ، ونتوكل على الله عزّ وجل ، ونثق بربنا ، فكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأغناها وغلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وكم من فئة كثيرة قد أذّلها الله وأهانها وقال تبارك وتعالى ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [2] .

وأما قولكم ، كيف تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابنا ، فأنا أخبركم عن ذلك ، نحن نؤمن بنبيّكم ، ونشهد أنه عبد من عبيد الله ، وأنه رسول من رسل الله ، وأن مَثَله عند الله كمثل آدم ، خَلَقَهُ من تراب ثم قال له : كُنْ ، فيكون ، ولانقول إنه الله ، ولانقول إنه ثاني اثنين ولا ثالث ثلاثة ، ولا أن له صاحبة ولا ولدا ، ولا أن معه آلهة أخرى ، لا إله إلا هو ، تعالى عما تقولون علوا كبيراً ، وأنتم تقولون في عيسى قولا عظيما ، فلو أنكم قلتم في عيسى كما نقول ، وآمنتم بنبوة نبينا ﷺ كما تجدونه في كتابكم ، وكما نؤمن نحن بنبيكم ، وأقررتم بما جاء به من عند الله ، ووحدتم الله ما قاتلناكم ، بل كنا نسالمكم ونواليكم ونقاتل معكم عدوَّكم .

قال : فلما فرغ معاذ من خطابه قالوا له : مانرى مابيننا وبينك إلا متباعدا وقد بقيت خصلة نحن نعرضها عليكم ، فإن قبلتموها منا فهو خير لكم وإن أبيتم فهو شر لكم ، نعطيكم البلقاء وما الى أرضكم من سواد الأرض وتنحَّوا عن بقية أرضنا وعن مدائننا ، ونكتب عليكم كتابًا

---

(١) يعني إن كنتم تعتمدون على كثرة الجنود فلسنا كذلك .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٤٩ .

نسمّي فيه خياركم وصلحاءكم، ونأخذ عهودكم ومواثيقكم على ألا تطلبوا من أرضنا غير ما صالحناكم عليه ، وعليكم بأهل فارس فقاتلوهم ونحن معكم نعينكم عليهم حتى تقتلوهم وتظهروا عليهم .

فقال معاذ : هذا الذي عرضتم علينا وتعطونا كله في أيدينا ، ولو أعطيتمونا جميع مافي أيديكم مما لم نظهر عليه ، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاث التي وصفت لكم مافعلنا .

فغضبوا عند ذلك ، وقالوا نتقرب إليك وتتباعد عنا ؟ اذهب إلى أصحابك ، فو الله إنا لنرجو أن نفرقكم في الجبال غداً .

فقال معاذ : أما الجبال فلا ، ولكن والله لتقتلُنَّا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون .

وانصرف معاذ إلى أبي عبيدة ، فأخبره بما قالوا وبما رد عليهم [1] .

فهذه المحاورة فيها مواقف عالية منها : وقوف معاذ رضي الله عنه من مظاهر الترف والخيلاء موقف العزة والإباء حيث أبى أن يجلس معهم في مجالسهم الوثيرة التي تكاد تخلب الأبصار بمنظرها الباهر ، واعتبر تلك الفرش من الإسراف والخيلاء اللذين جاء النهي عنهما في الإسلام ، إضافة إلى أن تلك المظاهر الغالية الثمن مما استأثر به كبراء الروم على ضعفائهم ، فاختص بهذه المظاهر طبقات معينة على حساب الضعفاء الذين أرهقتهم الضرائب من أجل رفاهية تلك الطبقات ، ولقد كانت هذه الإشارة من معاذ كافية لإثارة العامة الذين سُلبت حقوقهم من أجل تحقيق مستوى أعلى من الرفاهية لفئة معينة من الناس .

---

(١) فتوح الشام / ١١٥ - ١٢١ .

وحينما وصفوه بأنه قد احتقر نفسه لَّما جلس على الأرض أبان لهم بأن رفعة الإنسان إنما تكون بارتفاع منزلته عند الله تعالى، وليس عند البشر المنحرفين عن منهج الله جل وعلا .

لقد قالوا هذا الكلام وعقلاؤهم يفهمون سر عظمة المسلمين، وأن سبب جرأتهم على الأمم الكبرى وتفوقهم عليهم في القتال راجع إلى تحليهم جميعًا بمكارم الأخلاق ونظرهم إلى معالي الأمور ، من الزهد بمتاع الدنيا ، والتواضع والعفة ، والكرم والعدل في الحكم والورع عن حقوق الناس ، وفوق ذلك صلتهم القوية بالله تعالى وقربهم منه واعتصامهم به ، ولقد سبق بيان اعتراف بعض كبارهم بذلك للمسلمين ويأسهم من الانتصار عليهم لتفوقهم عليهم في مجال الأخلاق .

ومن أفضل مابين معاذ لزعماء الروم أنهم إذا كانوا يعتزون بمَلكهم وبما لَهُ من القوة والرفعة فإن مَلك المسلمين هو الله عز وجل الذي يملك السموات والأرضين ومن فيهن ، فهو جل وعلا الذي يعظمه المسلمون ويقدسونه وحده ، فأما أميرهم فإنه كرجل منهم له ما للمسلمين وعليه ماعليهم ، وهو مثلهم محكوم بشريعة الإسلام لايمكن أن يتجاوزها .

وكذلك رده على اعتزازهم بكثرة جنودهم حيث أبان لهم أن العبرة ليست بكثرة العَدَد ولا بقوة العُدَد وإنما العبرة بمقدار ما تُحظَى به الأمة من الصلة بالله تعالى والتوكل عليه .

ومن أروع ما أجابهم به بيان أن المؤمنين لايفرُّون أبدًا من المعركة، فإما أن يقتلوا عن آخرهم أو ينتصروا على أعدائهم ويُذلُّوهم ، وفي هذا تهديد بليغ لهم يجعلهم ينهزمون نفسيًا قبل دخول المعركة .

وهنا انتهت هذه المحاورة الشيّقة التي أظهر بها معاذ رضي الله عنه عزة الإسلام والمسلمين ، وبين أنهم ليسوا طلاب دنيا حتى يقبلوا بأنصاف الحلول ، وإنما قَدمُوا لهدف واضح بيَّنه لهم نبيهم ﷺ وبين لهم المنهج الذي يسيرون عليه للوصول إلى هذا الهدف ، فهم ملتزمون به لايحيدون عنه في أي مكان وزمان ، في حال القوة أو في حال الضعف ، وأنهم مستعدون لأن يموتوا جميعًا في سبيله .

محاورة أبي عبيدة مع رسول الروم :

قال أبو إسماعيل محمد الأزدي في سياق روايته : فإنهم لكذلك إذ بعثوا إلى أبي عبيدة رجلا يخبره عنهم ، قالوا : إنك بعثت إلينا رجلا لايقبل النَّصَف ، ولايريد الصلح ولاندري أعن رأيك ذلك أم لا ، وإنا نريد أن نبعث إليك رجلا منا يعرض عليك النصف ، ويدعوك إلى الصلح ، فإن قبلت ذلك منه فلعل ذلك يكون خيراً لك ولنا ، وإن أبيت فلا نراه إلا شراً لك .

فقال أبو عبيدة : فابعثوا من شئتم .

فبعثوا إليه رجلا طويلا أحمر ، أزرق (العينين) فأقبل حتى أتى أبا عبيدة ، فلما دنا من المسلمين لم يعرف أبا عبيدة من أصحابه ، ولم يدر أفيهم هو أم لا ، ولم يُرْهبه مكان أمير[1] ، فقال لهم : يامعشر العرب ، أين أميركم ؟

فقالوا : ها هو ذا ، فنظر فإذا هو بأبي عبيدة جالس على الأرض وهو مُتنكِّب القوس ، وفي يده أسهم ، وهو يقلبها .

---

(١) أي لم ير مظاهر الإمارة التي تبعث على الرهبة .

فقال له الرسول : أنت أمير هؤلاء القوم ؟ قال : نعم .

قال : فما يجلسك على الأرض ؟ أرأيت لو كنت جالسًا على وسادة أو كان تحتك بساط ، أوَكان ذلك واضعك عند الله أو مانعك من الإحسان ؟

قال أبو عبيدة : إن الله لايستحي من الحق ، ولأصْدُقَنَّك عما قلت ، ما أصبحت أملك دينارًا ولادرهمًا وما أملك إلا فرسي وسلاحي وسيفي ، ولقد احتجت أمس إلى نفقة فلم يكن عندي حتى استقرضت من أخي هذا نفقة كانت عنده - يعني معاذًا - فأقرضنيها ، ولو كان عندي أيضًا بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه دون إخواني وأصحابي ، وأُجلس أخي المسلم الذي لا أدري لعله عند الله خير مني على الأرض ، ونحن عباد الله نمشي على الأرض ، ونجلس على الأرض ، ونأكل على الأرض ، ونضطجع على الأرض ، وليس ذلك بناقصنا عند الله شيئًا ، بل يعظّم الله به أجورنا ، ويرفع درجاتنا ، ونتواضع بذلك لربِّنا ، هات حاجتك التي جئت بها .

فقال له الرومي : إنه ليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولاشيء أبغض إليه من البغي والفساد ، وإنكم قد دخلتم بلادنا فظهر منكم فيها الفساد والبغي ، ويقال ، مابغى قوم وأفسدوا في الأرض إلا أهَمَّهم الله بهلاك ، وأنا أعرض عليكم أمرًا لكم فيه حظٌّ إن قبلتموه ، نحن نعطيكم دينارين ، وثوبًا ثوبا ، ونعطيك أنت ألف دينار ، ونعطي الأمير الذي فوقك يعنون عمر ألفي دينار ، وتنصرفون عنا ، وإن شئتم أعطيناكم أرض البلقاء ، وما والى أرضكم من سواد الأردن ، وخرجتم من مدائننا وأرضنا وبلادنا ، وكتبنا فيما بيننا وبينكم كتابًا يستوثق فيه بعضنا من بعض بالأيمان المغلَّظة ، ليقومونّ به وليفينَّ بما عاهد الله عليه .

قال : فحمد الله أبو عبيدة ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي ﷺ ثم قال : إن الله بعث فينا رسولا نبيًّا ، وأنزل عليه كتابًا حكيمًا ، ، وأمره أن يدعو الناس إلى عبادة ربهم ، رحمة منه للعالمين ، وقال لهم : فإن الله إله واحد ، عزيز حكيم ، عليّ مجيد ، وهو خالق كل شيء ، وليس كمثله شيء ، وأمرهم أن يوحّدوا الله الذي لا إله إلا هو ، ولا يتخذوا له صاحبة ولا ولدا ، ولا يتخذوا معه آلهة أخرى ، وأن كل شيء يعبده الناس دونه فهو خلقه ، وأمرنا ﷺ ، فقال : إذا أتيتم المشركين فادعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، وبالإقرار بما جاء من عند الله عز وجل ، فمن آمن وصدّق فهو أخوكم في دينكم ، له مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية حتى يؤدوها عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا أن يؤمنوا أو يؤدوا الجزية فاقتلوهم وقاتلوهم فإن قتيلكم المحتسب بنفسه شهيد عند الله ، وهو في جنات النعيم ، وقتيل عدوكم في النار .

فإن قبلتم ماسمعتم مني فهو لكم ، وإن أبيتم ذلك فابرزوا إلينا حتى يحكم اللهُ بيننا وهو خير الحاكمين .

فقال الرومي : قد أبيتم إلا هذا ؟ فقال له أبو عبيدة : نعم ، فقال له الرومي : أما والله على ذلك ، إني لأراكم تتمنّون أنكم قبلتم منا دون ماعرضنا عليكم .

فانصرف الرومي وهو رافع يديه إلى السماء ، وهو يقول : اللهم إنّا قد أنصفناهم ، فأبوا علينا ، اللهم فانصرنا عليهم [1] .

---

(١) فتوح الشام / ١٢٢ - ١٢٤ .

وبعد : فإن في هذه المحاورة البليغة مواقف عالية : منها ماقام به أبو عبيدة عامر بن الجراح من بيان جملة من مكارم الأخلاق لذلك الرومي الموفد إليهم ، وذلك حينما اعترض على جلوسه على الأرض وهو أمير ، فأبان له أبو عبيدة أن من مظاهر السمو الأخلاقي عند الإنسان أن يتصف بالتواضع والعفة والمواساة ، وأن هذه الأخلاق لاتتنافى مع الإمارة ، بل هي من دعائم قوتها وثباتها ، ومن الدلائل على رجاحة عقل المتصف بها وسداد رأيه .

ومنها جوابه على عروض المساومة التي تقدم بها مندوب الروم ، حيث بين له الهدف الأعلى الذي بعث الله تعالى به نبيه محمداً ﷺ وهو أن يعبد الناس ربهم جلا وعلا وحده لاشريك له فإن وحدوا الله تعالى ودخلوا في الإسلام فهم إخوة للمسلمين وإن أبوا فليدفعوا الجزية التي تعني خضوعهم للمسلمين مقابل تمتُّعهم بحماية دولة الإسلام ، فإن أبوا فلابد من قتالهم ، على أن مما يقوي المسلم ويسلِّيه أنه من قُتل فهو إلى جنات النعيم ، ومما يضعف الكافر ويحسِّره أنه إن قُتل فإلى الجحيم ، فكيف يرضي عاقل لنفسه بالحرمان من الجنة والخلود في النار .

ومع هذا الوضوح الذي بينه أبو عبيدة فإن ذلك الرومي لم يستخدم شيئًا من عقله وفكره ليَزن به كلام أبي عبيدة فيعرف هل هو حق أم باطل ، وإنما الذي كان مهيمنًا عليه هو بيان المهمة التي جاء من أجلها وهي الدعوة إلى الصلح أوَّلاً ثم التهديد بقوة الروم ثانيًا إن لم ينجح الصلح .

وهكذا تكون عبودية البشر للبشر حيث يلغي الأتباع عقولهم ، ويحصرون تفكيرهم على النجاح في أداء المهمة التي كلفهم بها سادتهم .

وصف المعركة :

لما انتهت مفاوضات الروم قال أبو عبيدة : أصبحوا أيها المسلمون وأنتم تحت راياتكم وعلى مصافكم .

وزحف المسلمون إليهم ، وتعرض فرسان المسلمين للروم ولكن الروم ظلوا في معسكرهم ذلك اليوم ، ولا يستطيع المسلمون الوصول إليهم من أجل الوحل الذي صنعوه بينهم وبيْن المسلمين .

ثم خرج إليهم فرسان المسلمين بقيادة خالد وبقي المشاة مع أبي عبيدة في فحل وقد أخرج الروم فرسانهم فأمر خالد قيس بن هبيرة في مجموعة من فرسان المسلمين بأن يهاجموهم فهاجمهم قيس فهزمهم وفرقهم . ثم أخرج الروم طائفة أخرى من الفرسان فأمر خالد ميسرة بن مسروق بالخروج إليهم فخرج في مجموعة أخرى فهزمهم .

ولما رأى الروم ذلك أخرجوا لهم عددًا كبيرًا من الفرسان بقيادة قائد من عظمائهم ، فقسم فرسانه قسمين ، وأرسل قسما نحو خالد بن الوليد فصمد لهم بفرسانه ولم يتزحزح ، ثم أرسل قائدهم القسم الآخر نحو خالد أيضًا فصمد لهم .

ولما رأى خالد قوة معنوية المسلمين وتضعضع فرسان الروم قال لفرسانه : إنه لم يبق من جدِّ القوم ولا حَدِّهم ولاقوتهم إلا ماقد رأيتم فاحملوا معي بأهل الإسلام حملة واحدة واتبعوهم ولاتغفلوا عنهم رحمكم الله .

وحمل خالد بمن معه فاكتسح من أمامه منهم ، ثم حمل قيس بن هبيرة على الذين أمامه منهم فكشفهم ، وحمل ميسرة بن مسروق

العبسي على الذين أمامه فهزمهم ، واتبعهم المسلمون يقتلون منهم وقد اختل نظامهم حتى اضطروهم إلى الانسحاب إلى عسكرهم .

وأراد خالد أن يغتنم فرصة ارتفاع معنوية المسلمين وانحطاط معنوية الروم فقال لأبي عبيدة : إن هزيمتنا خيل المشركين قد دخل رعبها قلوب جماعتهم ، فكلهم قلبه مرعوب متخوف لمثلها منا مرة أخرى فناهض هؤلاء القوم غداً بالغداة مادام رعب الهزيمة في قلوبهم ، فإنك إن أخرت قتالهم أياما ذهب رعب هذه الهزيمة من قلوبهم ونسوها واجترؤوا علينا .

قال أبو عبيدة : فانهضوا على بركة الله غداً بالغداة .

وقام أبو عبيدة بتعبية جيشه في الثلث الأخير من الليل ، وجعل على ميمنته معاذ بن جبل وعلى ميسرته هاشم بن عتبة ، وعلى المشاة سعيد بن زيد ، وعلى الفرسان خالد بن الوليد .

ثم وعظ أبو عبيدة المسلمين مواعظ بليغة منها قوله : كونوا عباد الله أولياء الله ، وارغبوا فيما عند الله أشد من رغبتكم في الدنيا ، ولاتواكلوا فتخاذلوا ، ولْيُغْن كل رجل منكم قرْنَه ، وأقدموا إقدام من يريد بإقدامه ثواب الله ، ولايكن من لقيكم من عدوكم أصبر على باطلهم منكم على حقكم .

وهكذا أمر أبو عبيدة المسلمين بأن يتولوا الله تعالى وذلك بنصرة دينه ، وأن تكون قلوبهم حاضرة مع مستقبلهم الأخروي ، ونهاهم عن التواكل لأن المتواكل قد أهدر جزءاً من طاقته اعتماداً على وقوف إخوانه ، وأوصى كل رجل معه زميل أن يغني زميله ببذل كل طاقته بدلاً من أن يعتمد على زميله ، كما حثهم على الإخلاص لله تعالى في جهادهم

حتى يحصلوا على ثواب المخلصين ويكون عطاؤهم في القتال أقوى وأبلغ، ثم يبين أن من النقص المُشين والخسارة الفادحة أن يكون أهل الباطل أصبر على حماية باطلهم من أهل الحق على حقهم .

ثم نهض أبو عبيدة بالمسلمين إلى الروم يمشي ونهض المسلمون معه تحت راياتهم بسكينة وبصيرة ودعة وحسن رعة[1] .

وصنع الله للمسلمين مالم يكن في حسبانهم وأخرج الرومَ لهم من مكانهم الحصين، وذلك أن « سقلار » قائد الروم أراد أن يغتنم الفرص كما يصنع قواد المسلمين ، فبادر إلى تعبية جيشه ليهجم على معسكر المسلمين ظنًا منه أنهم نيام وأنهم لايفكرون في عبور النهر إليهم، فلما تجاوز بجيشه منطقة الأوحال وأشرف على النهر لم يفاجأ إلا بجيش المسلمين يعبر النهر وكان النهر ضحلا لايعوق السير ، فكان لابد للروم من اللقاء والمواجهة .

ولما رأى الروم ضعف مستوى الأداء لفرسانهم وخيولهم أمام فرسان وخيول المسلمين ابتكروا حيلة لرفع مستوى فرسانهم فجعلوا في صحبة كل فارس رجلا راميًا وآخر يحمل رمحًا ، وهذا يعني أنه إذا واجه فارسهم فارسًا من المسلمين تصدى له الرامي فإذا أفلت منه قد لايفلت من حامل الرمح .

وكان خالد قد تقدم بالفرسان ومعه مساعداه قيس بن هبيرة وميسرة ابن مسروق ، فلما رأى مكيدة الروم تراجع بفرسانه قليلا حتى لصق بجيش المسلمين من المشاة ، وهو يفكر بحيلة يُخرج بها فرسان المسلمين من هذا المأزق .

---

(١) فتوح الشام / ١٢٨ - ١٣٥ .

وهداه الله لذلك ، فقد رأى أن فرسان الروم مُتَركِّزون في قلب جيشهم ، وميمنتهم وميسرتُهم من المشاة . ولم يكونوا بحاجة إلى صف خيولهم على طول جيشهم لأن جيشهم أضخم بكثير من جيش المسلمين .

وكان فرسان المسلمين مُقَسَّمين إلى ثلاثة أقسام : قسم بقيادة خالد نفسه ، وقسم جعل عليهم خالدٌ قيس بن هبيرة ، وقسم جعل عليهم ميسرة بن مسروق ، فلما رأى خالد مافعل الروم بفرسانهم أمر قيس بن هبيرة أن يذهب بفرسانه إلى ميسرة الروم فيغير على مشاتهم ، وأمر ميسرة بأن يبقى في قلب جيش المسلمين ، وذهب هو إلى ميمنة الروم ليغير علي مشاتهم ، وهدفه من ذلك أن يستدرج فرسان الروم للدفاع عن مشاتهم فيتجردوا بذلك من حماتهم من الرماة وحاملي الرماح ، وفعلا انطلقت طائفة من فرسان الروم إلى ميمنتهم وطائفة أخرى إلى ميسرتهم متجردين من حماتهم ، فقال خالد : الله أكبر أخرجهم الله لكم من رجَّالتهم شدُّوا عليهم .

ونجحت مكيدة خالد ، وباءت مكيدتهم بالفشل ، وشد عليهم خالد من جهة وقيس من الجهة الأخرى ، حتى صرعوا عدداً كبيراً من فرسانهم وقد انتقضت صفوف الروم من قبَل خالد وقيس وبقي قلب الروم ، وقد هجم عليهم جيش المسلمين بفرسانهم ومشاتهم وثبت لهم الروم مدة ثم انهزموا أمامهم .

وقد ذكر الرواة أن هذه المعركة من أعنف المعارك التي خاضها المسلمون ، وقد كان عدد المسلمين في حدود ستة وعشرين ألفا إلى ثلاثين ألفا وعدد الروم مابين خمسين ألف وثمانين ألف على اختلاف الرويات ،

والفرق ليس كبيرًا جدًا بالنسبة لما ألفَه المسلمون من كثرة عدد أعدائهم، وإنما كان مرجع ثبات الروم بعض الوقت وشدة قتالهم لكونهم منتخبين من أشداء الروم وذوي البأس فيهم، ومع ذلك لم يستطيعوا الوقوف للمسلمين إلا ساعات من نهار ثم انهزموا.

وقد أسلمتهم هزيمتهم مع الليل إلى الأوحال التي صنعوها لتحول بينهم وبين هجوم المسلمين فشاء الله أن تكون سببًا في هلاكهم فقد تورطوا فيها وهم ينسحبون فتصيَّدهم المسلمون فيها بالرماح ولم ينج منهم إلا قليل [١].

ومما يصور شدة هذه المعركة وضراوتها ما أخرجه الأزدي من خبر سالم بن ربيعة قال: حمل ميسرة بن مسروق [٢] يومئذ ونحن معه في الخيل، فحملنا على القلب، وقد أخذ صف الروم ينتقض من قبَل ميسرتهم وميمنتهم، ولم ينته الانتقاض إلى القلب، فثبتوا لنا وقاتلونا قتالاً شديدًا، فصُرِع ميسرة عن فرسه، وصُرِعْتُ معه، وخرج فرسي فعاد، ويعتنق ميسرة رجلا من الروم فاعتركا ساعة فصرعه ميسرة فقتله، ثم شدّ آخر على ميسرة فعانقه واعتركا ساعة فصَرَع ميسرة وجلس على صدره وشدَّ عليه، فضربت وجه الرومي بالسيف فأطرت قحف رأسه ووقع ميتًا، ووثب ميسرة.

وأقبل إليَّ رجل منهم فضربني ضربة أدارني منها، وبَصُرَ به ميسرة

---

(١) انظر فتوح الشام للأزدي / ١٢٨ - ١٣٣، تاريخ الطبري ٣/ ٤٤٢-٤٤٣.

(٢) هو ميسرة بن مسروق العبسي رضي الله عنه أسلم قديمًا ورسول الله ﷺ بمكة.

فضربه فقتله ، وركبنَا منهم عدد كثير فأحاطوا بنا وظننا والله أنه الهلاك، إذ نظرنا فإذا نحن نسمع نداء المسلمين وتكبيرهم، وإذا صفوفهم قد قربت منا ، وإذا الرايات قد غشيَتْنَا ، فشدَّ الله ظهورنا بإخواننا فانقشعوا عنا .

وحمل عليهم خالد بن الوليد على ميمنتهم فدقَّ بعضهم على بعض حتى دخلوا عسكرهم (١) .

ومن ذلك ما أخرجه الأزدي من خبر ثابت بن سهل بن سعد قال : كان معاذ بن جبل يومئذ من أشد الناس علينا حرصًا ، وأمضاهم في رقاب الروم سيفًا ، فبينما هو يحارب في ميمنة المسلمين إذا أقبلت جنود الروم تحوط عسكر المسلمين ، فبرز إليهم معاذ بن جبل في رجاله ونادى فقال : أيها الناس اعلموا - رحمكم الله - أن الله قد وعدنا بالنصر، وأيدكم بالإيمان ، فانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، واعلموا أن الله معكم ، وناصركم على عبدة الأوثان (٢) .

مواقف جهادية :

هذا وقد كان لبعض قادة المسلمين وأبطالهم مواقف عالية في هذه المعركة الضاربة ، فمن ذلك ما رواه محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن أبيه : أن خالدا قاتل يومئذ قتالا شديدًا، ماقاتل مثله أحد من المسلمين ، وما كان إلا حديثًا ومثلاً لمن

---

(١) فتوح الشام / ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) فتوح الشام / ١٣٧ .

حضره، ولقد كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم فيحمل عليهم حتى يخالطهم، ثم يجالدهم حتى يفرّقهم ويهزمهم ويكثر القتل فيهم.

قال: وسمعت من يزعم أنه قتل في ذلك اليوم أحد عشر رجلا من بطارقتهم و أشدائهم وأهل الشجاعة منهم، وكان يقاتلهم ويقول:

أضربهم بصارم مُهنَّد ضرب صليب الدين هاد مُهتد

لا واهن القول ولا مُفَنَّد [1]

وسيأتي زيادة تنويه بجهاده في خبر هاشم بن عتبة.

ومن ذلك ماأخرجه الأزدي من خبر ربيعة العنزي عن هاشم بن عتبة قال: والله لقد كنا يومئذ أشفقنا على خيلنا أول النهار، ثم إن الله نصرنا عليهم، فما هو إلا أن رأيْنَا خيلنا قد نصرها الله على خيلهم فدعوت الناس إليّ وأمرتهم بتقوى الله وهززت رايتي، ثم قلت: والله لا أردها حتى أركزها في صفهم فمن شاء فليتبعني ومن شاء فليتخلف عني.

قال: فو الله الذي لا إله إلا هو ما أعلم أن أحداً من أصحاب رايتي تخلف عني حتى انتهيت إلى صفهم، فنضحونا بالنشاب فجثونا على الركب واتقيناهم بالدَّرَق [2]، ثم دنوت بلوائي وقلت لأصحابي: شدُّوا عليهم أنا فداؤكم، فإنها غنيمة الدنيا والآخرة، فشددت وشدوا معي، فاستقبلت عظيماً منهم وقد أقبل نحوي فأوجزته الرمح[3] فخر ميتا، وضاربناهم بالسيوف ساعة في صفهم.

---

(١) فتوح الشام / ١٣٦ .

(٢) أي التروس التي يتَّقى بها المحارب .

(٣) أي أسرعتُ إليه بالرمح .

قال : وحمل عليهم خالد بن الوليد من قبَل ميسرتهم ، فقاتلهم قتالا شديدًا سريعًا ذريعًا ، وانتقضت صفوف الروم من قبَل خالد ومن قبَلي ، ونهد إليهم أبو عبيدة بالرجَّالة والناس (١) .

ومن ذلك ما رواه الأزدي من خبر يحى بن هانئ بن عروة المرادي : أن قيس بن هبيرة قطع يومئذ ثلاثة أسياف ، وكسر بضعة عشر رمحًا وكان يقاتل ويقول :

لا يَبْعُدَنْ كـــل فتى كرَّار ماضي الجَنان خشن صبار

حبَوْتهم بالخـيل والأدبار (٢) تُقدم إقدام الشجاع الضَّاري

ومن ذلك ما أخرجه الأزدي من خبر عبد الله بن قُرْط الثِّمالي قال : وكان واثلة بن الأسقع في خيل ابن هبيرة ، فعرض له بطْريقٌ من كبارهم فبرز له واثلة وهو يقول في حملته :

لَيْثٌ وليث في مجال ضَـنْك كـلاهما ذو أَنَـف ومَـعْـك (٣)

أجول جَوْلَ صارم في العرْك أو يكشف الله قناع الشَّك

مَـعْ ظَفَـري بحاجتي وتَرْكي

ثم حمل على البطريق فضربه ضربة فقتله (٤) .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن المؤرخين لم يسجلوا جميع المواقف التي

---

(١) فتوح الشام / ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) لعله أراد الموت .

(٣) الأنَف الإباء ، والمَعْك لَيُّ الخصم وغلَبتُه .

(٤) فتوح الشام / ١٣٣ .

جـرت من المسلمين آنذاك ، وإنما كـانـوا يكتـفـون بذكـر بعض المواقف البـارزة، وينبـغي أن نعلـم بأن جـمـيع الذين شـهـدوا هـذه المعـارك من المسلمين قد بذلوا جهودًا كبيرة من طاقتهم ، ولم يكونوا ينتظرون ثناءًا من أحد لأنهم إنما يريدون وجه الله تعالى .

وإنما نقل الرواة ماحدَّث به بعض من شاهدوا هذه المعارك . وعلى سبيل المثال نجد أن القعقاع بن عمرو الذي كان من البارزين في حرب العراق وكان الرواة هناك ينقلون أخباره قد شارك في كثير من حروب الشام حيث قدم مع خالد ، ولكن لم يُذكر إلا مواقف قليله ، وقد شهد هذه المعركة وكان له فيها أشعار سُجِّلت ومنها قوله :

وغـداة فحل قد رأونـي مُعْلَما	والخيل تَنْحَطُ والبلا أطوار
مازالت الخيل العراب تدوسهم	في حـوم فحـل والـهبا مـوار
حتى رمين سراتهم عن أسرهـم	في ردغـة مابعـدها اسـتمرار
يوم الـرِّداغ بُعَيْد فحـل ساعة	وخـز الرمـاح عليـهم مـدرار
ولقد أَبَرْنا في الرِّداغ جموعهم	طُرّا ونحوي تشخص الأبصار(١)

كتاب من أبي عبيدة لعمر :

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد فالحمد لله الذي أنزل على المسلمين نصره ، وعلى الكافرين

---

(١) تاريخ دمشق ١/ ٤٨٧ ، الطبعة الأولى .

رجزه ، أُخبر أمير المؤمنين - أصلحه الله - أنا التقينا نحن والروم وقد جمعوا لنا الجموع العظام ، فجاءونا من رءوس الجبال وأطراف البحار ، وظنوا أنه لاغالب لهم من الناس ، فبرزوا لنا وبغوا علينا ، وتوكلنا على الله ورفعنا رغبتنا إليه ، وقلنا حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل ، ونهضنا إليهم بخيلنا ورجَّالتنا ، وكان القتال بين الفريقين مَلِيَّان [1] النهار ، أهدى الله فيه الشهادة لرجال من المسلمين ، منهم عمرو بن سعيد بن العاص ، وضرب الله وجوه المشركين ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ، حتى اعتصموا بحصونهم ، فأصاب المسلمون عسكرهم ، وغلبوا على بلدهم ، وأنزلهم الله من صياصيهم [2] ، وقد قذف في قلوبهم الرعب .

فاحمد الله يا أمير المؤمنين أنت ومن قبَلك من المسلمين على إعزاز دينه ، وإظهار الفَلْج [3] على المشركين ، فادعوا الله لنا بتمام النعمة ، والسلام عليك [4] .

وهذا الكتاب مثل من أمثلة كثيرة تدل على اتصاف الصحابة رضي الله عنهمْ بالتوحيد الخالص ، وذلك بإرجاعهم كل الأمور إلى حول الله تعالى وقوته ، وشكره التام على نعمته جل وعلا .

وعلى هذا المنوال جاء كتاب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذي يقول فيه :

---

(١) الملي الساعة الطويلة من النهار ، والمراد جزء منه .

(٢) الصياصي جمع صيصة وهي الحصن وكل ما امتنع به .

(٣) الفلج هو الظفر .

(٤) فتوح الشام / ١٣٩ - ١٤٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى أبي عبيدة ابن الجراح ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد فإنه بلغني كتابك تذكر إعزاز الله لأهل دينه ، وخذلان أهل عداوته ، وكفايته إيانا مئونة من عادانا ، فالحمد لله على إحسانه إلينا فيما مضى ، وحسن صنيعه لنا فيما غيَّر ، الذي عافى جماعة المسلمين وأكرم بالشهادة فريقًا من المؤمنين ، فهنيئًا لهم برضاء ربهم وكراهته إياهم ، ونسأله ألا يحرمنا أجرهم ولايفتنَّا بعدهم ، فقد نصحوا لله وقضوا ماعليهم ، ولربهم كانوا يعملون ولأنفسهم كانوا يهتدون [1] .

* * *

(١) فتوح الشام / ١٤١ .

٢ – حصار دمشق وفتحها –

لقد تم حصار دمشق ثلاث مرات : الأولى بعد وصول خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق ، حيث أصبح أميرًا على الشام وانضم إليه أبو عبيدة بن الجراح بجيشه ، وقد قطع هذا الحصارَ تجمُّعُ الروم في أجنادين حيث ذهب خالد وأبو عبيدة وبقية القادة بجيوشهم وقاتلوا الروم في أجنادين في شهر جمادى الأولى من العام الثالث عشر ، ثم في مرج الصُّفَّر في شهر جمادى الثانية من العام الثالث عشر كما سبق .

والثانية : بعد معركتي أجنادين ومرج الصفر ، وفيها كانت وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في شهر جمادى الثانية من العام الثالث عشر ، وفيها كان عزل خالد وتولية أبي عبيدة على الشام رضي الله عنهما .

والثالثة : بعد معركة فحْل وهي الأخيرة ، وفيها تم فتح دمشق في شهر رجب من العام الرابع عشر للهجرة النبوية[1] .

وبعد هذه المعركة الكبيرة غلب المسلمون على جميع بلاد الأردن ، وكانت نهاية هذه المعركة في آخر شهر ذي القعدة من العام الثالث عشر ، وبعد أن قام الجيش الإسلامي بإخضاع مابقي من القرى والأرياف توجهوا إلى دمشق وعادوا مرة أخرى إلى حصارها .

وظل أبو عبيدة مرابطًا بجيشه عند باب الجابية غربي دمشق ، وخالد ابن الوليد عند الباب الشرقي ، ويزيد بن أبي سفيان عند الباب الصغير إلى باب كيسان جنوبي دمشق ، وعمرو بن العاص على باب توما شمالي

---

(١) انظر تحقيق ذلك في « الطريق إلى دمشق » لأحمد عادل كمال / ٣٥٧ .

دمشق ، وكذلك شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس شمالي دمشق .

وقد طال حصار المسلمين لها لأنها كانت محصنة بسور عظيم مبني بالحجارة الضخمة ، وكان ارتفاعه ستة أمتار تقريبًا ، وسماكته خمسة أمتار ، فكان من الصعب جدًا اقتحامه بأي وسيلة آنذاك كما أن حول السور من خارجه خندقا فيه ماء غزير ، فكان لابد لمن أراد الوصول أن يسبح في الماء .

وقد أغار المسلمون على ما حول دمشق ، وقطعوا جميع الإمدادات التي تصل إليها خاصة من طريق حمص حيث وجَّه أبو عبيدة جيشًا بقيادة ذي الكلاع الحميري ليصد أي إمداد يرسله الروم إلى دمشق وقد تصدى لجيش رومي جاء لهذا الغرض .

ولقد يئس الروم من الإمدادات ، ولكنهم كانوا ينتظرون بالمسلمين حلول فصل الشتاء لظنهم أنهم لن يستطيعوا البقاء في العراء مع شدة البرد .

ولقد كان حاكم دمشق الرومي يائسًا من الانتصار على المسلمين من قَبْل حصارهم .

ومما جاء في هذا المعنى ماذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله من حديث الوليد بن مسلم قال : أخبرني من سمع يحى بن يحى الغساني يحدث عن رجلين من قومه قالا : لما نزل ا لمسلمون بناحية الأردن تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصر ، فذهبنا نتسوَّق منها قبل ذلك ، فبينما نحن فيها إذ أرسل إلينا بطريقها فجئناه ، فقال : أنتما من العرب؟ قلنا : نعم ، قال : وعلى النصرانية : قلنا : نعم ، فقال : ليذهب أحدكما فليتجسس لنا عن

هؤلاء القوم ورأيهم، وليثبت الآخر على متاع صاحبه، ففعل ذلك أحدنا، فلبث مليّاً ثم جاءه فقال : جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولاً عتاقا ، أما الليل فرهبان ، وأما النهار ففرسان ، يريشون النبل ويبرونها ، ويثقفون القنا ، لو حدثت جليسك حديثا ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر ، قال : فالتفت إلى أصحابه وقال : أتاكم منهم ما لاطاقة لكم به (١) .

وفي رواية أخرى لهذا الخبر ذكرها الحافظ ابن عساكر من خبر يحيى ابن يحيى الغساني عن هذين الرجلين قالا : فبينا نحن على برج بابها الشرقي إذ نشَّب أصحاب خالد بن الوليد القتال، ودنا رجل منهم في يده اليمنى السيف، وفي يده اليسرى الدَّرَقة فنادى بالبراز، فقال لنا : مايقول : قلنا : نقول إنه يدعو إلى المبارزة ، فأنزلوا جبشيا كالبعير مستائما عليه سلاحه، فتدانى فضربه المسلم فقتله، ثم نادى بالبراز فأنزلوا إليه صاحب بندهم، أجلسوه على باب دلَّوه، فتدانى فضربه المسلم فقتله، ثم نادى بالبراز ، فقال : قل للشيطان يبارزك (٢) .

فهذا المجاهد البطل الذي لم يذكر اسمه قتل اثنين من أبطال الروم مبارزة ، ثم لما يئسوا من مبارزته قالوا تلك الكلمة التي تدل على اعترافهم بقوة المسلمين وعجزهم عن مقاومتهم مقاومة الند للند، ومن المعروف أن المبارزة ترفع من معنوية الجيش الذي ينتصر مبارزوه، بينما تهبط من معنوية الجيش الذي ينهزم مبارزوه، ولذلك يُقدم عليها المسلمون كثيراً لثقتهم بأبطالهم .

---

(١) البداية ٧/ ١٥ ، تاريخ دمشق ٢/ ٩٦ .

(٢) تاريخ دمشق ٢/ ١١٨ .

وفي رواية أخرى لابن عساكر : فلما طال عليهم الحصار دسَّ بطريقهم عيونا فجسُّوا عساكرهم وأمراءهم، ثم عادوا إلى عظيمهم فسألهم بما جسُّوا و رأوا فقالوا : أما الليل فطول القيام وأما النهار فالخير الظاهر والحرص على الجهاد ، وإن وجد أحدهم نعلا أو كبَّة شعر أو غزل دفعها إلى صاحب المَقْسم ، فإذا قال صاحب المقسم ، ماهذا ؟ قالوا : هذا مالا نستحله إلا بحلِّه ، فلما سمع عظيم دمشق هذه القصة قال : مالنا بهؤلاء طاقة ولا لنا في قتالهم خير[1] .

وفي هذه الرواية إضافة ، وهي وصف المسلمين بالأمانة حيث يسلِّمون لصاحب الغنائم كل ماوجدوه وإن كان شيئًا حقيرا لايُؤْبَه له .

وقد جاءت عدة روايات في بيان هذا الحصار وكيف تم الفتح بعد ذلك وإن من أمثل هذه الروايات وأوضحها ما أخرجه ابن جرير الطبري من رواية سيف بن عمر .

وقد جاء في هذه الرواية : فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق ، وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ، وهرقل منهم قريب ، وقد استمدوا ، وذو الكلاع بين المسلمين وحمص على رأس ليلة من دمشق كأنه يريد حمص- وكان أبو عبيدة بعثه في جيش ليصد أمداد الروم - .

قال : وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق ، فأشْجَتْها الخيول التي مع ذي الكلاع ، وشغلتها عن الناس ، فأرَزوا ونزلوا بإزائه ، وأهل دمشق على حالهم .

---

(١) تاريخ دمشق ٢/ ١٢٣ - ١٢٤ .

فلمـا أيقن أهل دمـشق أن الأمـداد لاتصل إليـهم فـشلوا ووهنوا وأبلسوا- يعني تحيروا - وازداد المسلمون طمعا فيهم ، وقد كانوا يرون أنها كالغارات قبل ذلك ، إذا هجم البرد قفل الناس ، فسقط النجم والقوم مقيمون ، فعند ذلك انقطع رجاؤهم ، وندموا على دخول دمشق، وولد للبطريق - يعني قائد الروم - الذي دخل على أهل دمشق مولود فصنع عليه - يعني طعاما - فأكل القوم وشربوا ، وغفلوا عن مواقفهم ، ولايشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ماكان من خالد فإنه كان لاينام ولايُنيم ، ولايخفى عليه شيء من أمورهم ، عيونه ذاكية وهو مَعنيٌّ بما يليه، قد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم ، وأوهاقا - يعني حلقًا تكون بأطراف الحبال لتمسك بشرف السور - .

فلما أمسى من ذلك اليوم نهد - يعني مضى - ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه في أول يومه - يعني الذين لازموه من أيامه الأولى- وقالوا : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارْقَوا إلينا ، وانهدوا للباب .

فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف، وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم - وقد كان الماء فيه عميقًا كما تقدم - فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيهما القعقاع ومذعور ثم لم يدعا أحبولة إلا اثبتاها - والأوهاق بالشرف - وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق ، أكثره ماء وأشده مدخلا، وتوافوا لذلك ، فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقى أودنا من الباب، حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه ، وانحدر معهم، وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي، وأمَرهم بالتكبير فكبَّر الذين على رأس

السور ، فنهد المسلمون إلى الباب ، ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها .

وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم ، وانحدر إلى الباب فقتل البوابين ، وثار أهل المدينة ، وفزع سائر الناس ، فأخذوا مواقفهم ولايدرون ما الشأن ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم ، وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين .

فأقبلوا - يعني الروم - عليهم من داخل ، حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل إلا أُنيم ، ولما شد خالد على من يليه ، وبلغ منهم الذي أراد عنوة أرز من أفلت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره ، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة - يعني على نصف الأملاك - فأبوا وأبعدوا ، فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح ، فأجابوهم وقبلوا منهم ، وفتحوا لهم الأبواب ، وقالوا : ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ، ودخل خالد مما يليه عنوة ، فالتقى خالد والقواد في وسطها ، هذا استعراضًا وانتهابًا ، وهذا صلحا وتسكينا ، فأجروا ناحية خالد مُجْرَى الصلح فصار صلحا [1] .

هذا وإننا من هذا الموقف العظيم لخالد رضي الله عنه نكتشف مقدرته الخارقه في شئون الحرب ، لا في مجال ميدان المعارك فحسب وما يتطلب ذلك من شجاعة وحسن تدبير ، بل في التخطيط العالي في جميع شئون الحرب .

وإننا لنستفيد من هذا الموقف عبرًا عظيمة ، فلابد أن يكون القائد متيقظًا دائمًا ، وأن لايعتمد في الأمور المهمة على غيره إلا إذا كانوا في

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٣٨ .

مستواه ، وأن يُكثِر من بَثِّ العيون المخلصين الذين يكشفون له عن تحركات العدو وأعماله في كل الأوقات .

كما نستفيد من بلادة الأعداء وتهاونهم أن إهمال ساعة قد يضيِّع مفعول سنة من الصبر والمصابرة ، وأن الاشتغال بالأدنى يحول دون بلوغ معالي الأمور .

هذا وإن خوض خالد بنفسه هذه المغامرة ليدلنا على عظمته القيادية فهو لا يعيش في أبراج محصنة ويتقي بجنده المخاطر ، بل يقودهم في هذه المخاطر ، وإن الجندي حينما يرى قائده يدخل معه في المخاطرة يحاول أن يبذل كل ما يملكه من طاقة من أجل بلوغ الأهداف .

إن الذي يتصور خالدًا وهو يحمل القربة المنفوخة فوق ظهره ، ويسبح في الماء ، ثم يصعد إلى السور على الحبال ، ثم يهبط إلى ميدان الأعداء . . إن من يتصور قيام خالد بهذه العملية وهو الذي ملأ الدنيا شرقها وغربها شهرة ومجدا يدرك كيف كانت عظمة المسلمين الأوائل ، ويعرف سببًا مهمّا من أسباب انتصاراتهم الباهرة ، التي خلدها التاريخ ، وأصبحت مضرب الأمثال .

هذا وإن تصرف أبي عبيدة رضي الله عنه في إجراء فتح دمشق مجرى الصلح كلها ليعتبر مثالاً لكمال العدل والوفاء ، حتى مع الأعداء الذين لو ظفروا بالمسلمين لمزقوهم ، وظاهر من العرض السابق أن الروم لم يرضوا بالصلح إلا بعد أن فُتح جزء من مدينتهم عنوة ، والجيش الإسلامي واحد وإن تقسم إلى أقسام ، فكان بإمكان أبي عبيدة أن يرفض الصلح بعد ماتبين له ما قام به خالد ، لكنه قد أعطاهم موافقة على

الصلح ، فمن تمام الوفاء أن يُتم لهم ماوافقهم عليه ، وإن كانوا قد اغتنموا فرصة عدم علمه بما قام به خالد ، فالمسلمون قدموا ليفتحوا القلوب قبل فتح البلدان ، فكانت أخلاقهم العالية هي الجاذب الأول لأبناء البلاد المفتوحة نحو الدخول في الإسلام .

وقبل مغادرة أحداث هذا الحصار نشير إلى عمل فدائي قام به أحد الصحابة بمفرده وهو واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، فقد ذكر الإمام الذهبي من حديث بسر بن عبيد الله عن واثلة . قال : فأسمع صرير باب الجابية - وهو أحد أبواب دمشق - فمكثت فإذا بخيل عظيمة فأمهلتها ، ثم حَمَلت عليهم وكبَّرت فظنوا أنهم أحيط بهم ، فانهزموا إلى البلد ، وأسلموا عظيمهم - يعني قائدهم - فدعسته بالرمح وألقيته عن برذونه ، وضربت يدي على عنان البرذون وركضت ، والتفتوا فلما رأوني وحدي تبعوني فدعست فارسًا بالرمح فقتلته ، ثم دنا آخر فقتلته ، ثم جئت خالد ابن الوليد فأخبرته وإذا عنده عظيم من الروم يلتمس الأمان لأهل دمشق(١) .

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٨٦ - ٣٨٧ .

٣ - فتح مدينة حمص -

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من خبر محرز الباهلي قال : ثم خرج أبو عبيدة نحو حمص ، فخرج إليه أهل حمص جمعًا عظيمًا ، ثم استقبلوا بجوسية [١] ، فرماهم أبو عبيدة بخالد بن الوليد ، فأقبل خالد فلما نظر إليهم خالد قال : يا أهل الإسلام الشَّدَّةَ الشَّدَّة ، ثم حمل خالد عليهم وحمل المسلمون معه ، فولَّوا منهزمين حتى دخلوا مدينتهم .

وبعث خالد بن الوليد ميسرة بن مسروق العبسي فاستقبل خيلاً لهم عظيمة عند نهير قريب من حمص ، فطاردهم قليلا ثم حمل عليهم فهزمهم .

وهكذا كان النصر حليف المسلمين إلا في الشاذ النادر مهما قلوا وكثر أعداؤهم ، وإن يكن ذلك عجيبًا فأعجب منه أن فارسًا من المسلمين يُدْعَى شرحبيل بن حمْيَر انفرد عن بقية الجيش ، فعرض له بعض فرسان الروم ، فحمل عليهم فقتل منهم سبعة ، ثم جاء إلى نهر قبَل حمص عند دير مسْحَل فنزل عن فرسه وسقاه ، وجاءه نحو من ثلاثين فارسًا من أهل حمص ، فلما رأوه واحدًا أقبلوا نحوه وراء النهر ، فأقحم فرسه الماء وعبر إليهم ، ثم ضرب فرسه وحمل عليهم في كل حملة يقتل رجلا حتى قتل أحد عشر رجلا ، وانتهوا إلى دير مسحل ، فاقتحموا جوف الدير ، واقتحم شرحبيل معهم ، فرماه أهل الدير بالحجارة حتى قتلوه [٢] .

---

(١) قرية قرب حمص .

(٢) فتوح الشام / ١٤٥ .

وإن مثار العجب أن يتصدى فارس واحد لمجموعة من الفرسان فيقتل منهم ويهزم بقيتهم ، ثم تأتي مجموعة أخرى يحول بينه وبينهم النهر فيطمعون فيه فلا ينتظر حتى يعبروا إليه ، بل يُقحم فرسه ويعبر إليهم ، ولاشك إن إقدامه هذا قد أوقع الرعب في قلوبهم فصار يقتل منهم حتى فروا منه ولجئوا إلى ذلك الدير ، وأخيراً غدروا به كفعل الجبناء الذين لايواجهون في الميدان وإنما يدافعون من الأبراج المحصنة .

وإذا كان هذا خبر فارس مغمور ليس له ذكر في التاريخ فكيف بالفرسان المسلمين الذين ملئوا صفحات التاريخ بطولة وفداءًا ؟

وإن جيشًا يكون هذا أحد أفراده العاديين لايمكن أن يُغلب بإذن الله تعالى .

ثم ذكر الأزدي في سياق الخبر السابق أن المسلمين نزلوا على باب الرَّسْتَن أحد أبواب مدينة حمص ، وأنهم حاصروا أهل هذه المدينة حصاراً شديدًا ، وأن أهل حمص أخذوا يقولون للمسلمين، اذهبوا نحو الملك فإن ظفرتم به فنحن كلنا لكم عبيد ، قال : فأقام أبو عبيدة على باب الرستن بالناس ، وبث المسلمون الخيل في نواحي أرضهم فأصابوا منهم غنائم كثيرة ، وقطعوا عنهم المدد والميرة ، واشتد عليهم الحصار وخشوا السبي فأرسلوا إلى المسلمين فطلبوا إليهم الصلح ، فصالحهم المسلمون وكتبوا لهم كتابًا بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وعلى أن يُضيفوا المسلمين يومًا وليلة ، وعلى ألاَّ يعمروا بيعَهم ، وصالحوا على أرض حمص كلها ، على أن عليهم مائة ألف دينار وسبعين ألف دينار .

فقبل ذلك منهم المسلمون ، وفرغوا من الصلح ، وفتحوا باب المدينة، ودخل المسلمون ، وآمن بعضهم بعضًا [1] .

* * *

(١) فتوح الشام / ١٤٥ - ١٤٦ .

٤ – خبر قيصر حين بلغه فتح الشام –

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله بن قرْط الثمالي ، قال : عسكر أبو عبيدة بن الجراح ونحن معه حول حمص نحوا من ثماني عشرة ليلة ، وقد وجّه عماله في نواحي من أرض حمص ، واطمأن في عسكره ، وذهبت منهزمة الروم من فحْل حتى قدموا على ملك الروم بأنطاكية ، وخرجت فرسان من فرسان الروم ورجال من عظمائهم وذوي الأموال والغنى والقوة ممن كان واطن الشام ، فدخلوا قيسارية ، وتحصن أهل فلسطين بإيلياء .

فلما قدمت الهزيمة على هرقل بأنطاكية دعا رجلا من عظمائهم ، وعددًا من فرسانهم وأشدائهم ، فدخلوا عليه ، فقال : أخبروني ويلكم من هؤلاء القوم الذين تلقونهم ، أليسوا بشراً مثلكم ؟

قالوا : بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟

قالوا : نحن أكثر منهم أضعافًا ، وما لقيناهم في موطن إلا ونحن أكثر منهم .

قال : ويلكم ، فما بالكم منهزمون إذا لقيتموهم ؟ فسكتوا ، فقام شيخ منهم ، فقال : أنا أخبرك أيها الملك من أين يُؤتَون ، قال : فأخبرني .

قال : إنا إذا حملنا عليهم صبروا ، وإذا حملوا علينا لم يكذبوا ، ومن حيث إنا نحمل عليهم فنكذب ، ويحملون علينا فلا نصبر .

قال : ويلكم ، فما بالكم كما تصنعون ، وهم كما تزعمون ؟

قال الشيخ : ما أراه إلا وقد علمت من أين هذا ، قال له : ومن أين هذا ؟

قال : من أجل أن القوم يقومون الليل ، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولايظلمون أحدًا ، ويتناصفون فيما بينهم ، ومن أجل أنا نشرب الخمور ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ، ونظلم ، ونأمر بسخط الله ، وننهى عن ما يرضي الله ، ونفسد في الأرض .

قال : صدقتني والله ، والله لأخرُجنَّ من هذه القرية ، ولأدعنَّ هذه البلدة ، ومالي في صحبتكم من خير وأنتم هكذا .

قال له الشيخ ، أنشدك الله أيها الملك أن تترك سورية وهي جنة الدنيا للعرب ، ونخرج منها ولَمْ نقاتل ونجهد .

قال : قد قاتلتموهم غير مرَّة بأجنادين ، وفحل ، ودمشق ، والأردن، وفلسطين ، وحمص ، وفي غير موطن من المواطن ، كل ذلك تنهزمون وتفرّون وتُغلَبون .

قال له الشيخ : أنشدك الله أيها الملك أن تخرج وحولك من الروم عدد الحصا والتراب والذرِّ ، لم يلقهم منهم إنسان ، ثم تريد أن تخرج منها، وترجع بهؤلاء جميعًا من قبل أن تقاتلوا ؟

قال : فإن هذا الشيخ ليكلمه بذلك إذ قدم عليه وفد أهل قيسارية ووفد إيلياء (١) .

---

(١) فتوح الشام / ١٤٩ - ١٥١ ، البداية والنهاية ٧/ ١٥ .

وهكذا ظهر واضحًا أن عقلاء الروم كانوا يعلمون مَكَامن القوة عند المسلمين ، وأسباب انتصاراتهم ، كما كانوا يعلمون من أين تُؤْتَى جيوشهم، ومع ذلك فإنهم يُصرُّون على حرب المسلمين من غير أن يحاولوا تغيير ما بأنفسهم ، فيُهْزَمون في كل مرة .

* * *

مواقف وعبر
فى فتوح العراق الثانية
(ما قبل القادسية)

كانت فتوح العراق الأولى على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه كما سبق ، إلى أن رحل إلى الشام مددا للمسلمين هناك، وقد تولى أمر جيش المسلمين في العراق بعد رحيل خالد المثنى بن حارثة الشيباني، وقد قام بتنظيم جيشه ، وولَّى عددًا من أهل البسالة والإقدام بدلا من الذين أخذهم خالد معه .

ولما علم أهل فارس بغيبة خالد أرادوا اغتنام الفرصة للقضاء على بقية جيش المسلمين فوجهوا جيشًا نحو عشرة آلاف بقيادة هرمز بن جاذويه، وقد كتب شَهْر بَراز [1] ملك الفرس إلى المثنى : إني قد بعثت إليك جندًا من وَخش أهل فارس[2] ، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلا بهم ، فكتب إليه المثنى : من المثنى إلى شهْر بَراز إنما أنت أحد رجلين : إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله في الناس الملوك، وأما الذي يدلنا على الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير قال : فجزع أهل فارس من هذا الكتاب ، ولاموا شهر براز على كتابه إليهم واستهجنوا رأيه[3] .

هذا وقد وُفِّق المثنى بهذا الرد المحكم فقد حصر أمر كسرى بأحد مقصدين : الأول البغي ، والمراد بالبغي هنا الكبرياء والاستهانة

---

(1) جاء في « البداية والنهاية » شهريار وصوابه شهر براز وهو ابن أردشير بن شهريار كما في تاريخ الطبري .

(2) يعني من رذائلهم وسقطهم .

(3) البداية والنهاية ٧/١٧.

بالآخرين حيث إن إرسال هذا النوع من الجنود يعني عدم إقامة وزن يذكر للعدو المحارب ، وهذا نوع من الغرور الذي يسلم صاحبه إلى الفشل، ولذلك قال المثنى : إنما أنت أحد رجلين : إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، والمقصد الآخر الكذب ، فالكذب ضعف وخور ولايصدر إلا ممن ضعف عن المقاومة وعجز عن المواجهة فتدرع بالكذب ليستر نقصه وعُواره ، ولذلك قال المثنى : وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله الملوك ، ثم بكَّتهم وبين عجزهم ونَفَاد قوتهم بقوله: فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير .

وقد سار المثنى من « الحيرة » إلى « بابل » فتوغل في أرض الفرس من أجل أن لايترك لهم مجالا لاستعادة القرى التي سيطر عليها المسلمون، وقد التقوا عند عُدوة نهر الصراط الأولى ببابل ، فاقتتلوا قتالا شديدًا جدًا ، وأرسل الفرس فيلا بين صفوف الخيل ليفرق خيول المسلمين فحمل عليه المثنى بن حارثة فقتله ، وأمر المسلمين فحملوا . فلم تكن إلا هزيمة الفرس ، فقتلوهم قتلا ذريعًا ، وغنموا منهم مالاً عظيمًا، وفَرَّت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شر حالة .

وقد أشاد الفرزدق بعد ذلك بالمثنى لقتله الفيل حيث يقول :

وبَيْت المثنى قاتل الفيل عنوة ببابل إذ في فارس ملك بابل[1]

وبعد هزيمة الفرس في هذه المعركة ظل المثنى ينتظر أخبار أبي بكر الصديق وأوامره رضي الله عنه ، وقد انشغل الصديق بحروب الشام، وانشغل أهل فارس عن المسلمين بالشقاق والخلاف بينهم على

---

(١) البداية ٧/ ١٧ .

الملك، فـاغتنم ذلك المثنى ووفـد على الصـديق في المدينة فوافـاه في مرض الموت، وقد أوصى أبو بكر عمـر رضي الله عنهما بقوله : إذا أنا مت فـلاتمسين حـتى تندب الناس لحـرب أهل العـراق مع المثنى ، فكان أول عمل قام به عمر أن ندب الناس مع المثنى لحرب أهل فارس قبل صـلاة الفجر من الليلة التـي توفي فيهـا أبو بكر ، ثم كرر ذلك ثلاثة أيام حـتى انتـدب الناس لهذا الـوجه ، وكـان أول من بادر إلى الجهاد أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم تتابع الناس، وقد ولاه عمر على هذا الجـيش وعلى حـرب العـراق ، ثم كُـلِّم في أن يولي رجـلا من المهاجـرين أو الأنصار فقال : لا والله لا أفـعل ، إن الله إنما رفعكم بسبـقكم وسرعـتكم إلى العدو ، فـإذا جبنتم وكـرهتم اللقـاء فأولى بالرئاسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم إلا أولَّهم انتدابًا [1] .

وإنما فعل ذلك عمر مع معرفته بفضائل الصحابة رضي الله عنهم على غـيـرهم ليـدفع الناس إلى الإسـراع في الاسـتـجـابة حـيث لم يستجيبوا إلا في اليوم الثالث ، ولم يكن ذلك من عادتهم فلعل موت الصديق رضي الله عنه كان له أثر في ترددهم وتأخرهم .

على أن عـمر رضي الله عنه لم يكن ليـولي القيـادة رجلا يفـقد الكفاءة لمجرد أنه أول من استجـاب ، بل هو متصف بذلك مع وجود من يتصف بالكفاءة من الصحابة ولكن عمر رجح في هذه المرة جانب المبـادرة إلى الاسـتـجابة لـناحيـة تربوية قصـد بهـا دفع المسلمين إلى الاهتمام بالجهـاد في سبيلِ الله تعالى ، وقد اثبتـت الأيام أن أبا عبيد

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٤٤ ، البداية ٧/ ١٨ .

رحمه الله كان يتصف بالشجاعة والفداء والشهامة والسخاء كما سيأتي في المواقف التالية إن شاء الله تعالى .

وإنما كان يخشى عليه عمر رضي الله عنه من التسرع وزج المسلمين في المهالك نظراً لأنه شجاع وليس لديه خبرة بحرب فارس، كما كان يخشى عليه أن يدفعه إقدامه وحماسه إلى التفرد بالرأي وعدم الأخذ بالشورى فلذلك زوده بنصائح نافعة في هذا المجال . فكان مما قال له: اسمع من أصحاب النبي ﷺ ، وأشركهم في الأمر، ولاتجتهد مسرعا حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لايصلحها إلا الرجل المكيث ، الذي يعرف الفرصة والكف .

وقال له أيضًا : إنك تَقدُم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية - يعني التسلط والجبروت- تَقدُم على قوم قد جرؤوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ، واخزن لسانك ولاتفشينَّ سرك، فإن صاحب السر ماضبطه متحصِّن لايؤتَى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بمضيعة .

ونراه يركز مرة أخرى في نصيحته على التريث والتروي فيقول لأبي عبيد : إنه لم يمنعني أن أؤمر « سليطا » إلا سرعته في الحرب، وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان ، والله لولا سرعته لأمرته ولكن الحرب لايصلح لها إلا المكيث (١).

وقد كان سليط بن قيس الأنصاري ممن بادر بعد أبي عبيد إلى الجهاد.

* * *

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٤٥ - ٤٥٤ .

١ – معركة النمارق –
٢ – معركة كسكر –
٣ – معركة باقسياثا –

تبين لنا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد جهز جيشًا إلى العراق بقيادة أبي عبيد بن مسعود وقد سبقه المثنى بن حارثة ليلحق بجيشه المهدد من الفرس ، ثم لحق به أبو عبيد بعد شهر .

وكان الفرس قد انشغلوا عن المسلمين طوال غيبة المثنى بموت ملكهم شهر براز ، فقد حدث تنازع بين آل كسرى، حتى اجتمع الفرس على بوران بنت كسرى عند قدوم المثنى ، واسندت بوران أمور الحرب والملك إلى رستم ، وكان من أعظم قادة الفرس ، وكان أول ماقام به أن أرسل بعض قادة الفرس ليقوموا بثورات من داخل أقاليم العراق ، ولما علم أهل العراق بتماسك دولة الفرس بدأ كثير منهم بالانتقاض على المسلمين، وقد تصرف المثنى إزاء ذلك بحكمة حيث جمع قواته من المناطق المختلفة وانحاز بهم إلى «خَفَّان» قريبا من الصحراء حتى لايُؤتَى من خلفه وانتظر قدوم أبي عبيد .

وكان أول من ثار وجمع الجيوش من الفرس « جابان » وقد نزل بجيوشه في«النمارق» ، وقدم أبو عبيد وأقام بخفان أيامًا ليستريح أصحابه ، ثم سار بجيشه بعد تعبئته نحو النمارق وعلى خيله المثنى ، وعلى ميمنته والق بن جيداره وعلى ميسرته عمرو بن الهيثم بن الصلت بن حبيب السلمي فنزلوا على جابان في النمارق واقتتلوا قتالا شديدًا فهزم الله أهل فارس ، وأُسرَ جابان ، أسره مطر بن فضة التميمي وهو لايعرفه، فخدعه جابَان حتى تفلَّت منه بشيء فخلَّى عنه، فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد وأخبروه أنه قائد الفرس

وأشاروا عليه بقتلـه فقال : إني أخـاف الله أن أقتله وقـد أمَّنه رجل مسلم ، والمسلمـون في التَّواد والتناصـر كالجسد مـالزم بعضهم فـقد لزمهم كلهم فقالوا : إنه المـلك - يعني القائد - قال : وإن كان ، لا أغدر ، فتركه [1] .

وهذا الموقف من أبي عبيـد يعتبر مثالا على سـماحة المسلمين ، ووفائهم بالعهود وإن أبرمها بعض أفرادهم ، ولاشك أن هذه الأخلاق العالية كان لها أثر كبـير في اجتذاب الناس إلى الدخول في الإسلام، فحينما يتسامع الناس أن المسلـمين أطلقوا أحد قادة الفرس الذين كانوا أسرع الناس في عـدائهم لمجرد أنه اتفق مع أحد المـسلمين على الفداء فإنهم ينجذبون إلى هذا الدين الذي أخرج هؤلاء الرجال .

ولاننسى قبل أن نعرض الأحـداث موقف المثنى بن حارثة الرائع حيث استـسلم لإمارة أبي عبيد مع أنه يَقْـدُم العراق لأول مرة ، لأن أمير المؤمنين أمَّره عليه ، فكان نعم القائد ونعم الجندي ، ولعلنا على ذكر لـموقفه المـشابه مع خـالد بن الوليد لما ولاه أبو بكر على الـعراق وكان المثنى أسـبق منه في حرب الفرس ، فلم يختلف غـناؤه وجهده في حالي القيادة والجندية ، وهكذا يكون عظماء الرجال .

هذا وقد انهزمت فلول الفرس نحو « كَسْكَر » وكانت هذه القرية إقطاعا خاصا لنَرْسى ابـن خالة كسرى وكان فيهـا فواكه لايأكلها إلا ملوك الفرس ، فأمـر أبو عبيد فرسان المسلمين بمطاردة الـفرس فقال: اتبعوهم حتى تُدخلوهم عسكر نَرْسى أو تبيدوهم فيما بين النمارق إلى بارق إلى دُرْتا .

ولحق بهم أبو عبيد ببقية الجيش ، وعلم رستم بهزيمة جابان فبعث

---

(1) تاريخ الطبري ٣/ ٤٤٨ .

الجالنوس لنجـدة نَرْسى ومن انضم إليه في كـسكر ، ولكن أبا عبـيد عاجلهم والتقى بهم في مكان أسفل كسكر يقـال له السَّقاطين فاقتتلوا قتـالا شديدًا ، ثم إن الله هزم فارس وهرب نرسـى وغلب المسلمون على عسكره وأرضـه ، ووجدوا في خزائنه شـيئًا عظيـما ولم يكونوا بشيء أفرح منهم بشـجر النَّرسيـان لأن « نَرْسى » كان يحميـه ويمالئه عليهم ملوكهم فاقتسموه فجعلوا يطعمونه الفلاحين وبعثوا بخُمسه إلى عمر، وكـتبوا إليه: إن الله اطعـمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحـمونها وأحببنا أن تروها ولتذكروا إنعام الله وإفضاله[1] .

وفي هذا الخبر إشارة إلى نوع من الأخـلاق الرفيعة لدى المسلمين حيث رفعوا من شأن الفلاحين المحرومين فأطعموهم من طعام ملوكهم الذي كان محرما عليـهم ، فكأنهم بهذا يقولون لهم : تعالوا إلى هذا الدين العظيم الذي يرفع من شأنكم ويرد عليكم كرامتكم الإنسانية .

وأقام أبو عـبيد بكسكر وبعث قـواتٍ لمطاردة الفرس وتأديب أهل القرى المجاورة الذين نقضوا العهد ومالئوا الفرس .

ورجحت كفة المسلمين في المنطقـة بعد هذا الانتصار وجاء بعض الولاة يطلبون الصلح، وقدَّم واليان منهم طعامـا خاصا لأبي عبيد من فاخر أطعمتهم فقـالوا : هذه كرامة أكرمناك بها ، وقِرًى لك، قال : أأكرمتـم الجند وقريتموهم مـثله ؟ قالوا : لم يتيسـر ونحن فاعلون ، فقال أبو عبيد : فلا حاجة لنا فيما لايسع الجند ، فَردَّه .

وأتاه أولئك الدّهاقين المتربِّصـون جميـعًا بما وسع الجند ، وهابوا وخافوا على أنفـسهم . فقال أبو عبـيد : ألم أعلمكم أني لستُ آكلا إلا مايسع من معي ممّن أُصِبـتم بهم ! قالوا: لم يبق أحدٌ إلا وقد أُتِيَ

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٥٠ -٤٥١ .

بشَـبَعه من هـذا في رحالهم وأفـضل . فلما علم قَـبِلَ منهم ، وأكل وأرسل إلى قوم كانوا يأكلون معه أضيـافًا عليه يدعوهم إلى الطعام ، وقد أصـابوا من نُزُلِ فارس ولم يرواْ أنهم أتـوا أبا عبيـد بشيء فظنّوا أنهم يُدعون إلى مثلَ ما كانوا يُدعون إلـيه من غليظ عيش أبي عبيد ، وكرهوا ترك ما أُتُوا به من ذلك، فقالوا له : قل للأمير ، إنَّا لانشتهي شيـئًا مع شيء أتتنا به الدهاقين، فأرسل إليـهم : إنَّه طعام كثـير من أطعمة الأعاجم ، لتنظروا أين هو مما أُتِيتم به[1] .

وهكذا أكل هذا الأميـر الكريم المتواضع بعد ماردَّ طعـام الأعاجم مرتـين لما علم في الثالثـة أنهم أطعمـوا جمـيع الجند مثلـما أطعـموه وأفضل، ومع هذا لـم يرض أن يأكل وحده حتى دعـا أضيـافه وألح عليـهم حتى بعـد أن علم أنهم أصابوا من طعـام الفرس وعـدَّد لهم أصناف هذا الطعـام ليرغـبهـم في مشـاركتـه ، وهذا لون من الكرم الرفيع، والكرم من أهم عناصر السيادة .

وإن هذه الأمثلة لتدلنا على مقدار مـابلغ إليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان من الرقي الأخلاقي والتقدم الحضاري .

ولما علم أبو عبيـد بتقدم جالنوس نهد إليه بالمسلمين فـالتقوا عند «باقسياثا » فهزمهم المسلمون وهرب الجالنوس ، وغلب المسلمون على بلادهم [2] .

وهكذا تم القـضاء على ثلاثة جـيوش للفـرس في مدة وجـيزه، وكان بإمكان الفـرس أن يوحدوا هذه الجيـوش وأن يأتوا المسلمين من أمامهم وخلـفهم وعن يمينهم وشمالهم ، لكثـرة عددهم ، ولكن الله

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٥١ - ٤٥٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٥٢ - ٤٥٣ .

أعمى بصائرهم وكـانوا لشدة خوفهم من المسلمين يـتمنى كل قائد أن يكفيه الآخر مهمة المواجهة وإضعاف المسلمين ليظفر بالنصر عليهم بعد ذلك، وقد أفاد المسلمين سرعةُ تحركهم وبطء حركة جيوش الأعداء .

* * *

٤ - موقعة الجسر الأولى -

تبين لنا أن قائد الفـرس « الجالنوس » قد انهـزم أمام المسلمين في معركة« باقسياثا » وأنه هرب إلى بلاده .

ولما رجع الجالنوس إلى رسـتم قال رستم : أيُّ العـجم أشد على العرب فيما ترون ؟ قالوا : بَهْمَن جَاذويه ، فوجهه ومعه الفيلة، وقال له: قدّم الجالنوس فـإن عاد لمثلها فاضـرب عنقه ، فأقبل بهـمن ومعه راية كسرى، وكانت لاتُخرج إلا في الحروب الـكبيرة، وعلم أبو عبيد فأقبل بجيشه فنزل في مكان يسـمى « المروحه » والنهر بينهم ، فبعث إليه بهـمن: إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعـبور وإما أن تدعونا نـعبر إليكم ، فقال الناس: لاتعبر يا أبا عـبيد ، ننهاك عن العبور، قل لهم فليـعـبـروا ، وكان مـن أشد النـاس عليـه في ذلك سَليط بن قـيس الأنصـاري، فلـجَّ أبو عـبـيـد في رأيه وتـرك رأي الناس ، وقـال : لايكونون أجرأ على الموت منا، بل نعبر إليهم ، واغتنم ذلك مردانشاه رسول قـائد الفرس فـأخبرهم أن أهل فـارس قد عـيروهم بالجبن ، فازداد أبـو عبيـد تمسكا برأيه، واتهم سليط بن قـيس بالجبن ، فـقال سليط : أنا والله اجرأ منك نفسا وقد أشرنا عليك بالرأي وستعلم .

وكانت « دومة » امـرأة أبي عبيد قـد رأت رؤيا أن رجلا نزل من السماء بـإناء فيه شراب فشـرب أبو عبيد وابنه جـبر في ناس من أهله فأخبرت بها أبا عبيد فقال : هذه الشهادة ، وعهد أبو عبيد إلى الناس فقال: إن قُتلت فعلى الناس فلان حتـى عد سبعة من ثقيف من أقاربه الذين ذكرتهم امرأته في الـرؤيا ، فإن قتل آخرهم فالقـيادة للمثنى بن حارثة .

ثم عـبـر أبو عبـيـد وعـبر الناس مـعـه إلى مكان ضـيق المطَّرد والمذهب، وكان الفرس قد قـدموا بعدد من الفيلة يتقدمـها فيل عظيم أبيض، وعليهـا سعف النخل فلما رأتهـا خيول المسلمين جـفلت منها ومن أصوات الأجـراس المعلقة بهـا ، فصاروا لايسـتطيعـون الوصول إليهم والفيلة تجوس خلالهم ، فتـرجل أبو عبيد وترجل الناس معه ، وتصافحـوا معهم بالسيوف، وفقـد المسلمون خيلهم فأصبـحوا رجَّالة يقاومون سلاح الفيلة والفرسان والمشاة من الفرس ، إلى جانب الرماة الذين أضرُّوا بالمسلمين وهم يدفـعون بخيولهم نحـوهم فلا تندفع . فكان موقفا صعبا أظهر المسلمون فـيه من البسالة والتضحية ماينذر أن يوجد له مثيل في التاريخ ، وصمـدوا للفرس رغم تفوقهم عليهم في كل وسائل القتال .

وكانت الـفيلة أشد سـلاح واجهـه المسلمون ، فـقد كانـت تهدُّ صفوفهم، فناداهم أبو عبيد بأن يجتمعوا على الفيلة ويقطعوا أحزمتها ويقلبوا عـنها أهلها، وبدأ هو بالـفيل الأبيض فتـعلق بحزامـه وقطعه ووقع الذين عليـه، وفعل المسلمـون مثل ذلك ، فمـا تركوا فـيلا إلا حطوا رحله وقتلوا أصحـابه، ولكن الفيلة استمرت في الهـجوم لأنها كانت مدربة ، فرأى أبو عبيد أن يتـخلص منها ،فسأل عن مقاتلها ، فقيل له إنها إذا قطعت مشـافرها تموت ، فهجم على الفيل الأبيض ، ونفح خرطومه بالسيف فاتقاه الـفيل بيده وأطاح به ثم داسه بأقدامه ، وأخذ الراية أخوه الحكم بن مـسعود فقاتل الفـيل حتى أزاحه عن أبي عبيد ولكن وقع له ماوقع لأبي عبيد،فقد أراد الحكم قتله فاتقاه بيده، ثم داسه بأقدامه،وانتقلت راية المسلمين إلى الذيـن سماهم أبو عبيد ،

ومنهم أبناؤه الثلاثة، وهب ومالك وجبر ، إلى أن قتلوا جميعًا فانتقلت القيادة للمثنى مع آخر النهار.

وكان بعض المسلمين قد عبروا الجسر منسحبين ، واستمر الانسحاب من الميدان ، فلما رأى ذلك عبد الله بن مرثد الثقفي بادر وقطع الجسر ، وقال : موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا ، وحاول منع الناس من العبور فأتوا به إلى المثنى فضربه من شدة غضبه من صنيعه وقال: ماحملك على الذي صنعت ؟ قال : ليقاتلوا، وقد كان اجتهاده في غير موضعه لأن قطع الجسر أدّى إلى وقوع بعض المسلمين في النهر وغرقوا بسبب شدة الضغط من الفرس، فكانت الفكرة المناسبة أن يحافظ المسلمون على بقيتهم بالانسحاب إن استطاعوا ذلك ، وهذا هو ماقام به المثنى حيث أمر بعقد الجسر ووقف هو ومن معه من أبطال المسلمين فحموا ظهور المسلمين حتى عبروا وقال المثنى : يا أيها الناس إنا دونكم فاعبروا على هينتكم - يعني على مهلكم - ولاتدهشوا فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ولاتغرقوا أنفسكم .

وكان المثنى ومن معه من الأبطال من أمثال عاصم بن عمرو والكلَج الضبِّي هم آخر من عبر ، وقد كان بَهْمَن جاذويه حاول أن يجهز على بقية المسلمين ولكنه لم يستطع وفَوَّتَ عليه هذه الفرصة المثنى حينما تولى قيادة هذا الانسحاب المنظم ، ولاشك أن هؤلاء الأبطال الذين حموا ظهور المسلمين حتى انسحبوا قد بذلوا جهودا جبارة في الصمود أمام الأعداء .

لقد انسحب خمسة آلاف من المسلمين وخلفوا وراءهم أربعة آلاف

من الشهداء منهم عـدد كبير من الصحـابة رضي الله عنهم خاصة من الأنصار الذين رافقوا أبا عبيد من المدينة ، وقد عاد ألفان ممن انسحبوا إلى المدينة وغيرها ولـم يبق مع المثنى غير ثلاثة آلاف .

أما الفـرس فقد قُـتل منهم ستـة آلاف بالرغم من الوضع السيء الذي كان فيه المسلمون مما يدل على بسالتهم وقوة احتمالهم [1] .

وهكذا تبين لـنا أن من أهم أسـبـاب انتكاسـة المسـلمين في هذه الموقعة مواجـهتهم سلاح الفيلة لأول مرة ، إلى جـانب عدم إصابتهم في اختـيار المكان الذي جـرت فيـه المعركـة ، فالمسلمون تـعودوا في حـروبهم على اختـيار مكـان واسع المُطَّرد حيث إن سـلاح الفرسـان عندهم هو المقدَّم، فلما انحصروا ضاعت منهم فرصة مطاردة الأعداء، حيث كان العدو أمامهم والنهر من خلفهم .

أما المواقف التي جرت في هذه المعركـة فهي تتلخص إجمالا في مـقدرة المسلمـين الفائقـة على التكيف مع الأوضـاع غـير الملائمـة ، والخروج من المآزق المـفاجئـة ، والصبـر والمصابرة على القـتال ، إن كانت المعـركة غـير مـتكافئة ، وتـتضح هذه المواقف بعـرض الصور التالية :

١ – حينما رأى قائد المسلمين أبو عبـيد أن خيول المسلمين لاتُقْدم على جيش الـعدو وفيـه الفيلة قـرر حالاً الترجل وترك فـرسه فـفعل المسلمون كـما فـعل ، وهو حَلّ جيد لأنه لابد مـن مواجهـة الأعداء والاختلاط بهم حيث إنهم أرهقوهم بالسهام .

٢ – حينما رأى أبو عبيد ما تفعله الفيلة وراكِبوها بجيش المسلمين

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٥٤ – ٤٥٩ ، البداية والنهاية ٧/ ٢٨ ، بتصرف .

قرر قطع أحزمة الفيلة حتى تُلقي راكبـيها ، وبدأ بذلك مع كبير الفيلة وتأسى به المسلمون ، فألقوا جمـيع راكبي الفيلة ، وهي خطوة جيدة في سبيل التخلص من هذا السلاح الفـتاك ، ثم لمّا استمرت الفيلة في مهـاجمـة المسلمين قـرر التخلص منهـا بالقتل ، وهي خطـوة أخرى تشتمل على المخاطرة والمغامرة ، وقد بدأ بتنفيذ هذه الخطة أيضًا بنفسه رحـمه الله ولكنه قـضى نحـبه قـبل إتمام هذا ا لعـمل ، ولم يرو لنا التاريخ أي مـحاولة أخرى للقـضاء على الفـيلة في هذه المعركة غـير ماجرى من الحـكم بن مسعود أخي أبي عـبيد وخَلَفه في القـيادة وقد واجه نفس المصير الذي واجـهه أبو عبيد ، ولعل هذه النتيجـة السيئة جعلت المسلمين يتحاشون التعرض لها .

ومن المعلوم أن سلاح الفيلة كان جديدًا على المسلمين ، وإلا فإنه كان بإمكانهم أن يختـرعوا أسلحة بـعيدة المدى تستطيع القـضاء على الفيلة من غير ضرورة الاقتراب منها .

وإن إقدام أبي عـبيد وهو القـائد على هذه المغامـرة الخطيرة دليل على زهده في الدنيا وحـرصه على نيل الشهـادة ، وهو مطلب عزيز يبـعث في روح الجند الحـيوية والإقـدام ، ولكنه في الحـقـيقـة ليس المطلوب الأول مـن القـائد ، بل هـو مكلف بالدرجـــة الأولى بإدارة المعركـة حتى يحـصل على أكبـر النتائج بأقل التـضحـيات ، ولذلك أحجم عدد من جلة الصحابة رضي اللـه عنهم عن قبول القيادة لأنهم عزمـوا على التعـرض للشهادة ، كـما سبق أمـثلة لذلك في معـركة اليمامة .

٣ - بالرغم من الوضع السيء الذي كـان فيه المسـلمون في هذه

المعركة فإنهم لما ترجّلوا عن خيـولهم وخالطوا الفرس فتكوا بهم حتى قتلوا منهم ستـة آلاف ، وهذا شاهد حي على بسالة المسلمين الأوائل وإقدامـهم على المخاطرة بالنفـوس في سبـيل الله تعالى ، فـإنه كان عليهم وهم مشـاة أن يواجهوا فرسان العدو ومـشاتهم ، وماتزودوا به من الفيلة ، وهي مهمة شاقـة لايطيقها إلا أقوياء الرجال ، ومع ذلك قـام بهـا هؤلاء الأبطـال، ولولا تسلح الأعـداء بالفـيلة الـتي هتكت صفوف المسلمين لكان نصرهم قريب المنال .

٤ - وآخر المواقف التي رأينا التنويه عنهـا موقف المثنى بن حارثة ومن ثبت معه من أبطال المسلمين ، حينما رأى أفراد الجيش قد بدؤوا بالانسحاب وعـبور الجسر ، وقد سـبق وصف ماقام به هؤلاء الأبطال من حمـاية ظهور المسلمين حـتى تم انسحابهـم ، وهذا لون رفيع من ألوان التضحيـة والفداء ، فإن قادة الدنيا يخُصِّـصُون عددًا من الجنود لحمايتهم، أما المثنى فقد تولى مـع مساعديه من الأبطال حماية الجيش الإسلامي ، فكان آخر من عبر الجسر .

والآن وبعـد أن تكشفت لنا مـعـالم هذه المعركـة وبعض المواقف الإسلامية التي جرت فيها فلنتأمل بعض آثارها .

لقد كان عـدد المسلمين في أول النهار تسعـة آلاف ، وفقدوا في ذلك اليوم أربعة آلاف ، ولولا أن الله ألهم المثنى إلى خطة الانسحاب المنظم لزاد هذا العدد ، فهل أثرت هذه الاصـابة البالغة على المسلمين بالنسبة لمستوى حماسهم للجهاد وإقدامهم عليه ؟

الواقع أنهم عادوا سريعًا إلى تنظيم صفـوفهم ومواصلة الجهاد في سـبيل اللـه تعالى ،وذلك أنهم يـفهـمـون جيـدًا معـنى قـول الله

تعالى ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١] .

فإصابة المسلمين إنما تتم بقدر الله تعالى ليتبين المؤمنون على درجاتهم في الإيمان قوة وضعفا ، بناء على مقدار صبرهم وثباتهم ، وليُقدِّم المسلمون شهداء في سبيل الله جل وعلا ، حتى يظهر للعالَم عظمة هذا الدين الذي من أجله يُقَدِّم المسلمون هؤلاء الشهداء وهم لايدافعون فقط عن أرضهم وأموالهم ، وإنما يقاتلون من أجل نشر دعوة الإسلام والدفاع عنه .

فالمعارك الإسلامية لاخسارة فيها مطلقا ، سواء كان النصر والفتح للمسلمين ، أو كانت الهزيمة والإصابة ، لأنه في حال النصر يتم التمكين للمسلمين في الأرض ، وتقوى دولتهم مع ما يحصل عليه المجاهدون من الثواب الأخروي ، وفي حال الإصابة فإن ما يقدمه المسلمون من الشهداء يعطي الدعوة الإسلامية دفعات إلى الأمام مع ما يحصل عليه المجاهدون من الأجر الأخروي ، سواء استشهدوا أو بقوا على قيد الحياة.

وهكذا تبينت لنا نماذج من قوة الإيمان لدى المسلمين في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وأن ما أصابهم في معركة الجسر الأولى لم يكن دافعًا لهم إلى الإحجام عن القتال .

ومن الأدلة على أن المصائب لاتزيد المسلمين الصادقين إلا قوة

واندفاعًا نحو جهاد الأعـداء أن المثنى بن حارثة لما علم بانفراد قائدين من قادة الفرس بعـد المعركة مع أصحاب لهما اسـتخلف على الجيش عاصم بن عمـرو ، وخرج في كتيبة من الفـرسان يريدهما ، فظنا أنه هارب لأنهـما لم يتـوقـعا أي إقـدام على الهجـوم من المسلمين بعـد انهزامهـم ، فاعترضاه فـأخذهما أسيـرين وخرج أهل « أَلَّيس » على أصحابهما فـأتوه بهم أسراء ، فقدَّمهما ، وقال : أنتـما غرَّرتما أميرنا وكذبتمـاه واستفززتماه فـضرب أعناقهما وضـرب أعناق الأسَراء ، ثم رجع إلى عسكره .

وهكذا نجد أن المثنى قد قتل هذين القـائدين وأصحابهما وهو في قلة من جيشه ممن بقي معه ولم يحسب حـسابا لاحتمال انتقام الفرس وحلفائهم منه وهم أكثر من جيشه أضعافًا مضاعفة ، وهذا دليل على الجسارة والجرأة الفائقة .

هذا وقـد بقي المثـنى في العـراق في عـدد قليل لايـكفي حـتى للاحتفاظ بـالممالك التي استولى عليها المسلمـون ، ولقد كان بإمكان الفرس أن يلاحقوا بقية الجيش الإسلامي حتى يخرجوهم من العراق، وسيـجدون ممن بقي على الولاء لهم من العرب مـن يتولى مطاردتهم في الصحراء ، ولكن الله تعالى مع هذه الفئة المؤمنة ومع المؤمنين في كل مكان ، فكلما وقع المسلمون الصادقون في مأزق حرج قيض لهم الأسباب التي تخرجهم من هذا الحرج ، فحينما اضطر خالد بن الوليد إلى مغـادرة العراق بنصف الجيش أوقـع الله الخلاف والاضطراب في دولة فارس فشُغـلوا بأنفسهم عن المسلمين ، وحينما استـقرت دولتهم كان المثنى قد تقوى ونظم أموره فتصدى لجيشهم في بابل وهزمهم .

ولما انتظم أمرهم على رستم الذي هو من أعظم قوادهم وحصل ماحصل على المسلمين من الهزيمة في الجسر كانت الفرصة سانحة أمام الفرس ليحاولوا القضاء على المسلمين ، ولكن الله سبحانه قيض أمرًا صدَّهم عن المسلمين حيث انقسموا إلى قسمين قسم مع رستم وقسم مع فيرزان ، وأتى الخبر إلى قائد الفرس بهمن جاذويه فأسرع بالعودة إلى المدائن وكان ممن يُنظر إليهم في أمور سياستهم .

وهكذا كفى الله المؤمنين القتال وأنقذهم من هذا المأزق الحرج وأخذوا فرصة كافية لتلقِّي الجيوش القادمة من دار الخلافة حتى تقوَّوا وتكوَّن لديهم جيش كبير .

هذا ماكان من أمر المسلمين في العراق ، فماذا كان من أمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وهو يتلقَّى هذا النبأ المؤسف الذي يحمل استشهاد أربعة آلاف من المسلمين ، وفيهم عدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم ؟

لقد تأثر عمر ومن حوله من الصحابة لمصاب الجيش الإسلامي في هذه المعركة وقال : اللهم كل مسلم في حلٍّ مني ، أنا فئة كل مسلم، من لقي العدو فَفُظِعَ بشيء من أمره فأنا له فئة ، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إليَّ لكنت له فئة (١) .

وهو موقف إسلامي كريم من عمر رضي الله عنه حيث إن هؤلاء المنهزمين لم ينسحبوا من المعركة من حين أن رأوا مؤشرات التفوق لدى الأعداء والوضع السيء لدى المسلمين ويتركوا إخوانهم يواجهون وحدهم حر المعركة ، وإنما انسحبوا حينما رأوا أن مصلحة الجيش في

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٥٨ .

الانسحاب ووافقهم على ذلك أميرهم ، وقد دخلوا المعركة وهم مخلصون صادقون وخرجوا منها وهم كذلك ، فكانوا جديرين بموقف الرحمة والمواساة من عمر ، وهذا الموقف يدل على أن عمر وهو الرجل القوي الحازم يلين ويواسي في مقام الرحمة والعطف .

ولما حدث ماحدث من قلة الجيش في العراق مع المثنى اهتم أمير المؤمنين بإمداده فكتب إلى عماله لجمع الجيوش ، وكان جرير بن عبد الله البجلي قد رغب في جمع بجيلة من القبائل فاجتمع له منهم ألفان وبعث بهم أمير المؤمنين إلى المثنى ، وسمح عمر رضي الله عنه لأهل الردة بالجهاد وكتب إليهم ليوافوه فبعث بهم إلى العراق ، واجتمع عند المثنى جيش كبير .

* * *

٥ - معركة البويب -

لما علم قادة الفرس باجتماع جيش كبير عند المثنى بعثوا مهران الهمذاني بجيش من الفرسان لمواجهة جيش المثنى ، ولما علم المثنى بذلك كتب إلى من لم يصل إليه من الأمداد أن يوافوه بالبويب وعلى رأس هؤلاء جرير بن عبد الله حيث كتب إليه المثنى يقول : إنا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا فعجلوا اللَّحاق بنا وموعدكم البويب، فاجتمعوا بالبويب وليس بينهم وبين جيش الفرس إلا النهر، فأقام المثنى حتى كتب له مهران : إما أن تعبروا إلينا أو أن نعبر إليكم، فقال المثنى : اعبروا ، فعبر مهران بجيشه ، وكان ذلك في شهر رمضان من العام الثالث عشر للهجرة ، فقام المثنى خطيبا وقال للمسلمين، إنكم صوام والصوم مَرَقَّة ومضعفة وإني أرى من الرأي أن تفطروا ثم تقوّوا بالطعام على قتال عدوكم ، قالوا : نعم ، فأفطروا .

وكان المثنى قد عبأ جيشه وسار فيهم يحثهم على القتال ، ويقول لأهل كل راية : إني لأرجو أن لاتُؤتَى العرب اليوم من قِبَلكم، والله مايسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم .

قال الرواة : وأنصفهم المثنى في القول والفعل ، وخلط الناس في المكروه والمحبوب ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولاعملا .

وهذا دليل على حسن قيادته وسعة حكمته ، حتى أصبح أفراد الجيش مطيعين له عن حب وقناعة .

ولما رضى المثنى عن استعداد جيشه قال : إني مكبِّر ثلاثا فتهيئوا ثم احملوا مع الرابعة ، فلما كبر أول تكبيرة أعجلهم أهل فارس

وعاجلوهم فخالطوهم مع أول تكبيرة ، وليس من عادة الفرس هذا الاندفاع ولكن لعل ماحصلوا عليه في معركة الجسر من إصابة المسلمين خفف مما وقر في نفوسهم من هيبة المسلمين والرعب منهم .

وهكذا بدأ الفرس بالهجوم وقد صمد لهم المسلمون واستمروا معهم في صراع شديد ، والمثنى إلى جانب اشتراكه في القتال يراقب جيشه بدقة حتى إنه رأى خللا في بعض صفوفه فأرسل إليهم رجلا وقال : إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول : لاتفضحوا المسلمين اليوم : فقالوا: نعم، واعتدلوا .

ولما رأى المثنى ركود الحرب وعدم تفوق المسلمين بشكل بارز دعا بعض فرسانه الأبطال فحمل بهم على قلب ا لمشركين حتى ضَعْضَعَهم وأزال قائدهم نحو الميمنة ، وقد ارتفع الغبار والمجنَّبات في الميمنة والميسرة تقتتل ، ولايستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم، لاالمسلمون ولا المشركون .

ووقف المثنى عند ارتفاع الغبار حتى أسفر الغبار ، وقد فنى قلب المشركين وقُتل قائدهم مهران والمجنَّبات قد هز بعضها بعضا ، فلما رآه المسلمون وقد أزال القلب وأفنى أهله قويت مجنباتهم على المشركين، وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم ، وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ، وأرسل إليهم من يقول لهم : عاداتكم في أمثالهم ، انصروا الله ينصركم ، حتى هزموا القوم ، فسابقهم المثنى إلى الجسر فسبقهم وقطعه، وأخذ الأعاجم ، فافترقوا بشاطئ الفرات، واعتورتْهم خيول المسلمين حتى قتلوهم، ثم جعلوا جثثهم أكوامًا من كثرتها ، حتي ذكر بعض الرواة أن قتلاهم بلغوا مائة ألف .

وندم المثنى على مسابقة الفرس وقطع الجسر فقال: لقد عجزت عجزة وقى الله شرها ، بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه ، حتى أحرجتهم ، فإني غير عائد فلا تعودوا ، ولا تقتدوا بي أيها الناس، فإنها كانت مني زلة ، لاينبغي إحراج أحد إلا من لايقوى على امتناع .

ولقد أبان المثنى في آخر هذا الكلام وجه الخطأ في هذه الخطة حيث قد لاحظ ببصيرته الحربية النافذة أن في منع العدو من الفرار إلجاءًا لهم إلى الاستماتة في القتال دفاعا عن أنفسهم ، فإنه حينما يشعر الإنسان بأنه مقتول يبذل كل طاقته في الدفاع عن نفسه ، وهذا يكلف الجيش المقابل جهودًا ضخمة في محاولة القضاء عليه ، ولكن الله تعالى وقى المسلمين شر هذه الخطة كما ذكر المثنى حيث ثبّت المسلمين فكانت قوتهم أعلى بكثير من احتمال الأعداء وطاقتهم ، وألقى الرعب في قلوب الأعداء حتى فقدوا الطاقة والمقدرة على الدفاع عن النفس .

ولربما رأى بعض أفراد الجيش في خطة المثنى هذه براعة وعظمة لكونها بلغت في النكاية بالكفار وإرهابهم مبلغا عظيمًا ، ولربما تأسى به بعض القادة في أمثال هذه المعركة، فأراد المثنى باعترافه بهذا الخطأ أن يزيل هذا الفهم من النفوس، وماقد يتبعه من التأسي به في التنفيذ.

وإن في اعتراف المثنى بهذا الخطأ ، وهو الرجل الذي بلغ في هذه المعركة أوج النصر والشهرة لدليلا على قوة إيمانه ، وتجرده من حظ النفس، وإيثاره مصلحة الجماعة ، وهكذا يكون العظماء .

ولقد أعاد هذا النصر المؤزر الذي حازه المسلمون هيبتهم العظيمة

في قلوب الأعـداء،وعـفَّـوا به على كل آثار إصـابتـهم في معـركـة الجـســـر، فلله در هؤلاء الأبطال، ومـــا أعظم غناءهـم عن الإسـلام والمسلمين!

وإن مما يؤيد ما قاله المثنى في نـقد هذه الخطة وأن الله وقى شرها مـاذكره عـرفجـة بن هرثمة حـينمـا طلب ا لمثنى من قادة الجـيش أن يتـحدثوا عن المعـركة حيـث قال : حُزْنَا كـتيـبة منهم إلى الـفرات، ورجوت أن يكون الله تعالى قد أذن في غرقـهم وسلَّى عنا بها مصيبة الجسـر ، فلما دخلـوا في حدّ الإحراج كـروا علينا فقـاتلناهم قـتالا شـديدًا، حـتى قـال بعض قـومي : لو أخـرت رايتك فـقلت : عليَّ إقدامها، وحملت بهـا على حاميتهم فقتلته ، فـولوا نحو الفرات، فما بلغه منهم أحد فيه الروح .

وإن من المواقف المذكورة فـي هذه المعركة مـاكان من مسـعود بن حارثة أخـي المثنى حيث قـال لقومـه قبل بدء المعـركة : إن رأيتـمونا أُصبنا فلا تدَعوا ما أنتم فيه، فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف ، الزموا مـصَـافكم، وأغنوا غناء من يليكـم ، ولما صُرِع قـال رحـمـه الله : يامعشر بكر بن وائل ارفعوا رايتكم رفعكم الله ،لايهُولنَّكم مصرعي .

وإن من الأقوال الرائعـة التي قيلت بعـد المعركة قـول المثنى : قد قاتلت العـرب والعجم في الجاهلية والإسـلام ، والله لمائة من العجم في الجـاهلية كـانوا أشد عليّ مـن ألف من العرب ، ولمائة اليـوم من العرب أشـد على من ألف من العجم ، إن الله أذهب مصدوقـتهم ، ووهَّن كيدهم ، فلايروعنكم زُهاءٌ ترونه - يعني هيئتهم - ولاسوادٌ - يعني كثرتهم- ولاقسيٌّ فُجّ - يعني قد بانت أوتارها - ولانِبَالٌ طوال،

فإنهم إذا أُعْجِلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت .

وإن هذا القول في ذلك الوقت مناسب تماما حيث عرض المثنى خبرته الجيدة في حربه مع الفرس في الوقت الذي دخل في حروب العراق أعداد كبيرة من المسلمين يشاركون في حرب الفرس لأول مرة، فجمع المثنى لهم بذلك بين المشاهدة في معركة من المعارك وبين وصف تجاربه في كل المعارك التي خاضها معهم قبل ذلك .

وإن من المواقف التي ينبغي الإشارة إليها ماكان من نساء المسلمين لما أرسل إليهم قادة المسلمين بعض ما أصابوا من الطعام ، وقد أرسلوه مع أحد زعماء النصارى من العرب وهو عمرو بن عبد المسيح بن بُقَيلة في رجال معه ، فلما رأتهم النساء تصايحن وحَسِبْنها غارة فقمْن دون الصبيان بالحجارة والعُمد ، فقال : عمرو بن عبد المسيح : هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش ، وبشَّروهن بالفتح[1] .

وإن هذا الموقف ليدل على حسن التربية الإسلامية وإبراز شخصية المسلم حتى لدى النساء ، فإنهن قد تدربن على حماية الموقف فيما إذا خلا من الرجال .

هذا وقد أطلق هذا النصر الحاسم يد المسلمين في العراق فيما بين النهرين وأرسل المثنى قواده يُخضعون البلاد لسلطان المسلمين، ويتقوَّون بما يفيء الله عليهم من الغنائم على جهاد عدوهم .

* * *

(١) يراجع تاريخ الطبري ٣/ ٤٦٠ - ٤٧٦ .

مواقف وعبر
فى
معركة القادسية

تبين ما آل إليه أمر المسلمين في جهاد الفرس حيث أحرز المسلمون نصرًا كبيرًا في معركة البويب بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني ، وقد أزالوا به آثار هزيمتهم في معركة الجسر الأولى .

وفي أثناء ذلك اجتمع أهل فارس على تمليك شاب من أبناء ملوكهم وهو « يَزْدَجِرْد » فاجتمعوا عليه بعد تفرق ، ولما علم بذلك المثنى كتب إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأمرهم فأجابه بقوله «أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ، ولاتدَعوا في ربيعة أحدا ولا مضر ولاحلفائهم أحدًا من أهل النجدات ولا فارسا إلا اجتلبتموه ، فإن جاء طائعًا وإلا حشرتموه ، احملوا العرب على الجدّ إذا جَدَّ العجم فلتلقوا جِدَّهم بِجِدِّكم .

فانحاز المثنى بمن معه ونزلوا بأطراف العراق مما يلي بلاد العرب على معسكرات متقاربة ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ثلاث عشرة .

الاستعداد للمعركة :

كتب عمر إلى عماله في شهر ذي الحجة وهو خارج للحج أن لاتدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليَّ ، والعَجَلَ العجل . ذكره ابن جرير رحمه الله[1] .

وما أن اجتمع أوائل الناس في المدينة حتى خرج بهم عمر رضي الله عنه .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٧٧ - ٤٧٨ .

قال ابن جرير رحـمه الله فيمـا يرويه عن شيوخه : خـرج عمر حتى نزل على ماء يُدْعَى صراراً ، فعسكر به ولايدري الناس مايريد ، أيسير أم يقـيم، وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعـثمان أو بعبد الرحمـن ابن عوف ، وكان عثمان يُدْعى في إمـارة عمر رديفا - قـالوا: والرديف بلسـان العرب الرجل الذي بـعد الرجل ، والعـرب تقول ذلك للرجـل الذي يرجونه بعد رئيـسهم - وكـانوا إذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثّوا بالعباس .

أقـول : وإن في هذا لدلالـة على عظم مكانة عـمـر في قلوب الصحابة رضي الله عنهم ، وهذه الهيبـة العظيمة التي عمرت قلوبهم منه مبعثها أمران:

أولا : قوة إيمانه بالله تعالى وقيامُه بتوحيده تعظيما له وخوفا منه وتجريد قلبـه تمامًا من أن يتـسرب إليه أي اعـتبار لأي قـوة على وجه الأرض، فـالصحـابة يرون أن قلبـه قد امـتلأ مـن خوف الله تعـالى وتعظيمه ورجائه والخضوع له حتى لم يعد لأي قوة أخرى في الأرض أن تزاحم وجود الإيمان بالله تـعالى في قلبه ، ومن كـانت هذه حاله فحريٌّ بالقلوب أن تسـتكين له وأن تهاب منه وأن تحسب حسابًا كـبيرًا لمنطقه وسلوكه .

ثانيًا : أن عمر كان يحـمل الناس على الحق الذي يطمئن إليه إما طوعا أو كرها ، فكان الناس يفكرون كثيرًا ويزنون كلامهم طويلا قبل أن يكلموه خـشيـة أن يزلُّوا بكلمة لايحـسبون لهـا حسـابا وهو لقوة اتصاله بالله تعـالى وعظَم منزلة الآخرة عنده وهوان الدنيـا عليه يدرك من سَقَط الكلام وعواره ما لايدركه الآخرون .

وإلى جانب هذه الهيبة العظيمة فإنهم كانوا يحبونه من قلوبهم ويفدونه بأنفسهم لأن قوته عليهم كانت من أجل تعظيم الله تعالى وتقديره حق قدره وتنفيذ شرعه لا من أجل أن يبني لنفسه أو لأسرته مجدًا يخلِّد ذكرَه في هذه الحياة الفانية ، فهي هيبة مشوبة بالحب، وتعظيم مشوب بالإجلال .

وفي هذا الخبر أيضًا دلالة على عظمة هؤلا ء الثلاثة الذين كان الصحابة يقدمونهم في مخاطبة عمر وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم أجمعين، مما يدل على تمتع هؤلاء بالصفات التي يرضى عنها عمر والتي مبعثها قوة الإيمان بالله تعالى والتجرد من حظ النفوس ومن ضغوط الناس .

قال ابن جرير في سياق روايته : فقال عثمان لعمر : مابلغك ؟ ما الذي تريد ؟ فنادى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إليه فأخبرهم الخبر - يعني خبر عزمه على غزو الفرس - ثم نظر ما يقول الناس ، فقال العامة: سرْ وسر بنا معك ، فدخل معهم في رأيهم ، وكره أن يَدَعهم حتى يخرجهم منه برفق ، فقال : استعدُّوا وأعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك .

ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي ﷺ وأعلام العرب فقال : أَحضِروني الرأيّ فإني سائر ، فاجتمعوا جميعًا وأجمعِ ملؤهم على أن يبعث رجلا من أصحاب النبي ﷺ ويقيم ، ويرميَه بالجنود ، فإن كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون، وإلا أعاد رجلا وندب جندًا آخر وفي ذلك ما يغيظ العدو، ويرعوي المسلمون ، ويجيء نصر الله بإنجاز موعود الله .

قال : فنادى عمر : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إليه ، وأرسل إلى علي وقد استخلفه على المدينة فأتاه ، وإلى طلحة وقد بعثه على المقدمة فرجع إليه ، وجعل على المجنّبتين الزبير وعبد الرحمن بن عوف فقام الناس فقال : إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله ، فألَّف بين القلوب وجعلهم فيه إخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس ، وكانوا فيه تبعا لهم ، ومن قام بهذا الأمر تبع لأُولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعا لهم ، يا أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا ، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمَّت ومن خلّفت [1] . يعني بذلك عليا وطلحة رضي الله عنهما ، وكان قد خلف عليا على المدينة وقدَّم طلحة على مقدمة الجيش .

هذا وإن لي تعليقات على هذا الخبر أوجزها فيما يلي : مما يلاحظ أن عمر رضي الله عنه لم يكن عازمًا على الخروج بنفسه إلى العراق بدليل أنه لما استشار الناس فأشار عليه العامة بذلك وافقهم ظاهرًا وكره أن يخالفهم حتى يخرجهم من رأيهم برفق كما جاء في الرواية ، والسؤال الذي يمكن أن يطرح في هذا المجال ، لماذا لم يستشر الناس وهو في المدينة، ثم إما أن يخرج إن قبل رأيهم أو

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٠ .

يجلس إن قبل الرأي الآخر ؟ والجواب أن يقال : لعل عمر رضي الله عنه آنس من المسلمين بعض الركـود وعدم تقدير الأمـر بكل ما يجب أن يقـدروه به وأنهم لم يصلوا من الإقـدام على الجهـاد إلى المستـوى الذي يريد منهم أن يبلغوه ، ولاشك أن طاقات عمـر الفذة لم يبلغها أحد ممن عـاصره آنذاك ولاممن جاؤوا بعـده، فأراد بخروجـه أن يقدِّم للجهاد دَفعةً قوية نحو الأمام حيث إن رغبة الأمة في صحبته لايدانيها أي رغبة أخرى بعد إرادة وجـه الله تعالى والدار الآخرة ، وقد حصل له مـا أراد من ذلك رضي الله عنه وعن أصحـاب رسـول الله ﷺ أجمعين .

وإن من أبرز ما يلاحظ في هذا الخبر أن الصحابة رضي الله عنهم نفذوا أمر أمير المؤمنين عمر فـخرجوا بدون مراجعة مع أنهم لايدرون عن خطة سيـرهم ولا لماذا خـرجـوا ، وهذا من دلالاته المهـمـة أنه يكشف عن كمال الانسجام بين الحاكم والمحكومين في ذلك العصر ، وماكان عليه الصحابة من الطاعة لولي الأمر الذي يعلمون يقينا أنه لن يأمـرهم إلا بطاعـة الله تعـالى ، وهذا الخلق النبـيل يعتـبـر من أبرز العوامل التي حقـقت لهم الانتصار السريع والنجـاح الباهر سواء في مجال توحيد الجزيرة العربية وإقامة الدولة الإسلامية أو في مجال غزو الأعداء وإخضاع الممالك لدولة الإسلام .

ومما يلاحظ في هذا الخبر أن عمـر رضي الله عنه ترك رأي العامة وأخـذ برأي أهل الحل والعقـد الذين أطلق عليـهم أهل الرأي ، وفي هذا دلالة على أن أمور الأمة تُدار بالمشورة بين أهل الحل والعقد الذين هم أهل الرأي والتدبيـر والخبرة في سيـاسة الأمور ، ولم يذكر عـمر

رضي الله عنه موضوع فهم الدين وتطبيقه في وصف أهل الحل والعقد فلم يقل أهل العلم والعمل لأن هذا الأمر كان معلوما توفره لدى الصحابة رضي الله عنهم وإن كانوا يتفاضلون في ذلك ، لكن كان أصحاب العقول الراجحة فيهم هم المتميزون في فهم الإسلام وتطبيقه .

ومن هذا نستفيد أن العبرة شرعًا ليست في كثرة الآراء وإنما العبرة بسداد الآراء وصوابها وإن قلَّت .

وفي كلام عمر رضي الله عنه ما يفيد أن نجاح الأمة في أمورها مترتب علي إحكام العلاقات بين الحاكمين والمحكومين حيث يقول: «وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعًا لهم ، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم » .

فالذي يفهم من هذا النص أن أمور المسلمين تكون شورى بينهم، ومايقرر أهل الحل والعقد يأخذ به أولياء الأمور ، ثم يكون ملزما لعامة الأمة في حدود طاعة الله تعالى .

هذا وقد رُوي من الكلمات البليغة التي قيلت في هذه المشورة ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال في سياق خبر هذه المشورة : فقال عبد الرحمن - يعني ابن عوف رضي الله عنه : فما فديت أحدًا بأبي وأمي بعد النبي ﷺ قبل يومئذ ولابعده فقلت: يا بأبي وأمي اجعل عجْزَها بي [١] وأقم وابعث جندًا،

(١) يعني إذا كان هناك ملامة في عدم ذهابك ياعمر فاجعلني أنا المسئول عن ذلك .

فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبلُ وبعد ، فإنه إن يُهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تُقتَل أو تُهزم في أُنُف الأمر خشيتُ أن لايكبِّر المسلمون وأن لايشهدوا أن لا إله إلا الله أبدًا[1] .

ألا ما أعظمك يابن عوف وما أصوب رأيك ، وما أجمل عرضك، فقد قلت رأيًا صوابا وعرضته بقوة فوفِّقت في رأيك ووفقت في طريقة عرضه.

إن الحق قد يشوهه في أسماع الناس طريقة عرضه عليهم ، وقد يُحْسن الإنسان العرض ولكن لايوفق للنطق بالحق والصواب في الرأي، فأما حين تجتمع الحسنيان للإنسان فإنه يبلغ مقصوده مع توفيق الله تعالى بسهولة ويسر .

وبهذا اقتنع أمير المؤمنين برأي عبد الرحمن بن عوف ومن وافقه الرأي وقرر أن يبعث قائدًا من الصحابة يكون ممثلا له في تنفيذ مايريد.

واستشار أمير المؤمنين أصحاب الرأي في اختيار هذا القائد، وبينما هم في هذه المشورة إذ ورد كتاب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكان مرسلا لجباية بعض صدقات أهل نجد ، فقال عمر : أشيروا عليَّ برجل، فقال عبد الرحمن بن عوف : وجدته ، قال : من هو؟ قال : الأسد في براثنه سعد بن مالك ، ووافقه عليه أهل الرأي ، فانتهى عمر إلى قولهم وأرسل إليه [2] .

وإن في تقديم ابن عوف لسعد بقوله « الأسد في براثنه » مثل آخر لحسن العرض ، والثناء على أهل الفضل بما هم أهل له .

---

(١) (٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨١ - ٤٨٣ .

وصية من عمر لسعد :

لما قدم سعد إلى المدينة أمَّره عمر رضي الله عنهما على حرب العراق وقال له : ياسعد سعد بني وُهَيب لايغرنَّك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ فإن الله عز وجل لايمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله تعالى ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافيه ، ويدركون ماعنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ عليه منذ بُعث إلى أن فارقنا فالزَمْه فإنه الأمر ، هذه عظَتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين[1] .

وإنها لموعظة بليغة من عالم رباني وقائد سياسي خبير ، فلقد أدرك عمر جانب الضعف الذي يمكن أن يؤتَى سعد من قبَله وهو أن يُدلي بقرابته من النبي ﷺ فيحمله ذلك على شيء من الترفع على المسلمين، ثم ذكره بالمبدإ الإسلامي العام الذي يعتبر مقياسا لكرامة المسلم في هذه الحياة حيث قال « الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ماعنده بالطاعة » فقوله « يتفاضلون بالعافية » يعني بالشفاء من أمراض النفوس فكأنه يقول يتفاضلون بالبعد عن المعاصي والإقبال على طاعة الله تعالى وهذه هي التقوى التي جعلها الله سبحانه ميزانًا للكرامة بقوله ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾[2] وهو ميزان عادل رحيم بإمكان كل مسلم بلوغه إذا جَدَّ في طلب رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٣ .

(٢) الحجرات / ١٣ .

ثم ذكَّره عمر في آخر الموعظة بلزوم الأمر الذي كان عليه رسول الله ﷺ وهذا يشمل الالتزام بالدين كله وتطبيقه على الناس .

وصية أخرى :

ثم إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أوصى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما مرة أخرى لما أراد أن يبعثه بقوله : إني قد ولَّيتك حرب العراق فاحفظ وصيتي ، فإنك تُقدم على أمر شديد كريه لايُخلِّص منه إلا الحق ، فعوِّد نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به، واعلم أن لكل عادة عتادًا ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبرَ على ما أصابك أو نابك تجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين : في طاعته واجتناب معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً ، منها السر ومنها العلانية، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامُّه في الحق سواء ، وأما السر فيُعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبة الناس ، فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن الله إذا أحب عبدًا حبَّبه ، وإذا أبغض عبدًا بغَّضه ، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس، ممن يشرع معك في أمرك[1].

هذا وإن لنا مع هذا النص وقفةً سريعة نستلهم منه بعض المواقف والعبر النافعة ، فقد ذكر عمر رضي الله عنه أوَّلاً أن لزوم الحق يخلِّص المسلم من الشدائد ، وذلك أن من لزم الحق كان مع الله تعالى

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٣ .

ومن كـان مع الله كان الـله معـه جل وعلا بـنصره وتأييـده وإن هذا الشعـور ليعطي المسلم دفعـات قوية نحو مـضاعفـة العمل ومواجـهة الصعاب والمآزق ، إضافة إلى الطمأنينة النفسية التي يتمتع بها من لزم الحق قولا وعملا ، بخلاف من حاد عن طريق الحق فإنه يشعر بالقلق والآلام المتعددة التي منهـا تأنيب الضمير والخوف من محـاسبة الناس والدخول في مجاهيل المستقبل التي تترتب على الانحراف .

وذكر عمر رضي الله عنه أن عُـدة الخير الصبر ، وذلك أن طريق الخيـر ليس مفروشًـا بالخمائل ، بل هو طريق شـاق شائك ، يتطلب عبوره جهادًا طويلاً ، فلابد لسالكه من الاعتداد بالصبر ، وإلا انقطع في أثناء الطريق.

وذكر أن خشيـة الله تعالى تكون في طاعته واجتناب معـصيته ثم بيَّن الدافع الأكبـر الذي يدفع إلى طاعتـه ألا وهو بغض الدنيا وحب الآخرة، والدافع الأكـبر الذي يدفع إلى معـصيتـه ، وهو حب الدنيا وبغض الآخرة.

ثم ذكر أن للقـلوب حقائق منهـا العلانيـة ومثَّل لها بالمـعاملة مع الناس بالحق في حـالَي الغضب والرضى ، وأن لايحمـل الإنسانَ ثناءُ الناس عليه علـى مداراتهم في النكول عن تطبيـق الحق ، ولا يحمله ذمهم إياه على ظلمهم ومجانبة الحق معهم .

وذكر من حقائق القلوب السرّ ، وجعل علامته ظهور الحكمة من قلب المسلم على لسانه ، وأن يـكون محبوبا بين إخـوانه المسلمين فإن محبة الله تعالى لعبده مـترتبة على محبة المسلمين له ، لأن الله تعالى إذا أحب عبدًا حببه لعباده .

وإذا كان سعـد بن أبي وقاص المشهود له بالجنة بـحاجة إلى هذه الوصـية فكيف بنا وأمـثـالنا ونحن ينقصنـا الكثيـر من فهم الإسـلام وتطبيقه؟

❊ ❊ ❊

خطبة لعمر :

وسار سعد إلى العراق ومعه أربعة آلاف مجاهد ، وشيَّعهم عمر من مكانه في « صرار » إلى « الأعوص» ثم قام في الناس خطيبًا فقال: إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال ، وصرَّف لكم القول ليحيي به القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله ، من علم شيئًا فلينتفع به، وإن للعدل أمارات وتباشير ، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهَيْن واللَّيْن وأما التباشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر بابا ، ويسَّر لكل باب مفتاحا ، فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال، والزهد أخذ الحق من كل أحد قِبَلَه حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق، ولاتصانع في ذلك أحَدًا ، واكتف بما يكفيك من الكفاف، فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء ، إني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه ، فأنْهُوا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يُبلِّغناها نأخذْ له الحق غير مُتَعتَع [1] .

وفي هذه الخطبة البليغة نجد عمر رضي الله عنه يقرر بعض أمور العدل في الحكم بين الناس ، فيذكر من أمارات العدل أن يتصف الحاكم بخلق الحياء والسخاء والسماحة ، وذلك أنَّ خلق الحياء يحمل صاحبه على احترام شعور الآخرين ويمنعه من فظاظة القول وغلَظ الطباع، وإذا كان المسئول بهذه الصفات فإنه يعطي أصحاب القضَايا فرصة التعبير عما يريدون ، وقد يمنعهم الفظ الغليظ من ذكر تفاصيل

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٥ .

القضية فيتم الحكم على غير تَبيُّن ، وذلك يؤثر في تحقق العدل .

أما خلق السخاء فإنه يورث في نفس المسئول قناعة تحميه من التطلع لما في أيدي الآخرين ، وبالتالي فإن نفسه تنقمع عن الظلم ويصبح دَيْدَنُهُ في تنفيذ مسئوليته أن يحمي المستضعفين من شَرَهِ المتجبرين الظالمين .

أما السماحة فإنها تعبير صادق عن امتلاء النفس بحب الخير للمسلمين، ومن مظاهرها طلاقه الوجه وبشاشته ، وقد تكون مظهرًا من مظاهر الحياء ، لكنها مع الزمن تكون خلقًا مألوفا ، والسماحة بهذا المعنى إذا اتصف بها المسئول فإنها تفتح الطريق أمام ذوي الحاجات وتكون عاملا من عوامل إقرار العدل بين الناس .

وذكر أن تباشير العدل الرحمة ، فحيثما وُجدت الرحمة وُجد العدل، وذلك أن المستحقين للرحمة هم بحاجة للعدل ، وهم غالبًا أوساط الناس وضعفاؤهم ، فإذا وُجد الرحيم العطوف الذي يهتم بقضايا المستضعفين فإنه جدير إذا تولى أن يعدل .

ومما ذكر عمر رضي الله عنه في هذه الخطبة أن باب العدل الاعتبار، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات، والاستعداد له بتقديم الأعمال. يعني أن الدافع الأكبر الذي يدفع المسئول إلى إقرار العدل والباب الذي يدخل منه لتحقيق ذلك هو أن يأخذ العبرة من خاتمة من سبقوه إلى التمكين في الأرض وتولِّي المناصب المهمة . وذلك بالتفكير الدائم في تقديم الأعمال ا لتي تخدمه وتنفعه في مستقبله بعد الموت من خلال مسئوليته التي تحملها ، فإذا كان دَيْدَنه التفكير في ذلك فإن هذا الأمر يدفعه إلى تلمُّس أسباب العدل وتطبيقه بين الناس .

وذكر عمر رضي الله عنه أن الزهد مفتاح العدل ، وعرَّف الزهد بأنه أخذ الحق من كل أحد قبَله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، قال «ولاتصانع في ذلك أحدا ، واكتف بما يكفيك من الكفاف فإن مَنْ لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء » وفي هذا البيان نجد أنه اعتبر الزهد في أمرين : الجاه والمال ، فأما الزهد في الجاه فأن يقبل الحق من كل من صدر منه الحق كائنا من كان ، وأن لايحمله جاهه ومنزلته على رفض الحق إذا صدر ممن هم دونه في المنزلة الدنيوية ، وأن يؤدي الحق إلى مستحقه كائنًا من كان ، وأن لايحمله منصبه على استضعاف من هم دونه ومنعهم حقوقهم ، وأن يكون في أخذه الحق وأدائه قاصدًا ذات الحق لا مُصانعة الناس ومداراتهم.

وأما الزهد في المال فأن يكتفي بمعيشة الكفاف وذلك بأن يقتصر في الإنفاق على ما لابد منه لمثل مجتمعه .

وأما كون الزهد بنوعيه مفتاح العدل فلأن من أهم الدوافع نحو الظلم الجنوح نحو العلو في الأرض والاستكثار من متاعها فإذا رَوَّض المسئول نفسه على الزهد في الجاه والمال كان جديرًا بأن يُفتح له باب العدل ، وأن يكون مصدر خير وسعادة للمسلمين .

ثم نجد عمر رضي الله عنه يختم خطبته ببيان ضخامة المسئولية التي تحمَّلها حيث يقول : « إني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه ، فأَنْهُوا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يبلِّغناها نأخذ له الحق غير متعتع » .

فالمسئول الأول في الأمة هو أثقلهم حملا لأنه مسئول عن الأمة أمام الله تعالى ، ثم تتدرج المسئوليات من بعده على حسب منزلتها .

وقوله «وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه » الظاهر أنه يريد أن الله ألزمه برفع الظلم عن المظلومين وإقرار العدل في الأرض ، وإذا تم ذلك لم يَعُدْ هناك دعاء يُرفع من المظلومين ،ويدل على ذلك قوله بعد هذه الجملة « فأنهُوا شِكاتكم إلينا ،فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متعتع» يعني نأخذ له الحق بقوة وهو يشعر بعزته وكرامته ولايتعرض في سبيل حصوله على حقه للمذلة والمهانة.

وبهذه الخطبة وأمثالها يقرر عمر رضي الله عنه قواعد العدل في الإسلام ، وبما قام به من إلزام نفسه بالعدل ، وأخذ الناس به أصبح مضرب المثل في هذا المجال .

مسير سعد إلى زَرُود :

وسار سعد بجيشه حتى نزل بمكان يقال له « زَرُود »[1] من بلاد نجد، وأمده أمير المؤمنين بأربعة آلاف ، واستطاع سعد أن يحشد سبعة آلاف آخرين من بلاد نجد ، وكان المثنى بن حارثة الشيباني ينتظره في العراق ومعه اثنا عشر ألفا .

وأقام سعد بزرود بجمع القوات استعداداً للمعركة الفاصلة مع الفرس وانتظاراً لأمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهم أجمعين ، وقد كان عمر عظيم الاهتمام بهذه المعركة كما ذكر الإمام الطبري بإسناده عن ماهان أنه قال قال عمر : والله لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رئيسا ولا ذا رأي ولاذا شرف ولا ذا سطَة ولاخطيبا ولاشاعراً إلا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وغُرَرَهم[2] .

---

(١) زرود رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من العراق سميت بذلك لأنها تزدرد يعني تبتلع المياه .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٤٨٦ - ٤٨٧ .

وبينما كان سعد مقيما بجيشه في زرود مرض المثنى مرضًا شديدًا وكان مع جيشه في أطراف العراق ولما أحس بدنو أجله كتب وصيةً إلى سعد بن أبي وقاص وولَّى على من معه من الجيش بشير بن الخصاصية ، وأرسل بوصيته أخاه المُعنَّى بن حارثة وقد جاء في وصيته لسعد : أن لايقاتل عدوه وعدوهم - يعني المسلمين - إذا استجمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم ، فإن يُظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم ، وإن تكن الأخرى فاؤوا إلى فئة ، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم ، وأجرأ على أرضهم ، إلى أن يردَّ الله الكرة عليهم .

فلما انتهى إلى سعد رأيُ المثنى ووصيته ترحَّم عليه وأمَّر المعنَّى على عمله، وأوصى بأهل بيته خيراً[1] .

وهذه وصية ثمينة من رجل عظيم الخبرة بحرب فارس ، وهو أول من تجرأ على حربهم في الإسلام .

ومما يلفت النظر في هذا الخبر أن المثنى قد أوصى بزوجته سلمى بنت خصفة التيمية إلى سعد بن أبي وقاص ، وحملها معه المعنَّى ، ثم خطبها سعد بعد انتهاء عدتها وتزوجها . فهل أراد المثنى أن يَبرَّ زوجته بعد رحيله بضمها إلى بطل عظيم من أبطال الإسلام شهد له رسول الله بالجنة ؟ إنه نوع من الوفاء نادر المثال ، أم أنها كانت ذكية وعاقلة وقد تكون لديها خبرة من حروب زوجها فأراد أن ينتفع

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٨٦ - ٤٩٠ .

المسلمون بهـا ؟ كل ذلك محتمل، وهو غـيض من فيض مما تحلى به ذلك الجيل الراشد من الفضائل وعظائم الأمور .

موقف جهادي للمُعَنَّى بن حارثة :

تقدم لنا عـرض وصيـة المثنى بن حارثة الشيـباني لسـعد بن أبي وقاص رضي الـله عنهمـا ، وقد حمل هذه الـوصية أخـوه المَعَنَّى بن حارثة، ومما ينـبغي الإشادة به الإشـارة إلى موقف قام به المـعنى قبل إبلاغ هذه الوصـيـة، وذلك أنه علم بأن أحـد أمــراء الفـرس وهو الآزاذمرد بعث قابوس بن قابوس بن المنذر إلى القادسية وقال له : ادع العـرب فأنت على من أجـابك وكن كـما كـان آباؤك - يعني المناذرة الذين كانـوا ولاة الفرس - فنزل «القـادسية» ، وكـاتب بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان يكاتبهم به مـقاربة ووعيدًا، فلما انتهى إلى المعنَّى خبره ، أسْرَى المعنَّى من « ذي قار» حتى بيَّته ، فأَنَامَهُ ومن معه ، ثم رجع إلى ذي قار [1] .

وهكذا نجد أن ذلكـم الجيل الزاهر قد أنجب رجـالا أكفـاء وسادةً فضلاء، فـلا تكاد الساحة تخلو من رجل المواقف حتى يبرز فـيها من يملؤها بطولة وفداء ، فـحينما غـاب المثنى قام أخوه المعنى بعـد موته وسدَّ ثلمـة خطيرة تفتقـر إلى الأبطال أمثاله ، وإن غـارته الليلية هذه لتشبه إلى حد كبير غـارات خالد بن الوليد القاصمة التي تترك الأعداء في ذهول وحيـرة فلا يكادون يحاولـون لَمَّ الشمل واستـعادة المواقف حتى يفاجئهم بقاصمة تشل تفكيرهم وتفرق جمعهم .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٠ .

مسير سعد إلى العراق ووصية من عمر :

وجاء الأمر من عمر أمير المؤمنين إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما بالرحيل من « زرود » إلى العراق استعداداً لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس وأوصاه با لوصية التالية :

أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله عز وجل أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشَدَّ احتراسًا من المعاصي منكم من عدوِّكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصَرَ المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولاذلك لم تكن لَنَا بهم قوة لأن عدَدَنا ليس كعددهم، ولاعُدَّتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإنْ لانُنْصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

واعلموا أن عليكم في سيركم حفظةً من الله يعلمون ماتفعلون، فاستحيوا منهم، ولاتعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شرٌّ منا ولن يسلط علينا وإن أسأنا، فرُبَّ قوم سُلِّط عليهم شرٌّ منهم كما سُلِّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرةُ المجوس، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولا ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم .

وتَرفَّقْ بالمسلمين في مسيرهم ، ولاتجشِّمهم مسيرًا يتعبهم ولاتقصِّر بهم عن منزل يرفُق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، جامٍّ الأنفس والكراع[1]

---

(١) يعني الخيول .

وأقم بمن معك كلِ جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة ،يجمعون فيها أنفسهم، ويَرُمُّون أسلحتهم وأمتعتهم .

ونَحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلايدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولاتَرْزأ أحدا من أهلها شيئًا فإن لهم حرمةً وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فَفُوا لهم ، ولاتنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح .

وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذْكِ العيون بينك وبينهم ، ولايخْفَ عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لاينفعك خبره وإن صدق في بعض، والغاش عين عليك وليس عينا لك .

وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبثَّ السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم ، وانتَق الطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخيَّر لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدوا كان أول من تلقَّاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد ، والصبر على الجلاد، ولاتخص أحدًا بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابَيْتَ به أهل خاصتك، ولاتبعث طليعة ولاسرية في وجه تتخوف فيه صنيعة ونكاية .

فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لاتعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومَقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنيعته بكَ ، ثم أذْكِ حراسك

على عسكرك ، وتحـفَّظ من البيات جهدك ، ولاتُؤتَى بـأسير ليس له عهـد إلا ضربت عنقـه لترهب بذلك عدوك وعـدو الله ، والله ولي أمرك ومن معك ، وولي النصر لكم على عدوكم والله المستعان[1] .

وبعـد قـراءة هذا الخطاب العظيـم المشـتـمل على هذه الوصـايا النافعة، يتـبين لنا جانب مهم من جوانب عظمـة عمر رضي الله عنه وهو خبرته العالية فـي التخطيط الحربي ، مع أنه لم يسبق له أن تولى قيادة جيوش من هذا النوع ، ولكن الإلهام الإلهي كان واضحًا في كل توجيهاته ووصاياه.

ومما يدل على بصيـرته النافذة في التوجـيه الحربي مـارواه الإمام الطبري بإسناده عن الإمام الشعبي قال : كـان عمر قد كتب إلى سعد مُرْتحله من " زرود " : أن ابعث إلى " فـرج الهند " - يعني جنوب العراق- رجلا ترضـاه يكون بحياله ويكون ردءًا لك من شيء إن أتاك من تلك التخـوم ، فبـعث المغيرة بن شـعبة في خـمسـمائة ، فكان بحيال«الأُبُلَّة» من أرض العرب ، فأتـى « غُضَيًا » ونزل على جرير - يعني البجلي وقـبيلته - وهو فـيما هنالك يومـئذ ، فلما نزل سـعد بشَراف كتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس فيما بين غُضَيّ إلى الجَبَّانه، فكتب إليه عمـر: إذا جاءك كتابي هذا فعشّـر الناس وعرِّف عليهم ، وأمِّر على أجنادهم وعبِّهم، ومُرْ رؤساء المسلمين فليشهدوا ، وقدِّرهم وهم شـهود ، ثم وجِّهـهم إلى أصحـابهم ، وواعـدْهم القادسـية ، واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خـيله واكتب إليَّ بالذي يستقر عليه أمركم .

(١) الفاروق القائد ، لمحمود شيت خطاب / ١٥٥ .

وقد نفّذ سعد هذه الخطة فـأمَّر أمراء الأجناد ، وعرَّف على كل عشرة رجلا كـما كانت العرافات على عهـد رسول الله ﷺ ، وعشَّر الناس فجعلهم عـشرة أعشار وجعل على كل عُشـر رجلا له ذكر في الإسلام[1] .

الاستعانة بالتائبين :

ذكر الإمام الطبري في رواية له أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يستـعن في حروب الردة ولا عـلى الأعاجم بمرتـد ، وأن عمـر استنفرهم ولم يولِّ منهم أحدًا [2] وفي رواية أخرى أن عمر قال لسعد ابن أبي وقاص في شأن طليحة بن خـويلد الأسدي وعمرو بن مَعْدي كَرب الزبيدي : استعن بهما ولاتُولِّيَنَّهما على مائة .

وإننا لنستفيد من سنة هذين الخليفتين الراشدين اللذين قال عنهما رسول الله ﷺ « اقتدوا باللذيـن من بعدي أبي بكر وعمر »[3] . إننا لنستفـيد من سنتهما هذه أن من ارتـد عن الإسلام ثم تاب ورجع إليه فإن توبته مقبولة ويكون معصوم الدم والمال ، وله ما للمسلمين وعليه ماعليهم غير أنه لايُولَّى شيئًا من أمور المسلمين المهمة وخاصة الأعمال القيـادية ، وذلك لاحتمال أن تكون تـوبته نفاقًا ، وإذا كـانت كذلك وتولَّى قـيادة المسلمين فـإنه يفـسد في الأرض ويقلب مـوازين الحيـاة فيقرب أمـثاله من المنافقين ويبعد المؤمنين الصـادقين ، ويحوِّل المجتمع الإسلامي إلى مجتمع تسوده مظاهر الجاهلية .

---

(1) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(2) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٩ .

(3) مسند أحمد ٥/ ٣٨٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، سنن الترمذي المناقب باب ٥٢ ، حديث ٣٧٤٢، سنن ابن ماجه ، المقدمة رقم ٩٧ .

فكانت هذه السنة الراشدة من الخليفتين الراشـدين لحماية المجتمع الإسلامي من تسلل المفسدين إلى قيادته وتوجيـهه ، ولعل من حكَم هذه السنة أيضًا ملاحظة عـقوبة المرتدين بنقـيض قصدهـم ، فالذين يرتدون من أجل الحصول على الزعامات والقيادات ، إذا أظهروا التوبة وعادوا إلى الإسـلام يُحرمون من هذه القـيادات عقـوبة لهم ، وردعًا لكل من تسوِّل له نفسه أن يـخرج عن الخط الإسلامي ، ويبحث عن الزعامة في معاداة الإسلام وموالاة أعدائه .

كتاب من أمير المؤمنين عمر :

وصل إلى قائد المسلمين سعد بن أبي وقاص وهو نازل في شَراف على حدود العراق كـتاب أمير المؤمنين بالمسير نحـو فارس ، وقد جاء في هذا الكتاب : أما بعـد فَسرْ من شراف نحـو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله واسـتعن به على أمرك كله ، واعلم فيـما لديك أنك تَقْـدُم على أمة عددهم كـثيـر وعُدَّتهم فاضلـة ، وبأسهم شديد ، وعلى بـلد منيع -وإن كان سهـلا - كؤود لبـحوره وفيـوضه ودآدئه [1]، إلا أن توافقوا غيضا من فيض .

وإذا لقيتم القوم أو أحدًا منهم فابدؤوهم الشَّدَّ والضرب ، وإياكم والمناظرة لجموعهم - يعني الانتظار بعد المواجهة - ولايخدعُنَّكم فإنهم خَدَعة مكَره ، أمرهم غيـر أمركم ، إلا أن تجادُّوهم - يعني تأخذوهم بالجد- وإذا انتهيت إلى القادسية - والقادسية باب فارس في الجاهلية- فتكون مـسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحـجر والمدر - يعني بين الصحراء والقرى العامرة - على حـافات الحجر وحافات المدر ،

---

(١) الدأداء الفضاء وما اتسع من الأودية .

والجراع بينهما - يعني الأراضي السهلة - ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إن أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم ، الذي يأتي على خيلهم ورجْلهم وحَدّهم وجِدِّهم ، فإن أنتم صبرتم لعدوكم ، واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لايجتمع لكم مثلهم أبدا، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن، وبها أجهل، حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة [1].

ولعلنا على ذكر من وصية المثنى لسعد في اختيار المكان الذي يستقر فيه الجيش ، فهي تشبه هذه الوصية حيث اتفق رأي عمر ورأي المثنى في اختيار المكان، وكانت تلك الوصية من المثنى نتيجة خبرة أكثر من ثلاث سنوات في حرب الفرس ، و هذا دليل آخر على براعة عمر في التخطيط الحربي مع أنه لم تطأ قدماه أرض العراق رضي الله عنهم أجمعين .

وتتضمن هذه الوصية إبقاء الجيش بعيدًا عن متناول الأعداء، ثم رميهم بالسرايا التي تُنَغِّص عليهم حياتهم وتثير عليهم أتباعهم حتى يضطرهم المسلمون إلى منازلتهم في المكان الذي تم اختياره .

وكتب إليه عمر أيضًا يُذكِّره بأسباب النصر المعنوية وهي التي تأتي في المقام الأول والأكبر ، وقد جاء في كتابه : أما بعد فتعاهد قلبك وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة ، ومن غفل فليحدثهما، والصبرَ الصبرَ ، فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية، والأجر على

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٠ .

قــدر الحسـبة، والحـذر الحذر على مـا أنت عليه ومـا أنت بسبـيله ، واسألوا الله العافـية ، وأكثروا من قـول « لا حول ولاقوة إلا بالله » واكتب إليَّ أين بلغ جـمعكم ، ومن رأسهم الذي يلي مصـادمتكم ؟ فـإنه قد منعني من بعض مـا أردت الكتـاب به قلة علمي بماهجمـتم عليه، والذي اسـتقر عليـه أمر عدوكم، فـصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صـفة كأني أنظر إليهـا ، واجعلني من أمركـم على الجليَّة ، وخَف الله وارجُـه ، ولاتُدلَّ بشيء ، واعلم أن الله قد وعدكم ، وتوكلَ لهذا الأمر بمالا خُلَفَ لَه ، فاحذر أن تصرفه عنك ، ويستبدل بكم غيركم[١].

هذا وإننا لنجـد عمر رضي الله عنه في هذا الـنص وفي نصوص كثيرة داعـيًا إلى الله تعالى مؤثرًا بدعوته حـيث يلامس كلامه القلوب فيحـييها، فـهو أولا يوصي بتعاهد القلوب ، فـإن القلب هو المحرك لجميع أعضاء الجسم والحـاكم عليها فإذا صلح صلح الجسم كله ، ثم يوصيه بموعظة جنده وتذكيرهم بالإخلاص لله تعالى واحتساب الأجر عنده، ويبين أن نصـر الله تعـالى متـرتب على ذلك ، ويحـذِّره من التفريط في المسئـولية التي تحمَّلها وما يستقـبله من الفتوح ، ويذكِّرهم بوجوب ارتبـاطهم بالله تعالـى وأن قوتهم من قوته ، ويـوصي قا ئد المسلمين بأن يكون بين مـقام الخوف من الله تعـالى والرجاء لماعنده ، وهو مقـام عظيم من مقامـات التوحيـد، وينهاه عن الإدلال على الله بشيء من العـمل أو من ثناء الناس، ويذكـره بما سـبق من وعـد الله تعالى بانتصار الإسلام وزوال ممالك الـكفر ، ويحذره من التهاون في

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩١ .

تحقيق شيء من أسباب النصر فيتخلف النصر عنهم ليتم على يد غيرهم ممن يختارهم الله تعالى .

كتاب من سعد إلى عمر :

فكتب سعد لأمير المؤمنين بصفة البلدان التي يتوقع أن تكون ميدانًا للمعركة الفاصلة ، إلى أن قال : وأنَّ جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قَبْلي إلْبٌ لأهل فارس قد خفُّوا لهم واستعدوا لنا ، وإن الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم ، فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا، ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم ، وأمر الله بعدُ ماض، وقضاؤه مسلَّم إلى ماقدر لنا وعلينا ، فنسأل الله خير القضاء وخير القدَر في عافية .

فكتب إليه عمر : قد جاءني كتابك وفهمته ، فأقم بمكانك حتى يُنغض الله لك عدوك ، واعلم أن لها مابعدها ، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله .

وصار عمر ومن معه يدعون لسعد وللمسلمين معه [1].

وهكذا كانوا يجمعون بين فعل الأسباب والتوكل على الله تعالى، فبعد أن أتقن عمر رضي الله عنه وأكمل كل الأسباب الممكنة ظل ملازمًا للدعاء الذي يستنزل به نصر الله جل وعلا وتأييده لعباده المؤمنين .

كتاب من عمر إلى سعد :

وبينما كان سعد وجيشه متوجهين نحو القادسية ينتظرون بروز الأعداء لهم ورد إلى سعد كتاب من أمير المؤمنين فيه تشبيت لهم ،

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٢ .

وتقوية لعزائمهم وقد جاء فيه : إني قد أُلْقِيَ في رُوعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطَّرحوا الشك ، وآثروا اليقين عليه ، فإن لاعب أحد منكم أحدًا من العجم بأمان ، أو قرفه - يعني رماه - بإشارة أو بلسان ، فكان لايدري الأعجمي ماكلمه به ، وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك له مجرى الأمان ، وإياكم والضحك ، والوفاء الوفاءَ فإن الخطأ بالوفاء بقيَّة ، وإن الخطأ بالغدر الهلكة ، وفيها وهُنكم وقوة عدوكم، وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم ، واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شينًا على المسلمين وسببًا لتوهينهم [1] .

وهكذا أتحف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الجيش الإسلامي هناك برائعة من روائعه في التوجيه والإرشاد ، ولكَمْ يتمنى المهتمون بهذه الروائع أن لو اتصل البريد بينه وبين قادته في كل المعارك كما هو الحال في القادسية ، إذًا لأتحف الأمة بالكثير من هذه الروائع .

هذه الموعظة فيها تثبيت للمؤمنين لأن عمر قد أخبر عنه النبي ﷺ بأنه من المُلهمين فقال : « إنه كان فيمن قبلكم أناس محدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » [2] وقال ﷺ « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » [3].

فإذا جاء المسلمين خبر عمر بأن الله ألقى في قلبه بأنهم سيهزمون عدوهم، فإن ذلك يجعلهم يندفعون في قتال عدوهم وهم واثقون بالنصر.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٢

(٢) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، باب ٦ ، صحيح مسلم ، فضائل الصحابة رقم ٢٣ .

(٣) سنن الترمذي ، المناقب ، باب ٦٥ ، سنن أبي داود ، الإمارة ، رقم ٢٩٦١ .

لقد كـان عمر رضـي الله عنه يعيش مع الجيـش الإسلامي بكل مشاعـره وأحاسيسه ، ولقـد تكاثفت عليه الهموم حـتى أصبح لايهنأ بعيش ولايَقرُّ له قرار حتى يسـمع أخبارهم ، وإن في مثل هذا الإلهام من الله تعالى تخفيـفًا من هذا العبء الكبير الذي تحمله عمر وتثـبيتًا للمسلمين وتقوية لقلوبهم .

ونجد عمر رضي الله عنه في هذا الخطاب يـذكِّر المسلمـين بشـيء من عوامل النصر المعنوية حـيث يحـثهم على الالتزام بشـرف الكـلمة والصدق في القول والوفاء بالعـهود ، ولـو كـان من الْتزم بذلك أحد أفراد المسلمين، أو كان هناك خطأ في الفـهم فلم يقصد المسلم الأمان وفهمه العدو أمانا .

إن الانتصار على الأعداء ليس في الانتـصار الحربي وحده، وإنما هو بالدرجة الأولى في انـتصار المبدأ الـذي يمثله المنتصر ومـدى قناعة الناس به، وإنما يتم ذلك بكون المبدإ حقا وكون من يمثله متخلقًا بمكارم الأخلاق، وهكذا كـان الصحابة رضي الله عنهم وهم يعـرضون على الناس دين الله الحق، ويمهدون لعـرضه بإزالة قوى البـاطل التي تحول دون بلوغ دعوة الحق .

موقف جهادي لزُهرة ابن الحوية :

من الأمور التي كان يتميز بها قادة الصحابة رضي الله عنهم إسناد المهمات إلى الأكفـاء من الرجال ، ومن هؤلاء الذين ولاهم سعد بن أبي وقـاص زُهرة بن عبـد الله بنُ الحَـويَّة ، وقد ولاه على مـقدمـة الجيش، وقد جرى له موقف يدل على أهليته لذلك ، فقد أخرج ابن جرير بإسناده عن كَرب بن أبي كرب العُكْلي - وكان في المقدمات أيام

القادسية - قال: قدَّمنا سعد من « شَراف » فنزلنا بعذيب الهجَّانات ، ثم ارتحل، فلما نزل علينا بعذيب الهـجانات وذلك في وجه الصبح ، خرج زهرة بن الحوية في المقدمات ، فلما رُفع لنا العذيب - وكان من مسالحهم - استبنَّا على بروجـه ناسًا ، فما نشاء أن نرى على برج من بروجه رجلا أو بين شرفتين إلا رأيناه ، وكنا في سَرَعان الخيل - يعني أوائلها - فأمسكنا حتى تلاحق بنا كَثْف - يعني جماعة - ونحن نرى أن فيهـا خيلا ، ثم أقدمنا على العذيب ، فلـما دنونا منه خرج رجل يركض نحو القـادسية فانتهـينا إليه فدخلنا فإذا ليس فـيه أحد ، وإذا ذلك الرجل هو الذي كـان يتراءى لنـا على البروج وهو بين الشُّـرف مكيـدة ، ثم انطلق بخبـرنا ، فطلبناه فأعـجزنا، وسـمع بذلك زهرة فاتَّبعنا فلحق بنا وخلَّفنا واتَّبعه ، وقال : إن أفلت الربَّيءُ أتاهم الخبر ، فلحقه بالخندق فطعنه فجدَّله فيه .

وكان أهل القادسية يتعجـبون من شجاعة ذلك الرجل ومن علمه بالحرب، لم يُرَ عَيْنُ قوم قط أثبت ولا أربط جأشًا من ذلك الفارسي، لولا بعد غايته - يعني زهرة - لم يلحق به ولم يصبه زهرة [١] .

أقـول : إن في هذا دلالة على حـسن اخـتيـار أمـراء المسلمين للقادة، حـيث يضعـون الرجل المناسب في المكان المناسب، فـإن القوم الذين طلبوا ذلك الرجل فأعجزهم لديهم وسائل من نفس النوع الذي لدى زهرة، فكلهم كانوا يركبون الخيل ،ولكن زهرة كان يتفوق عليهم بأنه كان يحمل الهمَّ الكبير الذي يحمله سعد وعمر،وإن الذي أوصل زهرة إلى مـقصوده ليس الفـرس التي كان يمتـطيها وإنما أوصلـه همه الكبير وشعوره بالمسئوليه.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٣ .

إن الذي كان يسيطر على تفكير زهرة وهو يطارد ذلك الرجل أن يحول دون وصول عين العدو إليهم فيعلموا بقدوم المسلمين وقد تجاوز في سبيل ذلك كل الاحتمالات الأخرى . . من ثبات ذلك الرجل وقتاله وهو - كما جاء في آخر الرواية - موصوف بالشجاعة والخبرة بالحرب- إلى احتمال ظهور كمائن في الطريق تقضي عليه وقد انفرد عن أصحابه. وهكذا فليكن الرجال .

وفي هذا النص ما يؤيد وصف عمر لأهل فارس بأنهم خَدَعة مكَرَة فإن ذلك الرجل الفارسي أوهم المسلمين بأن في القصر رجالا كثيرين بوقوفه أمام كل شرف القصر حتى استطاع أن يفلت لولا أن تداركه زهرة بتوفيق الله ثم بحزم هذا القائد وجدِّه في الأمر .

حروب خاطفة ومكاتبات بين سعد وعمر :

تبين لنا أن جيش المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه نزل في القادسية ، وأن الخطة الحربية التي رسمها لهم عمر رضي الله عنه أن يبقوا هناك حتى يأتي إليهم الأعداء ، وقد أدرك الفرس خطورة منازلة المسلمين وهم على طرف الصحراء ، فتباطئوا في الإقدام عليهم لعلهم يتقدمون في بلادهم ، ولكن سعدا بقي هو وجيشه في القادسية ، وبثَّ السرايا للإغارة على قرى العراق لمحاولة الضغط على حكومة فارس واستخراجها من بلادها وحصونها المنيعة .

ويكفي أن نورد مثالا واحدًا لهذه الغارات التي قام بها المسلمون بنجاح، وأمَّنوا بسببها الحصول على الزاد الذي يكفيهم لعدة شهور إلى جانب الهدف الأول وهو إلجاء الفرس إلى التقدم إليهم .

فمن ذلك أن سعدا رضي الله عنه بعث عاصم بن عمرو التميمي إلى أسفل الفرات ، فسار حتى أتى « ميسان » فطلب غنما أو بقرا فلم يقدر عليها، وتحصَّن منه من في الأفدان ، ووغلوا في الآجام ووغل حتى أصاب رجلا على طَفٍّ أَجَمة - يعني إلى جانب شجر مُلتفّ - فسأله واستدلَّه على البقر والغنم ، فحلف له وقال : لا أعلم ، وإذا هو راعي مافي تلك الأجمة ، فصاح منها ثور : كذب والله ، وها نحن أولاء، فدخل فاستاق الثيران ، وأتى بها العسكر ، فقسم ذلك سعد على الناس فأخصبوا أياما .

هذا وإن أول مايلفت النظر في هذا الخبر حصول هذه الكرامة العظيمة لذلك الجيش الذي ضم عددًا من الصحابة رضي الله عنهم، والكرامات منَّةٌ من الله تعالى يمنُّ بها على أوليائه الصالحين إما لإنقاذهم من الهلاك والضرر ، أو لتقوية إيمانهم ، أو لإرهاب عدوهم ، إلى غير ذلك من الحكَم العظيمة ، وقد تجتمع هذه الحكَم في كرامة واحدة. فالناس لم يشهدوا أن الثيران تتكلم بكلام البشر ولكنها خاطبت هؤلاء المسلمين وكذبت راعيها ودلَّت على نفسها .

وكم كان أثر مثل هذه الكرامة عظيمًا ، والمسلمون مقبلون على معركة مرعبة ، لايعلمون ماينتظرهم فيها من مفاجآت وأهوال، كما أن أثرها عظيم على أهل تلك البلاد حيث ستعلو في أعينهم مكانة المسلمين. ولن يتحمسوا لمؤازرة أعدائهم .

وقد جاء في آخر هذه الرواية أن الحجاج بن يوسف الثقفي بلغه هذا الخبر في زمانه فأرسل إلى نفر ممن شهدها أحدهم نذير بن عمرو والوليد ابن عبد شمس وزاهر ، فسألهم فقالوا : نعم ، نحن سمعنا

ذلك ، ورأيناه واستقناها [1] ، فقال : كذبتم ، فقالوا : كذلك إن كنت شهدتها وغبنا عنها ، فقال : صدقتم ، فما كان الناس يقولون في ذلك ؟ قالوا: آية تبشير يُستدلُّ بها على رِضَى الله سبحانه ، وفَتْحِ عدونا ، فقال: والله ما يكون هذا إلا والجمع أبرار أتقياء ، قالوا : والله ماندري ما أجنَّت قلوبهم ، فأما ما رأينا فإنا لم نر قوما قط أزهد في دنيا منهم ، ولا أشد لها بغضا ، ما اعْتُدَّ على رجل منهم في ذلك اليوم بواحدة من ثلاث : لابجبن ولابغدر ولابغلول[2] .

وإن في هذا الثناء البالغ على أفراد ذلك الجيش مايدلنا على الصفات التي أهَّلتهم لبلوغ رضوان الله تعالى أولاً ، وحصولهم على النصر المؤزر ثانيًا ، حيث وصفوهم بالشجاعة والوفاء بالعهود ، والأمانة ، وإن قوما يتصفون كلهم بهذه الصفات العالية لجديرون بالنصر والتأييد .

هذا وإن في ثنايا هذا الخبر مايدلنا على المعاناة الصعبة التي واجهها الجيش الإسلامي في طبيعة تلك البلاد حيث يطول فيها شجر القصبُ ويلتفّ بحيث يستر من كان بداخله تمامًا ، فآجام القصب تُشكِّل مكامن جيدة للمحاربين وحصونا ساترة لأهل تلك البلاد ، ولكنها عوائق وبلاء على الغزاة ، ومع ذلك نجح المسلمون في اختراق أرض العراق ، واستخدموا هذه المكامن أحيانًا لصالحهم ، وهذا يدل على فرط شجاعتهم وجسارتهم .

وذكر ابن جرير في سياق هذه الرواية التي أخرجها عن كَرِب بن

---

(١) يعني البقر .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٤ - ٤٩٥ .

أبي كرب العكلي أنه قال : وبثَّ - أي سعد - الغارات بين كسكر والأنبار، فحوَوا من الأطعمة ماكانوا يستكفون به زمانا وبعث سعد عيونا إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولّى « رستم بن الفرُّخزاذ الأرمني »حربه، وأمره بالعسكرة ، فكتب بذلك إلى عمر ،فكتب إليه عمر: لايكربُنَّك ما يأتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به ،واستعن بالله وتوكل عليه ، وابعث إليه رجالا من أهل المنظرة والرأي والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلْجًا عليهم ،واكتب إليَّ في كل يوم[1] .

وسيأتي إن شاء الله عند عرض كلام الوفود تصديق قول أمير المؤمنين هذا حيث كانت وفادة الوفود على كسرى ورستم من أقوى العوامل لهزيمتهم النفسية قبل أن يدخلوا المعركة مع المسلمين .

ونجد عمر رضي الله عنه في هذا الخطاب يركز على اختيارالوفود بأن يكونوا من أهل المنظر والهيئة الحسنة،وأن يكونوا من أهل الرأي السديد وأن يكونوا من أهل الشجاعة،وإن هذه الأمور الثلاثة إذا اجتمعت في شخص فإنه جدير بأن يصل إلى مقصوده ومقصود من أرسله فإن أصحاب المنظر والهيئة الحسنة يورثون في قلوب من يلقونهم مهابة قبل أن يتكلموا،فإذا تكلموا وكانوا على حصافة في الرأي فإنهم يأخذون بمسامع من أسمعوه كما اخذوا ببصره،فتكتمل لهم صورة الكمال اللائق بهم،ولابد مع ذلك من الأمر الثالث وهو الشجاعة لأن من فقد الشجاعة لايستطيع أن يعبر عما يريد وإن كان من أهل الرأي والنباهة .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٥ .

بعث وفد المسلمين إلى كسرى :

وقد نفذ سعد هذا الأمر فأحسن الاختيار فبعث أربعة عشر رجلا من وجوه المسلمين كما جاء في رواية الإمام الطبري وهم النعمان بن مقرن المزني ، وبسر بن أبي رهم الجهني ، وحَمَلَة بن جُوَيَّة الكناني ، وحنظلة ابن الربيع التميمي ، وفرات بن حبان العجلي ، وعدي بن سهيل ، والمغيرة بن زرارة بن النباش الأُسَيِّدي ، وعطارد بن حاجب التميمي ، والأشعث بن قيس الكندي ، والحارث بن حسان الذهلي ، وعاصم بن عمرو التميمي ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، والمغيرة ابن شعبة الثقفي والمعنَّى بن حارثة الشيباني وكان أميرهم النعمان بن مقرن [1].

وسنختار إحدى الروايات التي ذكرها الإمام ابن جرير في بيان المحاورة التي جرت بين هؤلاء وكسرى وهي الرواية التي أخرجها بإسناده عن بنت كيسان الضبِّية عن بعض سَبْي القادسية ممن حسن إسلامه وحضر هذا اليوم الذي قدم فيه وفود العرب قال : وثاب إليهم الناس ينظرون إليهم، فلم أر عشرة قط يعدلون في الهيئة بألف غيرهم- يعني على التقدير وإلا فهم أربعة عشر - قال : وخيلهم تخبط ويوعد بعضها بعضا، وجعل أهل فارس يسوءهم مايرون من حالهم وحال خيلهم، فلما دخلوا على « يَزْدَجرد» أمرهم بالجلوس وكان سيء الأدب، فكان أول شيء دار بينه وبينهم أن أمر الترجمان بينه وبينهم فقال: سلهم مايسمُّون هذه الأردية ؟ فسأل النعمان، وكان على الوفد : ماتسمِّي رداءك ؟ قال: البُرْد ، فتطيَّر وقال:« بردجهان»

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٦ .

وتغـيـرت ألوان فـارس وشق ذلك عليـهـم ، ثم قـال : سلهم عن أحذيتهم ، فـقال : ماتسمـون هذه الأحذية ؟ فقال : النعـال ، فعاد لمثلها ،وقال :« ناله ناله في أرضنا، ثم سأله عن الذي في يده فقال : سوط - والسـوط بالفارسيـة الحريق- فقال: أحْـرَقوا فارس أحـرقهم الله، وكان تطيُّره على أهل فارس ، وكانوا يجدون من كلامه .

وهكذا وجـدنا أن الله تعالى قـدَّر أن تكون أسمـاء هذه الأشيـاء بالعربية مطابقة لأسماء منكرة عندهم تثيـر تشاؤمهم ، وكانوا قوما قد غلب عليـهم التشـاؤم والرجوع إلى تخـرصات الكهان ، فـأثر ذلك عليهم وهزَّ من عـزتهم وكبريائهم ، وهكذا نجد كل أمـة تنحرف عن التوحـيد الخـالص لله عز وجل تكون عـرضة لشيـاطين الجن والإنس يلعبون بها ويوغلون بها في أوحال الشرك والوثنية .

واستـبشر أعـضاء الوفد الإسـلامي بذلك فكان هذا أول تباشـير انتـصـارهم علـى أعـدائهم ، وبين لهم هوان هذه الأمـة الـتي تُعلِّق مستقبلها على كلمات لا أثر لها في الحقيقة والواقع .

قال :ثم قـال الملك : سلهم ماجاء بكم ؟ ومادعـاكم إلى غزونا والولوع ببـلادنا ؟ أَمِنْ أجل أنا أجْمَـمناكم وتشـاغلنا عنكم اجتـرأتم علينا؟

فقـال لهم النعمان بن مقـرِّن : إن شئتم أجـبت عنكم ومن شاء آثرته، فقالوا : بل تكلَّم ، وقالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا ، فتكلم النعـمان فقـال : إن الله رحمنا فأرسل إليـنا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرِّفنا الشر وينهـانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين ،فرقة تقاربه

وفرقة تباعده، ولايدخل معه في دينه إلا الخواص ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ثم أُمِرَ أن ينبذ إلى من خالفه من العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعًا على وجهين ، مُكْره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعًا فضل ماجاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسَّن الحسن وقبَّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخرَ شرٌ منه الجزاء، - يعني الجزية - فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلَّفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم .

وهذا كلام قوي رصين تمثَّل به ما أراده عمر رضي الله عنه من حصافة الرأي وشجاعة اللسان ،وقد بين به النعمان رضي الله عنه الهدف الواضح الذي من أجله غزا المسلمون بلاد الفرس وغيرها ، وهو الدعوة إلى الإسلام ، فلو أسلم الفرس وطبقوا أحكام الإسلام لرجع المسلمون عن بلادهم وتركوهم وشأنهم ، ولو خضعوا لحكم دولة الإسلام إذا لم يدخلوا فيه ودفعوا الجزية لتركهم المسلمون ورجعوا عنهم وكان لهم حق الحماية من قِبَل المسلمين مقابل مايأخذون منهم من الجزية.

قال : فتكلم يزدجرد ، فقال : إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددًا ، ولا أسوء ذات بَيْن منكم ، قد كنا نوكِّل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم، لاتغزون فارس ، ولاتطمعون أن تقوموا

لهم، فإن كان عددٌ لَحِقَ [1] فلا يغرنكم منا ، وإن كـان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتًا إلى خصبكم ، وأكـرمنا وجوهكم وكسوناكم وملَّكنا عليكم ملكا يرفق بكم .

هذا وإن كـلام ملك الفرس هذا يدل على أنه لم يفـهم الأهداف العالية التي جمعت العرب ومن أسلم معهم ووحدت قلوبهم وحولَّتهم من قبـائل متفـرقة متناحـرة إلى دولة واحدة ، وقوة عظمى ، فـهو لايزال يذكـر واقعهم الأول قـبل الإسلام ، ثم يـحاول أن يساومـهم بإغرائهم بالمال ليندفعوا عن بلاده .

وهكذا شأن زعماء الجاهلية دائمًا في معاملتهم مع المسلمين ، إن أحسُّـوا ضعفـا فيهم هـجموا عليـهم بشراسة وعنـف واتخذوهم لهم عبيدا، وإن آنسوا منهم قوة وتماسكا حاولوا مساومتهم وإغراءهم حتى يتمكنوا منهم بعد ذلك بالمكر والخديعة .

وحينمـا يستطيع المسلمون عـرض أهدافهم بتجرد وحكمـة وقوة فإنهم يتـمكنون من نشر دعـوة الإسلام في الأرض ، وتتـحول الأمم القويـة التي كانت تحـارب الإسلام إلى الانضـمام مع أمـة الإسلام ، فتكون قوتها قوة للمسلمين .

قـال : فـأُسكت القـوم ، فـقـام المغـيـرة بن زرارة بن النبـاش الأُسَيِّدي، فقال : أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشرافَ الأشرافُ ، ويعظم حـقوق الأشـراف الأشراف ، ويفـخِّم الأشرافَ الأشـرافُ ، وليس كلُّ ما أُرسِلوا به جـمعوه لك ، ولا كلُّ مـاتكلمتَ به أجابوك

---

(1) أي كثر عددكم .

عليه، وقد أحسنوا ولايَحسُن بمثلهم إلا ذلك ، فجاوبني لأكون الذي أبلغك ، ويشهدون على ذلك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما ، فأما ماذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوء حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ، ولانلبس إلا ماغزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا .

فكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت لك ، فبعث الله إلينا رجلا معروفا ، نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا ، في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد قبل تِرْبٍ كان له وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئًا إلا كان ، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا: إن ربكم يقول: إني أنا الله وحدي لاشريك لي ، كنت إذ لم يكنْ شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء وإليَّ يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ، ولأُحلَّكم داري دار السلام ، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال: من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ماعليكم ، ومن أبى فاعرضوا

عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعـون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فأنـا الحكم بينكم ، فمن قُـتل منكم أدخلتـه جنتي ، ومن بقي منكم أعقـبته النصر على من نـاوأه ، فاختر إن شـئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تُسلم فتنجي نفسك.

وهذه الإجابة من المغيرة بن زرارة الأسيدي تدل على سرعة بديهته ومقـدرته الفـائقة على الإحـاطة بأطراف القضـية ، والوعي الشـامل لمتطلبات الدعوة الإسلامية .

وإن صدور هذا الكلام البليغ من رجل لم تكن له شـهرة تاريخية لَيدلنا على تعدد الكفاءات عند المسلمين .

وفي هذه الإجابـة بيان مفـيد لمعـالم الجاهليـة من رجل عاشـها وخَبَرها قـبل الإسلام ، ثم خَبَر الإسلام بعد ذلك ، ولهـذا كان بيانه كاشفا لظلمات الجاهلية ، ومُبْرزاً لأنوار الإسلام .

وفي بيان منهج الدعـوة بالنسبة لغير المسلمين أفـاد بأن الله تعالى أمر المسلمين بدعـوة الكفار أولاً إلى الدخول في الإسلام فـإن أجابوا أصبـحوا إخـوة للمسلمين لهم مـالهم وعليهم ما عـليهم ، وإن أبوا وأصـروا على البقـاء على دينهم فلهم أن يمارسـوا دينهم في حيـاتهم الشخصية، ومن حقهم أن تحـميهم دولة الإسلام كما تحمي أبناءها في مقابل دفع الجـزية ، مع ضرورة الاستسـلام والشعور بالتبـعية ، وأن يكون الحكم في الأرض للإسلام ، فإن أبوا وأصروا على بقاء دولتهم وحكمهم ولم يستسلموا للمسلـمين فلابد من قتالهم حتى تكون كلمة الله هي العليا ، فمن قُتِل من المسلمين فهو شـهيد مصيره إلى الجنة ، ومن بقي أعقبه الله النصر على من عاداه .

وإن هذا البيـان لايترك مجالا للتـفكير في مسـاومة المسلمين في التخلي عن مطالبهم ، كما أنه يَـهُزّ من موقف العدو ويجعله في قلق دائم، ويقين راسخ بأن المسلمين إمـا أن يصلوا إلى أهدافـهم أو يموتوا دونها، وإن قـوما قـد وصلوا إلى هذا المستـوى من الإيمان لايمكن أن يقف أمامهم شيء .

ولقد أدرك كسرى من هذه المحاورة أن موقف الفرس مع المسلمين عصيب ، وأن لهم أهدافًا لابد أن يبلغوها كـما سيتبين في حواره مع رستم، ولكنه أراد أن يستعمل مع المسلمين أنواعًـا من الحروب النفسية التي تعتـمد على الكذب والتهويل والكبـرياء فقال للمغـيرة بن زرارة الذي تولى محاورته « أتستقبلني بمثل هذا ؟

فقـال : ما اسـتقـبلت إلا من كلمني ، ولو كلمني غـيرك ، لم أستقبلك به .

فـقال : لولا أن الرسل لاتقـتل لقـتلتكم ، لاشيء لكم عندي، وقال: ائتوني بوقر من تراب ، فقال: احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حـتى يخرج من باب المدائن ، ارجعوا إلى صاحـبكم فأعلموه أني مرسل إليـكم رستم حتى يدفنـكم ويدفنه في خندق القادسـية ، وينكِّل بكم وبه من بعد ، ثم أُورده بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور » .

ولئن كان هذا التـهديد يجدي ويغني من ساسـة العالم آنذاك فلن يزيد المسلمين إلا ثقة بنصـر الله تعالى وقوة على أعدائهـم ، كما لم يزدهم الترغيب السابق إلا رسوخا في التمسك بأهدافهم النبيلة .

ثم قال كسرى : من أشرفكم ؟ فـسكت القوم ، فقال عاصم بن

عـمرو: أنا أشـرفهم أنا سـيد هـؤلاء فحـمِّلنيه ، فـقال : أكـذاك ؟ قالوا: نعم.

وإنما كان سكوت القوم من باب الورع وكـراهية الترفع ، ولكن عاصـما غلَّب جانـب اقتداء الإخـوة بالنفس ليحمـل التراب عنهم ، وكـونه ينسب الشرف لنـفسـه ليس مقـصوداً لـذاته كمـا يعلم بذلك أصحـابه، وبهذا يكون قـد سبق أصـحابه في الخروج مـن التردد بين كراهية نسبة الشرف إلى النفس ومحبة خدمة الإخوة .

فحَمل التراب على عنقه حتى أتى راحلته فحمله عليها ولما وصل القادسية قال : بشروا الأميـر بالظفر ، وتفاءل بأن المسلمين سيملكون أرض الفرس ، ولما دخل على سـعد فأخبـره الخبر قال: أبشـروا فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم .

وهكذا نجد أن الله سبـحانه مع أوليائه المؤمنين فَيُـقَدِّر لهم مايزيد في قـوتهم ويوهن أعـداءهم ، فقـد فـرح المسلمـون بهـذه البشـرى وجعلوها علامة على الفتح .

أما الـفرس فـقد جـاء في هذه الرواية أنه اشتـد عليهم مـاصنع المسلمون، وصنع الملك من قبول التراب ، وراح رستم من ساباط إلى الملك يسأله عما كان من أمـره وأمرهم ، وكيف رآهم ، فقال الملك: ماكنت أرى أن في العـرب مثل رجال رأيتـهم دخلوا علي ، وما أنتم بأعـقل منهم ، ولا أحسن جـوابا منهم ،وأخبـره بكلام متكلمـهم ، وقال: لقـد صدقني القوم ، لقد وُعِـد القوم أمرًا ليدركنّه أو ليـموتُنّ دونه ، على أني وجدت أفضلهم أحمقـهم، لما ذكروا الجزية أعطيتهم ترابا فـحمله على رأسـه وخرج به ، ولو شـاء اتقى بغيـره . وأنا لا

أعلم. قال : أيها الملك إنه لأعـقلهم، وتطيَّر إلى ذلك وأبصرها دون أصحابه .

وخرج رستم من عنده كئيبًا غضبان - وكان منجما كاهنا - فبعث في أثر الوفد ، وقـال لثقته : إن أدركهم الرسـول تلافينا أرضنا، وإن اعـجزوه سلبكم الله أرضكـم وأبناءكم ، فرجع الرسـول من الحيـرة بفواتهم، فقال: ذهب القوم بأرضكم غـير ذي شك ، ماكان من شأن ابن الحجامة الملك، ذهب القوم بمفاتيح أرضنا ، فكان ذلك ممَّا زاد الله به فارس غيظًا (١).

ومن هذا الحوار بين كـسرى ورستم يتبين لنا أن كـسرى قد أدرك عظمة المـسلمين، ولكنه غلب عليه الكبـر والاعتـزاز بالملك فتـصرف بحـماقـة حيـث حمَّلهم التـراب ، وتشـاءم من ذلك رستم، وكـان سلوكهم في السلم والحرب يقوم على الطِّيَرة كما كان يفعل ذلك أهل الجاهلية في بلاد العرب .

أما المسلمون فإنهم تفاءلوا بذلك خيرًا وفهموا منه البشارة بامتلاك أرض الفـرس ، وهكذا علَّمـهم النبي ﷺ فقـد كـان يتفـاءل بالاسم الحسن ونحو ذلك ممـا يبعث الفرحة والسرور ، ويبـشر المسلمين على إثر ذلك ، لكنه لم يكن يتـشـاءم . ولم يَبْنِ أي سلوك في حيـاته أو حياة أصحابه على الطِّيرة ، بل اعتـبر ذلك شركا كما جاء في قوله « من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك » (٢).

وهكذا رأينا أن التـوحيـد أعطى المسلمين الثقـة واليقـين والإقدام

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٨ - ٥٠٢ .

(٢) مسند أحمد ٢/ ٢٢٠ .

بحكمة من غير نظر إلى العوائق المتخيلة في الأذهان، بينما أوقع الشرك أصحابه بالحيرة والتردد ، وتصوُّر العوائق التي لاوجود لها في الواقع.

ومن هنا نعلم الأثر العظيم للتوحيد في نصر المسلمين ، والأثر البالغ للشرك في خذلان المشركين.

حوار بين ملك الفرس وقائده :

ولقد كان مما صنع الله تعالى للمسلمين ووهن به كيد اعدائهم أن خلافًا حادًّا نشأ بين ملك الفرس « يزدجرد» وكبير قادتهم«رستم» حول التخطيط للحرب ، حيث أصرَّ ملك الفرس على أن يتولى رستم قيادة الجيش ، وحاول رستم بكل وسيلة أن يقنع الملك برأيه في إرسال قائد آخر، وكان مما قال له رستم : أيها الملك دعني فإن العرب لاتزال تهاب العجم مالم تُضَرِّهم بي ، ولعل الدولة أن تثبت بي فيكون الله قد كفى، ونكون قد أصبنا المكيدة ورأي الحرب ، فإن الرأي فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر ، فأبى عليه ، وقال : أي شيء بقي ؟ فقال رستم : إن الأناة في الحرب خير من العجلة ، وللأناة اليوم موضع ، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة ، وأشد على عدونا ، فلجَّ وأبى ، فخرج [رستم] حتى عسكر بساباط[1] .

وإن هذه المحاورة في محاورات أخرى تدل على أن رستم كان كارها لهذه الحرب متشائمًا منها ، وكان يتوقع أن تكون نتيجتها لصالح المسلمين ومما قال رستم في ذلك : أيها الملك لقد اضطرني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها ، ولو أجد من ذلك بُدًّا لم

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٤ .

أتكلم به ، فـأنـشـدك الله في نفـسك وأهلك وملـكك ، دعني أُقِمْ بعـسكري وأسرِّح الجـالنوس، فإن تـكن لنا فذلك ، وإلا فـأنا على رجْل وأبعث غـيره ، حتى إذا لـم نجد بُدًّا ولاحيـلة صبرنا لـهم وقد وَهَنَّاهم وحسَّرناهم ونحن جامُّون، فأبى إلا أن يسير .

وقال له أيضًـا : إن غناء الجالنوس كـغنائي وإن كان اسـمي أشد عليهم من اسمه فإن ظفـر فهو الذي نريد ، وإن تكن الأخرى وجهت مثله ودفـعنا هؤلاء القوم إلى يوم مـا ، فإني لا أزال مـرجوًا في أهل فارس ، مـالم أُهزَم ينشطون ، ولاأزال مـهيـبًا في صدور الـعرب ، ولايزالون يهابون الإقدام ما لم أباشرهم ، فـإن باشرتهم اجترؤوا آخر دهرهم ، وانكسر أهل فارس آخر دهرهم [1] .

رُؤَى مزعجة لرستم :

ومن هذا الحوار يتبين لنا أن رستم كان كارها لهذه الحرب متشائمًا منها، وكـان يتوقع أن تكون نتـيجتهـا لصالح المسلمين ضـد الفرس، ولقد خرج إليها مكرها ضعيف النفس ، وزاده وهنا على وهن الرُّؤَى المفزعة التي يراها ، ويراها له منجمه ، وكان كلما رأى شيئًا من ذلك طلب الإعفاء من القيادة ، ولكن كسرى يصر على توليته ذلك .

فمن هذه الرؤى ماذكره الإمام الطبري عن سعيد بن المرزبان قال: فلما أصبحـوا من ليلتهم بشاطئ العتيق غـدا منجم رستم على رستم برؤيا أُرِيها من الليل ، قال : رأيت الدلو في السماء دلوًا أُفرغ ماؤه ، ورأيت السـمكة سـمكة في ضـحـضـاح من الماء تضطرب ، ورأيت

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٤ - ٥٠٥ .

النعـائم والزهرة تزدهر ، قـال : ويحك هل أخـبـرت بها أحـدا ؟ قال : لا ، قال : فاكتمها[1] .

وقد تـطير رسـتم من هذه الرؤيا ، وكانوا كـما أسلفنا من قـبل يتشاءمون ويبنون سلوكهم في الإقدام والإحجام على هذا التشاؤم .

وذكر الطبـري أيضًا عن الشعبـي قال : كان رستم منجِّـما فكان يبكي مما يرى ويُقدم عليه ، فلما كـان بظهر الكوفة رأى أن عمر دخل عسكر فارس ، ومعه مَلَك فختم عـلى سلاحهم ثم حزمه ودفعه إلى عمر[2] .

وهكذا تظافـرت الرُّءَى الصادقـة كهـذه الرؤيا مع الخرافـات التي لاأثر لها في الواقع ولكنهم كـانوا يعتقدون بها . تظـافرت كلها على التهويل من شأن المسلمين وترسيخ عظمـتهم في نفس رستم حتى غدا متـحيـرًا مضطربًا يود أن لو خـرج من هذه المهمـة بأي ثمن ، فكان الإصرار على بعثه قائدًا خطأ حربي فادح من ملك الفرس .

ومن أثر هذه الرُّؤَى والاعتماد على التنجـيم فإن رستم كان موقنا بأن نتيـجة الحرب القـادمة ستكون لصـالح المسلمين ، ومما يدل على ذلك أنه كـتب إلى أخيـه وإلى رؤوس أهل بلادهـم : من رسـتم إلى البندوان مـرزبان الباب وسهم أهـل فارس الذي كان لكل كَـوْن يكون فيفضُّ الله به كل جند عظيم شـديد ويفتح به كل حصن حصين ومن يليه ، فَرُمُّوا حصونكم وأعدوا واستعدوا ، فكأنكم بالعرب قد وردوا

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٦ .

بلادكم وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم ، وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوسًا ، فأبى الملك [1] .

وهذا يعتبر نوعا من الحرب النفسية قدرها الله تعالى لتكون لصالح المسلمين .

حوار بين رستم وأحد المجاهدين :

ولقد نهض رستم بعد أن أعيته الحيل في دفع القيادة عنه فسار بجيشه نحو القادسية .

أخرج الإمام ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن ابن الرُّفَيل الفارسي قال: لما فصل رستم وأمر الجالنوس بالتقدم إلى الحيرة أمره أن يصيب رجلا من العرب ، فخرج هو والآزادمرد سَرِيَّةً في مائة حتى انتهيا إلى القادسية ، فأصابا رجلا دون قنطرة القادسية فاختطفاه ، فنفر الناس فأعجزوهم إلا ما أصاب المسلمون في أخرياتهم، فلما انتهيا إلى النجف سرَّحا به إلى رستم وهو بِكُوثَى ،فقال له رستم : ماجاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ قال : نطلب موعود الله ، قال : وماهو؟ قال : أرضكم وابناؤكم ودماؤكم إن أبيتم أن تسلموا ، قال رستم : فإن قُتلتم قبل ذلك ؟

قال : في موعود الله أن من قُتل منا قبل ذلك أدخله الجنة ، وأنجز لمن بقي منا ماقلت لك ، فنحن على يقين ، فقال رستم: قد وُضعنا إذًا في أيديكم ، قال : ويحك يارستم إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها، فلا يغرنك ماترى حولك فإنك لست تجاول

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٥ - ٥٠٦ .

الإنس، إنما تحاول القضاء والقدر ، فاستشاط غضبا فأمر به فضُرِبَتْ عنقه[1] .

وهكذا استطاع هذا المجاهد المسلم أن يرمي بقنبلة بعيدة المدى في وسط جيش الفرس ، فلقد حطم أعصاب أكبر قادتهم حتى أخرجه عن طوره، وأغضبه غضبًا شديدًا حتى أمر بقتله وهو الذي اشتهر بالحلم والحكمة.

لقد وُفِّق هذا المجاهد في بيانه الرائع إلى أن يضع جيش الفرس - وخاصة قائدهم - في حيرة مطبقة ، وشعور ضاغط بأن المسلمين سيقضون عليهم لامحالة ، وذلك بإشعارهم أولاً بأن المسلمين مقدمون على قتالهم حتى الموت ليقينهم بأن من مات فمآله إلى الجنة ولابد أن يتحقق النصر على يد من بقي لأن الله تعالى قد وعدهم بذلك ، ثم بإشعارهم ثانيًا بأنهم لا يقاتلون المسلمين في واقع الأمر ، وإنما يقاتلون الله تعالى ، لأن المسلمين ليسوا إلا جنود الله سبحانه ينفذون أوامره، ومن دخل مع الله جل وعلا في صراع فإنه مغلوب لامحالة، ولذلك اعترف له رستم بحتْميَّة كون نتيجة المعركة لصالح المسلمين ماداموا بهذا الإيمان القوي حيث قال : قد وُضعنا إذًا في أيديكم .

وإن هذا المجاهد الذي لم يُعرف اسمه ليعتبر مثالا عاليًا للشجاعة النادرة والفدائية العالية ، فهو يخاطب رستم بهذا المنطق القوي ويتهجم على تقاليد الفرس البالية ويُظهر عزة الإسلام ، مع أنه كان عاريًا من الحصانة التي يتمتع بها الوفود المبعوثون من قادتهم حيث قد تعارفت الدول على أن الرسل لاتقتل ، وهذا المجاهد قد أُخِذ أسيرًا

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٧ .

بالقوة فهو تحت تصرف أعدائه ، كمـا أن هذا المجاهد يعتبر مثالا لقوة الإيمان والثقة العالية بنصر الله تعالى لأوليائه .

وإن جيلاً هذا الرجل أحد أفراده العاديين الذين لم يرتفع لهم ذكر ولاشهرة لهو جيل فريد في الفضائل والسمو نحو المعالي .

لقد قـتله رستم وهو يعـترف بأنه قـد مثَّل أمة بلغـت الكمال في مجال الأخلاق، ولقد ظل رنين كلام ذلك المجاهد في سمعه ووقر في قلبه حتى اسـتشهَد بكلامه وضرب المثل بأمة الإسـلام وهو يلوم قومه على الظلم والفجور .

قال الرُّفَيل في رواية ابن جرير السـابقة « وخرج رستم من كُوثَي حتى ينزل بِبُـرس فغصبَ أصحـابه الناس أموالهم ووقعـوا في النساء وشربوا الخَـمور ، فضج العلوج إلى رسـتم وشكوا إليه مـايلقون في أموالهم وأبنائهم ، فـقام فيـهم فقال: يامـعشر أهل فـارس والله لقد صدق العربي، والله ما أسلمنا إلا أعمالُنا ، والله للعرب في هؤلاء - وهم لهم ولنا حرب - أحسن سيرة منكم ، إن الله كان ينصركم على العدو ويمكِّن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء بالعهود والإحسان، فأما إذ تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال فلا أرى الله إلا مـغـيِّـرًا مـابكم ، ومـا أنا بآمن أن ينزع الله سلطانـه منكم . وبعث الرجال فلقطوا له بعض من يُشكى فأُتِيَ بنفر فضرب أعناقهم [1] .

وهكذا تنبه رستم لبعض أسباب النَصر المعنوية القائمة على مكارم الأخـلاق لما أحـيط به وأدرك الخطر ، وكـان لقـاؤه بـبـعض المسلمين

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٨ .

وسماعه أخبارهم مما أيقظ مشاعره نحو ذلك ، حيث أدرك أن السبب الرئيس لانتصار المسلمين مع قلة عددهم وضعف عدتهم أنهم اتصفوا بالعدل والعفة والوفاء حتى مع أعدائهم ، فلقد شهد لهم أنهم خير لشعوب دولة الفرس من الفرس أنفسهم مع أنهم أعداء لهم محاربون، والحق ماشهدت به الأعداء ، ولايستطيع هو ولاغيره أن يقول غير ذلك لأن التاريخ لم يسجل على المسلمين في فتوحهم الأولى أي مخالفة في انتهاك الأعراض أو نهب أموال الآمنين .

تقارب بين الجيشين :

سار رستم ببطء شديد نحو القادسية ، جاء في رواية ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا : ولما اطمأن رستم أمر الجالنوس أن يسير من النجف ، فسار في المقدمات فنزل فيما بين النجف والسَّيلحَيْن ، وارتحل رستم فنزل النجف ،وكان بين خروج رستم من المدائن وعَسْكَرته بساباط وزحفه منها إلى أن لقي سعدا أربعة أشهر، لايُقْدم ولايقاتل رجاء أن يضجروا بمكانهم ، وأن يجهدوا فينصرفوا، وكره قتالهم مخافة أن يلقى ما لقي من قبله ، وطاولهم لولا ماجعل الملك يستعجله وينهضه ويقدمه حتى أقحمه .

ولقد كان عمر رضي الله عنه مدركا لسياسة الفرس الحربية ولما يَصلح من الخطط لحسم القتال معهم فرسم لسعد خطة بعيدة المدى، تعتمد على الصبر والمطاولة .

جاء في الرواية السابقة : وعرف عمر أن القوم سيطاولونهم فعهد إلى سعد وإلى المسلمين أن ينزلوا حدود أرضهم ، وأن يطاولوهم أبدًا

حتي ينغضوهم ، فنزلوا القادسية وقد وطنوا أنفسهم على الصبر والمطاولة ، وأبى الله إلا أن يتم نوره ، فأقاموا واطمأنوا وكانوا يغيرون على السواد فانتسفوا ماحولهم فحووه وأعدّوا للمطاولة ، وعلى ذلك جاؤوا ، أو يفتح الله عليهم ، وكان عمر يمدهم بالأسواق إلى ما يصيبون - يعني من اعدائهم - فلما رأى ذلك الملك ورستم وعرفوا حالهم، وبلغهم عنهم فعلهم علم أن القوم غير منتهين ، وأنه إن أقام لم يتركوه فرأى أن يشخص رستم ، ورأى رستم أن ينزل بين العتيق والنجف ثم يطاولهم مع المنازلة، ورأى أن ذلك أمثل ماهم فاعلون حتى يصيبوا من الإحجام حاجتهم أو تدور لهم سعود [1] .

ولقد كان سعد رضي الله عنه رجل الموقف في رزانته واتزانه وصبره وبُعْد سياسته وصونه سره عمن لايفقه أمور الحرب ، جاء في رواية للإمام الطبري بإسناده عن موسى بن طريف قال : قال الناس لسعد : لقد ضاق بنا المكان فأقْدم ، فزَبر من كلمه بذلك وقال: إذا كُفيتم الرأي فلا تكلَّفوا فإنا لن نقدم إلا على رأي ذوي الرأي : فاسكتوا ماسكتنا عنكم[2].

وهذا موقف يدل على فقه بأمور الحرب حيث إن منها ما لاينبغي أن يطلع عليه إلا الخاصة من ذوي الرأي ، إذ أنه لو أعطاه كل ماعنده لربما فشى ذلك في الجند ، وقد يستطيع العدو بعد ذلك الاطلاع على أسرار الجيش الإسلامي لأن قدرات الناس على صون الأسرار تختلف .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٠ .

مغامرة من طليحة :

هذا وقد أرسل سعد الطلائع لمعرفة تحركات العدو وهو يظن أن رستم لايزال في النجف فأرسل عمرو بن معد يكرب في خمسة وطليحة ابن خويلد الأسدي في خمسة ، فلم يسيروا إلا فرسخا وبعض آخر حتى رأوا مقدمات جيش رستم فاتفقوا على العودة وإبلاغ سعد بذلك ماعدا طليحة فإنه أصر على أن يذهب إلى جيش الفرس وحده .

جاء في رواية أبي عثمان النهدي عند الطبري قال بعد أن ساق الخبر: فأتوا سعدا فأخبروه بقرب القوم ، ومضى طليحة وعارض المياه على الطفوف - يعني الأراضي المشرفة على الريف - حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسم ، فلما أدبر الليل خرج وقد أتى أفضل من توسم في ناحية العسكر ، فإذا فرس لم ير في خيل القوم مثله، وفسطاط أبيض لم ير مثله ، فانتضى سيفه فقطع مقود الفرس ، ثم ضمه إلى مقود فرسه ، ثم حرك فرسه فخرج يعدو به ، ونذر به الناس والرَّجْل - يعني المشاة - فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول وعجل بعضهم أن يسرج، فخرجوا في طلبه ولقد لحقه فارس من الجند ، فلما غشيه وبَوَّأ له الرمح ليطعنه عدل طليحة فرسه فندر الفارسي بين يديه فكرَّ عليه طليحة فقصم ظهره بالرمح ، ثم لحق به آخر ففعل به مثل ذلك ، ثم لحق به آخر وقد رأى مصرع صاحبيه - وهما ابنا عمه - فازداد حنقًا ، فلما لحق بطليحة وبوَّأ له الرمح عدل طليحة فرسه فندر الفارسي أمامه، وكرَّ عليه طليحة ودعاه إلى الإسار، فعرف الفارسي أنه قاتله فاستأسر، وأمره طليحة أن يركض

بين يديه ، ففعل ، ولحق الناس فرأوا فارسي الجند قد قتلا وقد أسر الثالث وقد شارف طليحة عسكرهم فأحجموا عنه ونكسوا .

وأقبل طليحة حتى غشيَ العسكر وهم على تعبية ، فأفزِع الناس، وجوزوه إلى سعد ، فلما انتهى إليه قال: ويحك ماوراءك؟ قال: دخلت عساكرهم وجُسْتها منذ الليلة ، وقد أخذت أفضلهم توسُّمًا ، وما أدري أصبت أم أخطأت ، وهاهو ذا فاستخبره ، فأقيم الترجمان بين سعد وبين الفارسي ، فقال له الفارسي : أتؤمِّنني على دمي إن صدقتك؟ قال: نَعَمْ الصدق في الحرب أحب إلينا من الكذب ، قال: أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمَّن قِبَلي ، باشرت الحروب وغشيتها وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ماترى ، ولم أَرَ ولم أسمع بمثل هذا ، أن رجلا قطع عسكرين لايجترىء عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ماهو دون ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته ، فأنذره وأنذرنا به فطلبناه فأدركه الأول وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله ، فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله ، ثم ادركته ولا أظن أنني خلفت بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين وهما ابنا عمي فرأيت الموت فاستأسرت .

ثم أخبره عن أهل فارس بأن الجند عشرون ومائة ألف وأن الأتباع مثلهم خُدَّام لهم ، وأسلم الرجل وسماه سعد مسلما ، وعاد إلى طليحة، وقال : لا والله لاتُهزَمون مادمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح والمواساة ، لاحاجة لي في صحبة فارس فكان من أهل البلاء يومئذ (١) .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥١٣ - ٥١٤ .

وبعد : فقد رأينا نموذجًا لما كان عليه أبطال المسلمين من البسالة والإقدام ، وتقديم مصلحة المسلمين العامة على المصالح الخاصة، فقد كان طليحة بن خويلد الأسدي نموذجًا للشجاعة الفائقة والجسارة العظيمة، وقد وصف ذلك الأسير الفارسي شجاعته بما لامزيد عليه، ولا أعظم من اعتراف أهل الاختصاص بتفوق أقرانهم ، وإذا كان أولئك الفرسان الذين تغلَّب عليهم طليحة كلٌّ واحد منهم يعدل ألفًا فكم يعدل طليحة من الفرسان !!

وبالرغم من أن ما قام به طليحة من تلك المغامرة كان خلاف ما أُمِرَ به فإن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لم يحاسبه على ذلك التجاوز، نظرًا للنتيجة الكبيرة التي أفادها لصالح جيش المسلمين من أسْر ذلك الفارسي والإفادة منه عن جيش الفرس ، إلى جانب ماتم من إسلام ذلك الفارسي وهو مطلب كبير عند المسلمين ، مع اعتبار أن طليحة قد تصرف في أمر سعد باجتهاده لتحقيق مصلحة الجيش الإسلامي ولم يتصرف اتباعًا لهواه ومصلحته .

وكون سعد لم يحاسب طليحة على تجاوزه دليل على مرونة قادة المسلمين في تطبيق الأنظمة الحربية ، فالعبرة عندهم ليست في كون الجندي يخالف أمر القائد فحسب ، وإنما هي بالدرجة الأولى في تحقيق مصلحة الجيش الإسلامي أو الإخلال بذلك ، وكون طليحة حقق هذه المصلحة أعظم من أن يحاسَب على مخالفته .

ولاشك في أن ما قام به طليحة من تلك المغامرة العالية والبطولة النادرة كان مُقدِّمةً لإسلام ذلك الرجل الفارسي، إذ أن هذا العمل لايمكن أن يصدر من غير المسلمين مهما بلغوا من الشجاعة والإقدام

فإن الاحتمال الغالب في مثل تلك الحال أن يُرَوِّي ذلك البطل المغامر ثَرَى تلك البطاح التي غامر فيها بدمه ، ولن يُقدم على ذلك من كان في قلبه شيء من إرادة الدنيا .

بقي أن يقال إن هناك احتمال أن يؤسر ذلك المغامر فيضطر إلى الإدلاء بمعلومات عن جيشه فيضر جيشه بذلك ، ولكن هذا الاحتمال غير متوقع ، لأن أسر أبطال المسلمين بعيد المنال ، فإن البطل المسلم سيظل يقاوم ما بقيت روحه بين جنبيه ، ولن يُسْلم نفسه لأعدائه، وإنما المحتمل هو أحد أمرين : أن يتمكن الأعداء من قتله وهذا نجاح كبير له لأنه قد فاز بالشهادة في سبيل الله تعالى ، أو أن ينجو فيظفر بمعلومات جديدة يتحف بها قادة جيشه ، وهذا التردد بين الاحتمالين لايوجد عند غير المسلمين ، فلذلك لاتوجد عندهم مثل هذه المغامرة المذهلة .

أقول : إن ما قام به طليحة من ذلك العمل البطولي المدهش كان مقدمة لإسلام ذلك الرجل الفارسي ، لأنه وهو فارس قوي يعدل ألف فارس سيكون أعلى شيء عنده في الحياة أن يرى مظاهر البطولة النادرة، وسيكون فكره مركزًا حول هذا المجال ، فلما رأى من ذلك ما أذهله وجعله يحتقر نفسه وأبطال قومه عند بطولة طليحة زال ما في فكره من نخوة الجاهلية المتركزة بعظمة الفرس وبطولتهم ، ورأى أنه قد تحوَّل إلى تلميذ في مدرسة البطولة الحقة ، فهيمن عليه الإعجاب ببطولة المسلمين، وقاده ذلك إلى التعرف على أخلاقهم العالية ، من الصدق والأمانة والوفاء والتواضع والتسامح . . فأعلن إسلامه .

لقد انتقل ذلك المسلم الفارسي من عالم الأنانية والتفاخر بالجاه

والمال والطبقيـة القاتلة إلى عالم الإيثار والتواضع والمواسـاة والرحمة، فأحسَّ بالفارق الكبير بين العالَـمَين ، وآثر تبعية عالَم مكارم الأخلاق لأنه وجد فيه نفسه الحقيقية التي فقدها طول عمره بخضوعه لضلالات قومه.

حوار رستم مع زُهرة :

كان رسـتم حريصا على معـرفة المزيد من أخبـار المسلمين ومدى قوتهم، فرغب في اللقاء مع أحد قادتهم ، فكان لقاؤه الأول مع قائد مقدمة جيش المسلمين زهرة بن الحَوِيَّة.

يقول الإمام ابن جرير فيـما يرويه بإسناده عن ابن الرُّفَيل عن أبيه قال: لما نزل رسـتم على العتيق وبـات به أصبح غاديا على التـصفح والحزْر[1] فـساير العـتيق نـحو خَـفَّان حـتى أتى على منقطع عـسكر المسلمين، ثم صعـد حتى انتهى إلى القنطرة ، فتـأمل القوم حتى أتى على شيء يشرف منه عليهم .

فلما وقف على القنطرة راسل زهـرة ، فخرج إليه حتـى واقفه ، فأراده أن يصالحـهم ويجعل له جُعْلاً على أن ينصـرفوا عنه ، وجعل يقول فيما يقول : أنتم جـيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا ، فكنا نحسن جوارهم ، ونكف الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة، نحفظهم في أهل باديتهم ، فنرعيهم مراعينا ، ونميرهم من بلادنا ولا نمنعـهم مـن التـجـارة في شيء من أرضنا وقـد كـان لهم في ذلك معاش-يعـرض لهم بالصلح ، وإنما يخبره بصنيـعهم ، والصلحَ يريد ولايصرح- .

---

(١) يعني أراد تأمل جيش المسلمين وتقدير عددهم .

فقـال له زهرة : صدقت ، قـد كان مـاتذكر ، وليس أمـرنا أمر أولئك ولاطَلَبَـتنا ، إنا لم نأتـكم لطلب الدنيـا ، إنما طَلِبـتنا وهمـتنا الآخـرة ، كَنا كمـا ذكـرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضـرع إليكم يطلب مـافي أيديكم ، ثم بعث الله تبارك وتعـالى إلينا رسولاً فدعانا إلى ربه فـأجبناه ، فقال لنبيه صـلى الله عليه وسلم ، إني قد سلطت هذه الطائفـة على من لم يَدِنْ بديني فأنا منتـقم بهم منهم ، وأجْعلُ لهم الغلبة ماداموا مُقرِّين به، وهو دين الحق لايرغب عنه أحد إلا ذل ، ولايعتصم به أحد إلا عز .

فقـال له رستم : وماهو ؟ قـال : أما عمـوده الذي لايصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن مـحمداً رسول الله والإقرار بماجاء من عند الله تعالى ، قال : ما أحسن هذا ! وأي شيء أيضًا ؟ قال : وإخراج العـباد من عبادة العـباد إلى عبادة الله تـعالى ، قال : حسن ، وأي شيء أيضًـا ؟ قال : والناس بنو آدم وحـواء إخوة لأب وأم ، قال : ما أحسن هذا !

ثم قال له رستم : أرأيت لو أن رضيت بهـذا الأمر وأجبتكم إليه ومعي قـومي كيف يكون أمـركم ؟ أترجعـون ؟ قال : إي والله ثم لانقرب بلادكم أبدًا إلا في تجارة أو حاجـة ، قال : صدقتني والله ، أُما إن أهل فارس منـذ وَلِي أردشير لم يَدَعُوا أحدًا يخـرج من عمله من السِّفلة ، كانوا يقولون : إذا خرجوا من أعمالهم تعدَّوا طورهم ، وعادَوا أشرافهم، فقال له زهرة : نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كمـا تقولون، نطيع الله في السفلة ولايضـرنا من عصى الله فينا .

فانصرف عنه ، ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فحَمُوا من ذلك وأنفوا ، فقال : أبعدكم الله وأسحقكم ، أخزى الله أخرعنا وأجبننا .

يقول الرُّفَيل راوي هذا الخبر وهو رجل فارسي : فلما انصرف رستم ملْتُ إلى زهرة فكان إسلامي ، وكنت له عديدًا وفرض لي فرائض أهل القادسية (١) .

وهكذا رأينا في هذه المحاورة المثيرة كيف علا نجم المسلمين وأفل نجم المجوس ، وساد منطق العدالة والعقل السليم والتواضع والقيم العليا، وخفَتَ منطق الجور والعقل المريض والكبرياء والقيم الهابطة .

ولقد كان رستم مُهيَّأً نفسيا لقبول نداء العقل السليم والسمو نحو القيم العليا ، فلما سمع كلام زهرة بن الحوية المُشرق وقر في نفسه حب الإسلام الذي سيحفظ له كرامته وكرامة أمته ،والذي سيسمو بعقول المستضعفين وهم أغلبية الأمة فيحيلهم إلى عناصر فعالة مؤثرة وسيهذِّب من نفوس علِيَة القوم فينزلهم من علياء الجبروت والطغيان ليكونوا في مستوى بشريتهم ، وهنا يكون البروز لأصحاب المواهب العالية الذين ستضع بهم أمتهم ثقتها وستسند إليهم أمورها .

لقد بين زُهرة لرستم أن أهداف العرب قد تغيرت بعد الإسلام ، فيجب أن ينظر إليهم العالم على أنهم مسلمون لا على أنهم العرب الذين كانوا يعاملونهم قبل ذلك ، وقد لخص الدوافع إلى تغيير الأهداف والمناهج ببيان أن مقصد العرب قبل الإسلام الحصول على الدنيا وأن مقصدهم بعد الإسلام الظفر بنعيم الآخرة ، وحَسْبهم هذا التحول الكبير في مقاصدهم لتتحول حياتهم بأكملها من حياة الخنوع

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٧ - ٥١٨ .

والذل والتفرق والأهداف القريبه والتـخلق بمساويء الأخلاق إلى حياة العز والجماعة والأهداف السامية والتخلق بمكارم الأخلاق .

وكان زهرة في غاية البـراعة والتوفيق حينمـا ذكر لرستم أن الله تعالى قـد سلط المؤمنين بهذا الدين على من كفر به ، وأن الـعِزَّ قرين من آمن به وأن الذل قرين من كفر بـه ، فقد رسخ في نفس رستم أن من سيقاتلهم ليسوا كمن اعتـاد مقابلتهم بل هم موجَّهون من قِبَل الله تعالى ، ومن كانت هذه صفتهم فلا قِبَلَ لأحد بقتالهم .

لقد فـهم رستم هذه المعاني السامـية ، وأدرك أن المسلمين لاطمع عندهم في الاستيلاء على بلادهم لمنافع شخصية ، وإنما همُّهم الوحيد أن يحولوها إلى بلاد إسلامية ، ثم تبـقى بعد ذلك بيد أهلها ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولقد أثر هذا المنطق العادل في نفس رستم، وهمَّ بالدخول في الإسلام وإدخال أمـته فيه لولا أن حال دون ذلك إجماع مستشاريه على عداء الإسلام وقتال المسلمين ، ويبدو أنهم قد اتهموه بالجبن حيث قال لهم : أخزى الله أخرعنا وأجبننا .

وقد استفاد من هذه المحاورة راوي هذه القصة الرُّفيل حيث دخل في الإسـلام وكان له دور مـهم في نقل أخـبـار الفـرس والتعـريف بأحوالهم. أما ما في الخبر من إبراز دعوة التوحيد فسيأتي التعليق على ذلك عند عرض كلام وفود المسلمين إلى رستم إن شاء الله .

حوار رستم مع رِبْعيٍّ بن عامر :

أخرج الإمـام ابن جرير من طريق سـيف بن عمـر عن شيـوخه قالوا: وأرسل سعد إلـى المغيرة بن شعبة وبسر بـن أبي رهم وعرفجة ابن هرثمة وحذيفة بن محصن وربْعيّ بن عامـر وقرفة بن عامر التيمي

ثم الوائلي، ومذعور بن عدي العجلي والمضارب بن يزيد العجلي ، ومعبد بن مرة العجلي - وكان من دهاة العرب - فقال : إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم ؟ قالوا جميعًا : نتبع ما تأمرنا به وننتهي إليه فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعه للناس فكلمناهم به، فقال سعد : هذا فعل الحَزَمَة اذهبوا فتهيئوا .

وهكذا حدَّد أعضاء هذا الوفد مهمتهم بتنفيذ أوامر أميرهم أوَّلاً ثم النظر فيما يجدُّ من أمور لم يسبق فيها أمر من قائد المسلمين بفعل الأفضل والأنفع للمسلمين وهذا يدل على فقههم في تحمل المسئولية وأدائها، وذلك انطلاقا من قاعدة : يرى الشاهد ما لايرى الغائب ، فلابد من التصرف في الأمور التي تجدُّ بالحكمة والمشورة لأن عدم التصرف في الوقت المناسب يؤدي إلى فشل المهمة ، ولذلك قال سعد : هذا فعل الحزَمة .

« فقال ربْعيُّ بن عامر : إن الأعاجم لهم آراء وآداب ، ومتى نأتهم جميعًا يروا أنا قد احتفلنا بهم ، فلا تَزِدْهم على رجل ، فمالَئوه جميعًا على ذلك ، فقال سرِّحوني ، فسرَّحه - يعني أرسله سعد إلى رستم - .

وأمام هذا المقطع من الخبر نجد صورة عالية من الشورى التي خلَت من حظ النفس وتجردت لمصلحة الإسلام والمسلمين ، فقد تنازل سعد عن رأيه حالاً وأخذ برأي ربعي بن عامر ، ووافق الجميع على ذلك لَمَّا رأوا وجاهة هذا الرأي مع أنه يقصُر شرف المهمة على رجل واحد، ثم لما آنس ربعي من نفسه المقدرة على تمثيل المسلمين طلب

ذلك لنفسه ، ولما كان سعد يدرك تماما مايتحلى به ربعي من التجرد والإخلاص وافقه على ذلك ، وكانت هذه الموافقة أولى من إرسال غيره لأنه لم يُبْدِ استعداده للقيام بالمهمة إلا وهو قد أعدَّ نفسه لها ، وإن الذي يعيش القضية بفكره وأحاسيسه أولى بالنجاح فيها من الذي يفاجأ بها وهو على غير استعداد.

ومن هنا نعلم أن من آنس من نفسه المقدرة والكفاءة فلا بأس أن يطلب القيام بالمهمة مادام قد تجرد من حظ النفس وأراد مصلحة الأمة، فقد يرى من نفسه أنه أقدر ممن حوله على أدائها ، ويَحْسُن بالمسئول أن يلبي طلبه كما فعل سعد لأن ذلك أنجح للعمل في الغالب.

ثم ذكر ابن جرير في روايته خبر خروج ربعي وقدومه على رستم وأن الفرس قابلوه بمظاهرهم الدنيوية من فرش الحرير والوسائد المنسوجة بالذهب ، وأنه قابلهم بمظهره المتواضع في لباسه وسلاحه ودابَّته وماقام به من شق وسادتين لهم وربط فرسه بهما ، إلى أن قال: « فقالوا : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم ،أنتم دعوتموني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت ، فأخبروا رستم ، فقال : ائذنوا له هل هو إلا رجل واحد ! فأقبل يتوكأ على رمحه ، وزُجُّه نصل[1]، يقارب الخطو ويزجُّ النمارق والبُسُط ، فما ترك لهم نمرقة ولابساطا إلا أفسده وتركه متهتكا مخرقا».

أقول : وإن في هذا السلوك العالي مثلاً بديعًا لاحتقار مظاهر الجاهلية وإظهار عزة الإسلام ، وذلك بالقول والعمل ، فقد رفض

(١) الزج الحديدة في طرف الرمح ، وهو النَّصل ولكن لعله أراد أنه بدون غلاف .

أولاً أن ينصاع لمطلبهم في وضع السلاح ، فما دام أنه لم يقتنع ذاتيًا بهذا المطلب فإن إظهار الشخصية يقتضي عدم الخضوع لإرادتهم ، ثم لما رأى أنهم يتباهون بفرشهم ووسائدهم أراد إهانتهم بإفسادها ليبيِّن لهم أن هذه المظاهر الخلاَّبة لم توثر في نفسه ، وأنها ليست من الأمور التي يهتم بها المسلمون أو يقيمون وزنا لأصحابها ، فلله دره ما أعظم مُرامَه وما أسدَّ سهامه . لقد رماهم في أعظم شيء يعتزون به وهو ما يملكونه من مظاهر الدنيا فحطم معنوياتهم قبل أن يبدأ معهم الحوار .

قال : « فلما دنا من رستم تعلق به الحرس ، وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فقالوا : ماحملك على هذا ؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه ، فكلَّمه فقال : ماجاءبكم ؟ قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نُفْضِيَ إلى موعود الله ، قال وماموعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي .

فقال رستم : قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال : نعم كم أَحَبُّ إليكم ؟ أيومًا أو يومين؟ قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا ، - وأراد مقاربته ومدافعته- فقال : إن مما سنَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل به أئمتنا أن لانُمكِّن الأعداء من آذاننا ولانؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثا ، فانظر في أمرك

وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل ، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فَنَقْبَلُ ونكفُّ عنك ، وإن كنت عن نصرنا غنيا تركناك منه ، وإن كنت إليه محتاجًا منعناك ، أو المنابذة في اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، أنا كفيل لك بذلك عن أصحابي وعلى جميع من ترى ، قال: أسيِّدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم » .

هذا وبعد الاطلاع على هذا البيان الواضح يدرك المتأمل مبلغ ماوصل إليه المسلمون الأوائل من النجاح الباهر في التفاوض مع الأعداء وأن سرَّ نجاحهم يكمُن في أمرين : أولهما حسن اختيار الوفود، وثانيهما أن أمور الجهاد قد بينها النبي صلى الله عليه وسلم وطبقها في عهده وطبقها خلفاؤه حتى أصبحت من المعلومات الواضحة عندهم ، وإنما يتفاوتون في المقدرة على التعبير عنها والنكاية بالأعداء في الحرب النفسية.

قالوا : « فخلص رستم برؤساء أهل فارس فقال: ماترون هل رأيتم كلامًا قط أوضح ولا أعزَّ من كلام هذا الرجل ؟ قالوا: معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه! فقال: ويحكم لاتنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة ، إن العرب تَستَخِفُّ باللباس والمأكل ويصونون الأحساب ، ليسوا مثلكم في اللباس ولايرون فيه ماترون » .

وهذا الكلام دليل على تفوق رستم على بني قومه في العقل والإدراك ولو كان معه من يؤيده لربَّما دخل في الإسلام ، فقد كان

معجبا بأخلاق المسلمين ، وإطلاقُ العرب عليهم نظرًا لأن المسلمين آنذاك كانوا كلهم من العرب إلا القليل النادر .

وجاء في هذه الرواية أن الفرس أقبلوا إلى ربعي يتناولون سلاحه ويزهدونه فيه ، فقال لهم : هل لكم إلى أن تُرُوني فَأُرِيكم ؟ فأخرج سيفه من خِرَقه كأنه شعلة نار ، فقال القوم : اغمده ، فغمده ، ثم رمي ترسًا ورموا حَجَفته - وكانت من الجلد المتين - فخُرِق ترسهم وسلمت حجفته، فقال : يا أهل فارس إنكم عظَّمتم الطعام واللباس والشراب، وإنا صغرناهن .

وهكذا تفوق عليهم ربعي بن عامر حتى في السلاح وهم الأمة القوية المحاربة ، وماذاك إلا من عناية المسلمين آنذاك بشئون الحرب على قدر طاقتهم ، فقد جلا ربعي سيفه وحدَّه قبل أن يذهب إليهم حتى أصبح كأنه شعلة نار ، وأخاف الفرسَ منظره فطلبوا منه أن يغمده ، واختار ترسه من النوع القوي ، وهو وإن كان من الجلد فإن إتقان الصناعة قد أحاله إلى مادة قوية .

فلينظر المسلمون إلى واقعهم المعاصر كيف تفوق عليهم الأعداء بجميع أنواع الأسلحة وأصبحوا لايستطيعون المباهاة بأي نوع منها لتأخرهم الشديد في مجال الصناعة مع أنهم المأمورون من الله تعالى بالإعداد الحربي﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾[**الأنفال**: ٦٠] [(١)] .

حوار رستم مع حذيفة بن محصن :

وجاء في آخر هذ الخبر أن الفرس طلبوا في اليوم الثاني من قائد المسلمين بَعْث ربعي بن عامر فبعث إليهم حذيفة بن محصن وأنه قدم

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥١٨ - ٥٢١ .

عليهم في مثل هيئة ربعي وأنهم قالوا له: مابالك جئت ولم يجئ صاحبنا بالأمس؟ قال: إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدةوالرخاء.

وهذا جواب سديد أظهر فيه حذيفة عدالة المسلمين وحسن قيادتهم، وفي تغيير الرسل الموفدين فائدة مهمة وهي أن يتبين للأعداء أن لدى المسلمين كفاءات متعددة .

ثم جاء في هذه الرواية أن حذيفة عرض لهم الأمور الثلاثة التي عرضها عليهم ربعي وهي الإسلام أو الجزية أو القتال ، فقال رستم : أو الموادعة إلى يوما ما . فقال حذيفة : نعم ثلاثا من أمس[1] .

وهذه نباهة من حذيفة تدل على حسن اختيار سعد للوفود ، فقد كان رستم حريصًا على أن يأخذ من المسلمين موافقة على الموادعة وإطالة أمر الحرب ، فلما واجه ربعي بن عامر أُسقِطَ في يده حينما عرف أن من سنة الإسلام أن لا يهادنوا الأعداء إذا لقوهم أكثر من ثلاثة أيام ، فأراد أن يجرَّ حذيفة للموافقة على الموادعة إلى أجل غير مسمى ، ولكن حذيفة كان واعيًا لأحكام الجهاد ، فوافق على ذلك لمدة ثلاثة أيام بما فيها اليوم الماضي الذي كان بداية مواجهة العدو .

حوار رستم مع المغيرة بن شعبة :

وجاء في آخر هذه الرواية أن الفرس طلبوا في اليوم الثالث من قائد المسلمين أن يبعث إليهم رجلا فبعث إليهم المغيرة بن شعبة. وقد أخرج الإمام الطبري خبره من طريق سيف بن عمر عن أبي عثمان النَّهدي قال: لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس حبسوه

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢١ .

واستأذنوا رستم في إجازته ، ولم يغيروا شيئًا من شارتهم تقوية لتهاونهم [١] فأقبل المغيرة ابن شعبة والقوم في زيِّهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبُسُطهم على غَلْوة [٢] لايصل إلى صاحبهم حتى يمشيَ عليهم غلوة، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترتروه وانزلوه ومغثوه[٣] فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء ، لايستعبد بعضنا بعضًا إلا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، وإن هذا الأمر لايستقيم فيكم ، فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتموني ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون، وإن مُلكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

فقالت السَّفلة : صدق والله العربي ، وقالت الدهاقين : والله لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينزعون إليه ، قاتل الله أوَّلِينا ماكان أحمقهم حين كانوا يصغِّرون أمر هذه الأمة .

وهكذا استطاع هذا العبقري الملهم أن يرمي دولتهم بقنبلة بعيدة الأثر في مجتمعهم حيث فرقت جمعهم ، ونبَّهت العامة المستضعفين إلى حقوقهم المسلوبة ، فرأوا في كلام المغيرة مايعبر عن شعورهم الدفين الذي أماته الطغيان والجبروت ،فنطقوا بما يعبر عن استيائهم من

(١) يعني أنهم استمروا على ما اتفقوا عليه أول يوم من إظهار التهاون بالمسلمين وذلك بالمبالغة في المظاهر الدنيوية .

(٢) يعني قدر رمية السهم .

(٣) يعني ضربوه ضربًا خفيفًا .

أوضاعهم السيئة حيث قالوا : صدق والله العربي ، وكأنهم كانوا في سُبات عميق وهم يسبّحون بحمد آلهتهم من البشر من غير أن يشعروا بأنهم كان مستعبدين لهم حتى طرق أسماعهم كلام المغيرة بن شعبة وهو يُصنّف مجتمعهم الذي رآه إلى آلهة معبودين وعبيد مستعبدين .

وشعر كبراؤهم بخطر هذا الكلام فلم يستطيعوا كتمان مشاعرهم بل صرحوا بما سيكون لهذا الكلام من أثر في استقلالية عبيدهم وشعورهم بإنسانيتهم وكرامتهم فقالوا: والله لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينزعون إليه .

ولقد توصل المغيرة بهذا إلى نتيجة مهمة وهي تفاؤله بأن دولتهم ستضمحل لأن المُلك لايمكن أن يستمر على الظلم والطغيان .

لقد بين لهم بلسان الحال أن أهم علامات قابلية الدولة للاستمرار أن لايكون هدف الأمة هو تعظيم أمرائهم ورؤسائهم ، والتفنن في مظاهر الأبهة من الملابس والفرش والمراكب والقصور ، وتشكيل المجتمع إلى طبقات يخدم بعضها بعضا ويتذلل بعضها لبعض ، بحيث تكون الطبقة العليا معبودة من مختلف الطبقات ، ومن هم دون ذلك عابدون لمن هم فوقهم ، معبودون ممن هم دونهم ، لأن دولةً هذه أوصافها تحمل أسباب فنائها من داخلها ، وهي وإن عُمِّرت مدة من الزمن لايمكن أن يُكتب لها الاستمرار ، لأنه لابد أن يأتي الوقت الذي يتنبه فيه العامة المستَعْبَدُون ، ويدركون أنهم يعبدون بشراً مثلهم، ليس لهم من المؤهلات إلا أنهم اتفقوا على الظلم والطغيان .

بل إن أهم علامات قابلية الدولة للبقاء والاستمرار أن يكون هناك شعور مشترك من الحاكمين والمحكومين بأنهم جميعًا يخدمون مبدأ

سامِيًا، يعيشون جميعًا من أجله ، ويتفانون جميعًا في خدمته ، ومن كان أشدَّ بلاءً وأعظم تفانيًا في خدمة هذا المبدإ كان أولى بالتقديم والرفعة.

وإن المبدأ السامي الذي كان الصحابة رضي الله عنهم يعيشون له، ويتنافسون في خدمته هو الإسلام ، ومن أجل سلامتهم من عبادة البشر، وكونهم جميعًا حاكمين ومحكومين يعبدون رب البشر ، ومن أجل خدمتهم لدين الله عز وجل ، الذي أنزله لتنظيم حيا ة البشر ، نصرهم الله تعالى على ممالك ضخمة لم يكونوا في يوم من الأيام يحلمون بحيازة رقعة صغيرة من أراضيها .

وإنه مهما اتفق المفكرون على مبادئ من صنع البشر ومهما حاولوا إتقانها وعظموها ، وجعلوها وسيلة لإخضاع عامة الناس ، فإن هذه المبادئ لم تخرج من عبودية البشر للبشر ، لأنها من صنع البشر أنفسهم.

ولأجل فهم المسلمين الأوائل لعوامل انهيار الأمم وعوامل قيامها حكم المغيرة بن شعبة على دولة الفرس بالفناء ، لَمَّا عرف المبدأ الذي يتنافس فيه عامتهم ، وهو خدمة كبرائهم ، وتعظيمهم والخضوع لهم، لأنه من السهولة بمكان أن يتنبه العامة ، وأن يقولوا : لسنا عبيدًا للبشر، ولكن مما يشبه المستحيل أن يقول العامة في دولة الإسلام : لسنا عبيدًا لرب البشر ، لأن العبودية لرب البشر جل جلاله هي منتهى العز والكرامة ، وغاية الفخر والجلال .

ولقد تنبه عقلاء الفرس إلى هذا الخطأ الكبير الذي بنوا عليه سياستهم ، كما سبق في محاورة رستم مع زهرة بن الحوية حيث قال رستم: صدقتني والله ، أما إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يَدَعوا

أحدا يخرج من عمله من السَّفلة ، كانوا يقولون: إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم .

قال أبو عثمان النهدي في سياق رواية الحوار بيْن المغيرة بن شعبة ورستم : فمازحه رستم ليمحو ماصنع ، وقال له : ياعربي إن الحاشية قد تصنع ما لايوافق الملك ، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك ، فالأمر على ماتحب من الوفاء وقبول الحق ، ثم قال : ماهذه المغازل التي معك ؟[1] قال : ماضرَّ الجمرة أن لاتكون طويلة ، ثم راماهمْ، وقال : مابال سيفك رثًّا ؟ قال : رثُّ الكسوة ، حَديدُ المضْرَبَة. ثم عاطاه سيفه .

لقد أدرك رستم خطورة هذا الكلام الذي ألقى به المغيرة وفي سط يضم كبراء الفرس إلى جانب خَدَمهم وتابعيهم ، فلم يراجعه في هذا الكلام حتى يقطع الحوار حول هذا الموضوع خوفًا من أن يواصل المغيرة بيان هذا الموضوع ، فذكر أنه لايوافق حاشيته على ما صنعوا من تعظيمه، وهو مجرد اعتذار أراد به الخروج من هذا المأزق ، ثم لم يمهل المغيرة ليرد على ذلك بل عاجله بالسؤال عن سلاحه بأسلوب التهوين والاحتقار فكان جواب المغيرة على البديهة مُسكتًا ، ومعليًا من شأن المَخْبَر مهوِّنا من شأن المظهر .

• ثم قال له رستم : تكلمُ أم اتكلم ؟ فقال المغيرة : أنت الذي بعثت إلينا فتكلم ، فتكلم رستم فعظَّم من شأن قومه وذكر محامدهم، وصغَّر من شأن العرب وذكر معايبهم، ثم عرض مساومة المسلمين بالمال ليرجعوا عنهم .

فتكلم المغيرة بن شعبة وحمد الله وأثنى عليه وقال : إن الله

---

(١) يعني بذلك السهام .

خالق كل شيء ورازقه ، فمن صنع شيئًا فإنما هو يصنعه والذي له [1]

وأما الذي ذكرت نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء ، والتمكن في البلاد، وعظم السلطان في الدنيا ، فنحن نعرفه ولسنا ننكره ، فالله صنعه لكم ووضعه فيكم ، وهوّله دونكم ، وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال ، وضيق المعيشة واختلاف القلوب ، فنحن نعرفه ولسنا ننكره، والله ابتلانا بذلك وصيّرنا إليه ، والدنيا دول ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه ، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ، ويصيروا إليها ، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شكر ، كان شكركم يقصر عما أوتيتم ، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال ،ولو كنا فيما ابتُلينا به أهل كفر ، كان عظيم ماتتابع علينا مستجلبا من الله رحمة يُرَفِّه بها عنا ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه ،أو كنتم تعرِّفوننا به ، إن الله تعالى بعث إلينا رسولا . . ثم ذكر مثل كلام من سبقه من الوفود إلى أن ذكر الجزية ، فاستشاط رستم غضبا ،ثم حلف بالشمس لايرتفع لكم الصبح غدًا حتى أقتلكم أجمعين.

وإن هذا الكلام الواضح الرصين من المغيرة لم يترك لرستم مجالا للرد خاصة وأن الأيام الثلاثة التي فرضها عليه المسلمون قد انتهت فلم يعد هناك مجال لمحاولاته السياسية في الصلح أو تأخير موعد اللقاء .

قال : فانصرف المغيرة ، وخلص رستم تألفًا بأهل فارس وقال : أين هؤلاء منكم ؟ مابعد هذا ؟ ألم يأتكم الأوّلان فحسّراكم واستحرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا ، وسلكوا طريقا واحدا ،

---

(١) يعني فإن الله تعالى هو الذي يخلقه وما صنع .

ولزموا أمـرًا واحدًا، هؤلاء والله الرجال صادقين كـانوا أم كاذبين ، والله لئن بلغ من إرْبهم وصونهم لسرِّهم أن لايختلفوا ، فما قوم أبلغ فيمـا أرادوا منهم، ولئن كانوا صادقين مايقـوم لهؤلاء شيء ، فلجّوا وتجلَّدوا ، وقال : والله إني لأعلم أنكم تُصْغُـون إلى ما أقول لكم ، وأن هذا منكم رئاء ، فازدادوا لجاجة [1] .

وهذا اعـتراف آخـر من رستم بما علـيه المسلمـون من سُمُـوّ في الأخلاق وعُلُوّ في السياسـة،وكان مثار دهشة رستم وعـجبه من كون وفود المسلمين يقـولون كلاما واحـدًا لايختلفون فـيه في المطالب التي يعرضونهـا عليه،فاستنتج من ذلك إحدى نتيـجتين :أن يكونوا كاذبين في دعواهم الدينيـة فهم عظماء في صـونهم الأسرار واتفاق كلمـتهم وتخلقـهم بمكارم الأخـلاق ،أو أن يكونوا صـادقين في دعـوتهم إلى دينهم فـإن هذا الدين السمـاوي هو الذي جبلهم علـى هذه السيـاسة العظيمـة ومكارم الأخلاق،وقد ترجحت لديه النتـيجة الأخيـرة حيث ختم كلامه عن المسلمين بقوله:لئن كانوا صادقين مايقوم لهؤلاء شيء.

ومن هذا تتبين لنا منزلة اجتمـاع الكلمة واتفاق الرأي في الدعوة إلى الإسلام ، وإظهـار عظمة المسلمين ، وإيقـاع الرعب والهيـبة في قلوب الأعداء .

فمتى يتنبه المسلمـون للزوم هذا المبدأ الكريم الذي أنتج للمسلمين الأوائل هذه النتائج البـاهرة ، حتى يكونوا جسـدًا واحدًا كمـا أمرهم نبيهم صلى الله عليه وسلم ويدًا واحدة على أعدائهم .

وقول رستـم لكبار قادته « والله إني لأعلم أنكم تصغـون إلى ما

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢١ - ٥٢٤ .

أقول لكم وأن هذا منكم رثاء » يعني أنهم في قرارة أنفسهم مقتنعون برأي رستم في تفادي الحرب مع المسلمين بأي ثمن ولكنهم يُصِرُّون على الحرب مراءاةً لملك الفرس حيث إنه يصر على ذلك .

ورستم يشير بهذا إلى خطورة نتائج كتمان الرأي السديد من أهل الشورى مداراة لمن هم أعلى منهم في المسئولية ، وهو محق فيما ذهب إليه من ذلك ولكن قومه لم يسمعوا منه .

هذا ويبدو أن رستم كان معجبا بذكاء المغيرة بن شعبة الحاد وسرعة بديهته وإن كان قد استاء كثيرًا من جرأته عليه وعلى قومه ، فلما ذهب المغيرة أراد رستم أن يرمي بآخر ما في جعبته ليغيظ المغيرة، فقد جاء في رواية أخرجها الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن الرُّفيل الفارسي قال: فأرسل - يعني رستم - مع المغيرة رجلا ، وقال له : إذا قطع القنطرة ووصل إلى أصحابه فَنَادِ : إن الملك كان منجما قد حسب لك،ونظر في أمرك فقال : إنك غدا تفقأ عينك ، ففعل الرسول : فقال المغيرة : بَشَّرتني بخير وأجر ، ولولا أن أجاهد بعد اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الأخرى ذهبت أيضًا ، فرآهم يضحكون ويتعجبون من بصيرته .

وهكذا فليكن الرجال ، ورضي الله عن عمر حينما أوصى سعدًا بحسن اختيار الوفود وذكر له الصفات التي يجب أن تتوفر فيهم ، ورضي الله عن سعد حينما أحسن الاختيار ، فاختار من مَثَّلوا إسلامهم وأمتهم أصدق تمثيل ، وأدخلوا الحيرة والرعب في قلوب أعدائهم .

ولقد بلغ هذا الكلام رستم فزاده رعبا وقلقا ، وتمثَّل ذلك في

قوله لقومه ناصحًا لهم كما جاء في هذه الرواية : أطيعوني يا أهل فارس ، وإني لأرى لله فيكم نقمة لاتستطيعون ردَّها عن أنفسكم [1].

حوار رستم مع بقية وفد المسلمين :

هذا ولما رجع المغيرة وكان آخر الوفود أراد سعد أن يُعذر من أعدائه فأرسل لهم بقية من اختارهم للوفادة، كما جاء في رواية أخرى للطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أنهم قالوا : أرسل إليهم سعد بقية ذوي الرأي جميعًا وحبس الثلاثة [2] فخرجوا حتى أتوه ليعظموا عليه استقباحًا [3] فقالوا له : إن أميرنا يقول لك : إن الجوار يحفظ الولاة، وإني أدعوك إلى ماهو خير لنا ولك، العافية أن تقبل مادعاك الله إليه، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك، وبعضنا من بعض إلا أن داركم لكم، وأمركم فيكم، وماأصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا، وكنا لكم عونا على أحد إن أرادكم أو قوي عليكم، واتق الله يارستم، ولايكونن هلاك قومك على يديك، فإنه ليس بينك وبين أن تُغْبَط به إلا أن تدخل فيه، وتطرد به الشيطان عنك.

وهذا كلام عظيم في غاية التنزل مع الأعداء ، ومحاولة تأليف قلوبهم، وإنما يدل هذا الكلام على تجرد المسلمين من إرادة الدنيا ، حيث أبدوا استعدادهم الكامل بالرجوع إلى بلادهم إذا دخل الفرس في الإسلام وأن يتركوا لهم حكم بلادهم وماوراءها مما يتم على يدهم فتحه، ثم يكونون عونا لهم على أعدائهم .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢٤ .

(٢) يعني أبقى الثلاثة الأولين فلم يرسلهم .

(٣) يعني ليعظموا عليه صدوده عن الإسلام استقباحا لرأيه ورأي قومه .

وإن في هذا التجرد عبرة لهم لو كان لهم عقول يبصرون بها .

ولقد كان رستم مقتنعًا بالإسلام كما تقدم ، ولكنه لم يستطع إقناع قومه، ففضل البقاء معهم على عداء المسلمين ، وظهر أمام الوفد الإسلامي بما يجب أن يكون عليه في عرف دولته من تفخيم أمر أمته والتهوين من شأن العرب ، وقد تكلم بكلام طويل ضرب فيه عدة أمثال تدور حول بيان اغترار المسلمين بما حصلوا عليه من نصر سابق فشبههم بحيوانات أحسنت الدخول وطاب لها المقام ولم تُحسن الخروج ، فأُصيبت لسوء تقديرها النتائج ، وبين لهم ما ينتظرهم من مصير سيء على يد جيشه .

ولاشك أنه كان يتظاهر بغير ما يعتقد خضوعًا لما تُلزمه به الأعراف الحربية حيث قد صرح قبل ذلك مرارًا بتشاؤمه من قتال المسلمين وتخوفه من سوء العاقبة على قومه .

وقد رد عليه أعضاء الوفد الإسلامي بكلام بليغ شرحوا فيه دعوة الإسلام وواقع الفرس في كفرهم نعمة ربهم فقالوا : أما ماذكرتم من سوء حالنا فيما مضى ، وانتشار أمرنا فلمَّا تَبلغْ كنهه ، يموت الميت منا إلى النار، ويبقى الباقي منا في بؤس ، فبينا نحن في أسوإ ذلك بعث الله فينا رسولاً من أنفسنا إلى الإنس والجن ، رحمة رحم الله بها من أراد رحمته، ونقمة ينتقم بها ممن ردَّ كرامته ، فبدأ بنا قبيلة قبيلة فلم يكن أحد أشد عليه ، ولاأشد انكارا لما جاء ، ولا أجهد على قتله ورد الذي جاء به من قومه ، ثم الذين يلونهم ، حتى طابقناه على ذلك كلنا ، فنصبْنَا له جميعًا وهو وحده فردٌ ليس معه إلا

الله تعالى ، فأُعطِيَ الظفر علينا فـدخل بعضنا طوعًا وبعضنا كرهًا ، ثم عرفنا جميعًا الحَق والصدق، لَما أتانا به من الآيات المعجزة ، وكان مما أتانا به من عند ربنا جهاد الأدنى فالأدنى ، فسرنا بذلك فيما بيننا، نرى أن الذي قال لنا ووعدنا لايُخْرم عنه ولايُنقض ، حـتى اجتمعت العرب عـلى هذا ، وكانوا من اخـتلاف الرأي فـيما لايطيـق الخلائق تأليفـهم ، ثم أتيناكم بأمر ربنـا نجاهد في سبـيله وننفذ أمـره وننجز موعـوده ، وندعوكم إلى الإسـلام وحكمه، فإن أجـبتمـونا تركناكم ورجـعنا ، وخلَّفنا فـيكم كتـاب الله ، وإن أبيـتم لـم يحلَّ لنا إلا أن نعاطيكم القتال ، أو تفتدوا بالجِـزَى فإن فعلتم وإلا فإن الله قد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكـم ، فاقبلوا نصـيحتنا ، فـو الله لإسلامكم أحبُّ إلينا من غنائمكم ، ولقتالكم بعدُ أحب إلينا من صلحكم .

وأما ماذكرت من رَثاثتنا وقلَّتنا فإن أداتنا الطاعة ، وقتالنا الصبر، وأما ماضـربتم لنا من الأمثال فـإنكم ضربتم للرجال والأمـور الجسام وللجد الهـزل ، ولكنا سنضرب مـثلكم إنما مثلكم مـثل رجل غرس أرضـا، واختـار لها الشـجر والحبَّ وأجـرى إليهـا الأنهار ، وزينهـا بالقصـور ، وأقام فيـها فلاَّحين يسكـنون قصورها ، ويقـومون على جناتها ، فخـلا الفلاحون في القصـور على ما لايُحبّ ، وفي الجنان بمثل ذلك ، فأطال نَظْرتهم[1] . فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم ، استعتبهم فكابروه ، فدعا إليهـا غيرهم، وأخرجهم منها ، فإن ذهبوا عنها تخطَّفهم الناس، وإن أقاموا فيها صاروا خولاً لهؤلاء يملكونهم ، ولايملكون عليـهم ، فيسـومونهم الخـسف أبدا ، وو الله لو لم يكن

---

(١) يعني امهلهم طويلا .

مانقـول لك حقا ، ولـم يكـن إلا الدنيـا لما كان لنا عمـا ضَرَينا به من لذيذ عيـشكم ورأينا من زِبْرِجكم من صبر، ولقَـارَعْناكم حتى نغلبكم عليه [1] .

وبهذا البيان الرفيع خـتم وفود جيش المسلمين لقاءاتهم وحوارهم مع قائد الفرس ، وقد اشتمل هذا البيان على أمور مهمة ، فإن هؤلاء ومن سبقهم من الوفـود قد اتفقوا على موافقـة رستم في التهوين من شأن العرب قبل الإسلام بل إنهم ذكـروا من سوء حالهم ما لم يذكره رستم ، وكذلك ذكـر جميع الوفود في فـتوح المسلمين الأولى، وهذا يدل على سـلامتـهم من لوثة القـوميـة العـربية ، وتجـردهم للدين الإسلامي ، وبذلك فوَّتوا على اعدائهم ثغرات واسعة للطعن فيهم .

فقد قالوا لرستم وغيره : إنا لسنا أولئك الذين حملتم عنهم هذه الصورة ، فإننا نتبرأ منهم ومن مناهجهم في الحياة ، ولكن الله تعالى بدَّلنا أناسا آخرين ، لما اعتنقنا هذا الـدين ، فاحكموا علينا من واقعنا الذي تُشاهدونه والذي يشرِّف كل صاحب عقل سليم ولاتحكموا علينا من تاريخنا الماضي قبل التحول بالإسلام .

ثم ذكروا أن تحوُّلهم إلى الإسلام لم يتم لأن النبي صلى الله عليه وسلم عربي مثلهم ، بل إنهم قاوموه أشد المقاومة ، ولـم ينصره حتى قومـه وإنما حصل هذا التـحول لما أُشـرِبَتْ قلوبهم حب هذا الدين لما يشتـمل عليه من مـعجزات وآيات بينات ، لاتتـرك مجـالا لصاحب العقل السليم إلا أن يُذعن له ويتـرك هواه ، وفي هذا تحريض للفرس وغيرهم كي يذعنوا للإسلام إذا فهـموا سمو هذا الدين عن أن يكون دين قوم أو جنس.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢٥ - ٥٢٩ .

ثم بينوا لرستم أن خروج المسلمين من بلادهم لقتالهم ليس استجابة لهوى أنفسهم ، وإنما هو تكليف من تكاليف هذا الدين الذي آمنوا به ، ولذلك كان دخول أعدائهم في الإسلام أحب إليهم من الصلح الذي يستفيدون منه جباية الجزية كل عام ، لما يترتب على إسلامهم من الأجر العظيم لمن دعوهم إليه ، ودخولهم مع أعدائهم في القتال أحب إليهم من مصالحتهم بالجزية لما يترتب على الجهاد من أجر عظيم في مباشرة القتال وفي الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، وكون الدخول في القتال ، وهو لاتؤمن عاقبته أحب إليهم من الصلح الذي تُضمن عاقبته دليل واضح على أنهم لايريدون الدنيا وإنما يريدون الآخرة ، وهذا يكفي في إقناع صاحب العقل السليم بالدخول في الإسلام ، ومؤاخاة هؤلاء الكرام الذين تجردوا من حظوظ أنفسهم وعاشوا لدينهم الذي ارتضاه لهم خالقهم جل وعلا .

وردُّوا على ماذكره من قلة عددهم ، ورثاثة مظهرهم بأن عدتهم الطاعة وقتالهم الصبر ، فالطاعة لله تعالى أولاً ثم للقائد في حدود طاعة الله تعالى ، وإن جيشًا يتصف بالطاعة الكاملة لقائده وذوي الرأي فيه ليعدل أضعافه من جيش ينقصه التفاهم والولاء للقيادة .

أما الصبر فإنه أهم عناصر النصر لأن أفراد الجيش قد يبذلون طاقة في القتال أول الأمر لكن قلَّ من يصبر على هذا المستوى من الطاقة إلى نهاية المعركة .

ثم بينوا لرستم على سبيل التوبيخ أن ماضرب لهم من الأمثال حيث شبَّههم بالحيوانات لايليق لأن الرجال والأمور الجسام لايُمثَّل لها بالهزل من القول .

ثم ضربوا له مثلا عاليًا نبَّهوا قومه فيه إلى أنهم قد ركبوا أهواءهم، وعطلوا عقولهم التي منَّ الله بها عليهم في أهم أمر يجب أن يفكروا فيه وهو شكر الخالق جل وعلا وإخلاص العبادة له . وإن لم يفعلوا ذلك فإن الله تعالى يسلط عليهم أولياءه فينتقم بهم منهم .

وهكذا أرسل سعد بن أبي وقاص عدة وفود إلى رستم ليدعوه وقومه إلى الإسلام ويقيم عليهم الحجة .

ولقد بين هؤلاء الوفود في حوارهم مع رستم أن الإسلام يقوم على إخلاص العبادة لله تعالى وحده ، وذلك يتضمن الكفر بجميع الطواغيت التي تُعبد من دون الله تعالى ، وأن المسلمين سواسية عنده جل وعلا، لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وأن المسلمين مأمورون بالدعوة إلى الله تعالى لإخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى وحده .

وهل كان العرب في جاهليتهم يعبدون العباد ؟ أم كانوا يعبدون الأشجار والأحجار ؟

في الظاهر كانوا يعبدون الأشجار والأصنام المنحوتة ونحو ذلك من الجمادات ولكن العبادة الحقيقية للأصنام الكبيرة كاللات والعزى ومناة لم تكن لذواتها وإنما كانت لمن كانوا وراءها من شياطين الإنس الذين كانوا يروِّجون لها ، ومن شياطين الجن الذين كا نوا يخاطبون عابديها .

فأما كون شياطين الإنس يروّجون لها ويدافعون عنها فهذا معروف، ومن أبرز مايتعلق بعبادة الإنس المتعلقة بعبادة الأصنام أنهم كانوا يشرِّعون للناس ما يُنظمِّون به حياتهم باسم الأصنام وبموجب

ولائهم وخدمتهم لها ، وهذا نوع من أنواع العبادة فلا يجوز صرفه لغير الخالق جل وعلا .

وأما كون شياطين الجن يخاطبون عابديها ويلبُّون لهم ما يستطيعون من حوائجهم فهذا أيضًا مشهور وقد مر علينا في فتح مكة بعض ماكان من ظهور الجن عند هدم الأصنام .

أما في غير بلاد العرب فقد كانت عبادة العباد للعباد ظاهرة مكشوفة وقد لاحظ جنود الإسلام أمثلة منها في بلاط قادة الفرس والروم ، وماكان في بلاط كسرى وهرقل أعظم من ذلك ، فلذلك ركَّز وفود المسلمين على محاربة هذه الطبقية التي تجعل الناس عابدين ومعبودين .

ولقد وُفِّق الوفود إلى النطق بالصواب حينما بينوا لرستم حقيقة الواقع الذي آل إليه أمر العرب في جاهليتهم حيث بينوا له أنهم من السوء والانحطاط على حال هي أشد مما وصفهم به رستم ، ثم وُفِّقوا حينما عَزَوا ذلك إلى ماكانوا عليه من الشرك بالله ، حيث كانوا يعبدون العباد معه ، ثم وفقوا في بيان أن هذا التحول الكبير المفاجيء الذي لايحتاج إلى بيان إنما كان بسبب دين التوحيد ، حيث أصبحوا بهداية النبي ﷺ يخلصون العبادة لله تعالى وحده .

وكان هذا التوحيد الخالص هو العامل المهم في انتصار المسلمين بما يشبه الخوارق .

إن العامل الرئيس في انهزام الأمة أن يتَّخذ بعضها بعضا أربابًا من دون الله تعالى ، لأنه مادام الأرباب مساوين للمربوبين في الخلق فما

الذي يدفع المربوبين إلى الإخلاص في عبادة الأرباب والاستعداد للفناء من أجلهم ؟ !

وإذا كانوا يطيعونهم خوفا من بطشهم فما الذي يكفل لهم دوام الرقابة عليهم في كل أحوالهم ؟

إن كل إنسان يملك طاقة عظيمة مدخرة ، وهو ليس على استعداد لأن يبذلها إلا لمن يستحقها ، وهل يبذلها إلى حد الفناء ليستبقي بها حياة مخلوق مثله ؟ !

هذا ما لايمكن أن يقع في حياة الناس ، إن كل جندي ممن لايحملون عقيدة التوحيد الخالص يقاتل بجزء يسير من طاقته ، ويستبقي الجزء الكبير منها للدفاع عن نفسه لأنها أغلى شيء يملكه ، وليس على استعداد لأن يفدي بها غيره .

أما جنود التوحيد الذين لايتخذون أربابًا من البشر فإنهم يبذلون كل طاقتهم من أجل نصرة كلمة التوحيد ، ولن يقف أحد لمثل هؤلاء مهما بلغ عددهم وقويت عُدَّتهم .

ولعل هذا من أسرار تكليف المسلم بالثبات أمام عشرة من الكفار ﴿ **إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ** ﴾[1] .

وإن من عدم فقههم كونهم يصرفون أعمالهم لغير الله تعالى . ولقد خفف الله تعالى عن المؤمنين لضعف بعضهم ، فجعل الحد الأدنى للثبات الواجب أن يواجه المسلمون ضعفهم ﴿ **الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ**

(١) سورة الأنفال / ٦٥ .

عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

والظاهر أن رستم وهو الخبير بمصائر الأمم وعوامل الانتصار والانهيار في الحروب قد أدرك سرَّ عظمة المسلمين ، حيث إنهم جميعًا بقادتهم وجنودهم يخدمون مبدأً واحدًا ساميًا يموتون جميعًا من أجله، وفي سبيل إعزازه يحيون .

لقد أدرك ذلك ، وأدرك في مقابله أسباب انهيار دولتهم وأن السبب الرئيس في ذلك هو انقسام الناس فيها إلى عابد ومعبود ، وعدم توفر الأسباب المؤثرة التي تجعل الجندي يضحي بنفسه في سبيل أمته، بينما رأى ذلك متمثلا بوضوح في كلام الوفود من المسلمين ، وفي واقع حياة المسلمين وانتصاراتهم السريعة الباهرة .

لقد أدرك ذلك كله فداخله الرعب من المسلمين ، وهمَّ بمصالحتهم ومهادنتهم لو وافقه ملك الفرس على ذلك .

عبور الفرس إلى المسلمين :

وفي نهاية الحوار مع رستم قال لوفد المسلمين : أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم ؟ فقالوا : بل اعبروا إلينا .

ولما علم سعد بذلك أمر الجيش بالاستعداد ، وأرسل إلى الفرس: شأنكم والعبور ، فأرادوا العبور من القنطرة فأرسل إليهم : لا ولاكرامة. أما شيء قد غلبناكم عليه فلن نرده عليكم ، تكلَّفوا معبرًا غير القناطر فباتوا يردمون نهر العتيق حتى الصباح .

(١) سورة الأنفال / ٦٦ .

عودة إلى الرُّؤَى المزعجة :

ورأى رستم من الليل أن ملكًا نزل من السماء فأخذ قسيَّ أصحابه فختم عليها ، ثم صعد بها إلى السماء ،فاستيقظ مهموما محزونًا، فدعا خاصته فقصها عليهم،وقال : إن الله ليعظنا لو أن فارس تركوني أتَّعظ، أما ترون النصر قد رُفع عنا ، وترون الريح مع عدونا، وأنَّا لانقوم لهم في فعل ولامنطق ، ثم هم يريدون مغالبةً بالجبريه(١).

وهكذا عادت لرستم أحلامه المزعجة وهي نوع من الرعب الذي يُلقيه الله في قلوب أعداء المسلمين .

استعداد المسلمين :

وقد أمر سعد رضي الله عنه بتعبئة الجيش استعدادًا لبدء المعركة ، وكان مريضًا بعرق النسا ، وبه دمامل لا يستطيع الركوب ولا الجلوس فكان مُكبًّا على صدره وتحته وسادة ويشرف على الميدان من قصر قُدَيس الذي كان في القادسية وقد أناب عنه في تبليغ أوامره خالد بن عرفطة . وقد أمر بأن ينادَى في الجيش : ألا إن الحسد لايحل إلا على الجهاد في أمر الله ، أيها الناس فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد(٢).

وقبل بدء القتال حصل اختلاف على خالد بن عرفطة نائب سعد فقال سعد: احملوني وأشرفوا بي على الناس،فارتقوا به فأكبَّ مطَّلعا عليهم والصف في أسفل حائط قصر قُدَيْس يأمر خالدًا فيأمر

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٠ .

خـــالــد الناس، وكان ممن شـغَب عليه وجوه من وجــوه الناس فهمَّ بهم سعــد وشتــمهم ، وقال : أمــا والله لولا أن عدوكم بحــضرتكم لجعلتكم نكــالا لغيركم ، فـحبسهــم ، ومنهم أبو محجن الثـقفي ، وقيَّدهم في القصر .

وقال جرير بن عبد الله البجلي - مؤيدًا طاعة الأمير - : أما إني بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر وإن كان عبدًا حبشيًا .

وقال سعد : والله لايعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سَنَنْتُ فيه سنة يُؤخذ بها من بعدي [1] .

لقد كان ســعد رضي الله عنه رجل الموقف حقا فـقد حسم الداء في أول مراحله ، وقضى على الفـتنة وهي في مهدها ، وهو نوع من القوة والحــزم لايتوفـر إلا في القليل من الناس ، وإذا صَاحَـبَ القوة حلم وحكمة وكرم اكـتملت عناصر السيادة ، وهي متــوفرة في سعد رضي الله عنه، فلذلك استطاع أن يقود هذا الجـيش الكبير المنتزع من قبائــل عديدة بينها إِحَنٌ وأحقــاد في الجاهلية ، وقد كــانوا يأنفون من سيادة بعضهم على بعض .

وقد قام فيهم سعد خطيبًا بعد هذه الحادثة فقال بعد أن حمد الله تعالــى وأثنى عليه : إن الله هو الحق لاشـريك له في الملك ، وليس لقوله خُلْف ، قال الله جل ثناؤه ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ [2] إن هذا ميراثــكم وموعود

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣١ .

(٢) سورة الأنبياء / ١٠٥ .

ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها، وتقتلون أهـلها وتجبُونهم وتسبُّـونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصـحاب الأيام منكم وقـد جاءكم مـنهم هذا الجمع ، وأنتم وجـوه العرب وأعيانهم وخيـار كل قبيلة ، عزّ من وراءكم ، فإن تزهدوا في الدنيا وترغـبوا في الآخرة جـمع الله لكم الدنيا والآخـرة ، ولايقرِّب ذلك أحـدا إلى أجله، وإن تفـشلوا وتهنوا وتضعـفـوا تذهب ريحكم وتُوبقوا آخرتكم [1] .

وقام عاصم بن عمرو التميمي فقال : إن هذه البلاد قد أحل الله لكم أهلهـا ، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين مـا لاينالون منكم ، وأنتم الأعلون والله معكم ، إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن فلكم أمـوالهم ونساوهم وأبنـاؤهم وبلادهم ، وإن خرتُّم وفـشلتم - والله لكم من ذلك جـار وحافظ - لم يُبق هذا الجـمع منكم باقـية ، مـخـافـة أن تعودوا عـليـهم بعـائدة هلاك ، اللّه اللّه اذكـروا الأيام ومامنحكم الله فيها ، أوَلا ترون أن الأرض وراءكم بسابس قفار ليس لها خَمَر ولاوزر يعقل إليه[2] ولايُمتنع به ! اجعلوا همكم الآخرة[3] .

وهذا كلام يدل على عمق في فهم التوحيد ورسوخ في الإيمان ، وإن صدور مـثل هذا الكلام من عاصم بن عـمرو الذي لم يدخل في الإسلام إلا في أواخر العهـد النبوي لدليل على عمق الأثر الذي تركه الإسلام في نفوس العرب .

هذا وقد كـتب سعـد إلى أصحـاب الرايات : إني قد استـخلفت

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣١ .

(٢) أي ليس لكم غطاء ، ولاحصن تلجؤون إليه .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٢ .

فيكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني ومابي من الحبوب - يعني الدمامل - فإني مُكبٌّ على وجهي وشخصي لكم بَاد فاسمعوا له وأطيعوا فإنه إنما يأمركم بأمري ويعمل برأيي، فقُرئ علَى الناس فزادهم خيرًا، وانتهوا إلى رأيه وقبلوا منه وتحاثُّوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعد والرِّضَى بما صنع.

ولقد كان في إصابة سعد بالمرض حكمة بالغة فقد ألزمه المرض البقاء في القصر وكان مشرفا على ساحة المعركة، فكان يرى تفاصيل سير المعركة فيوجِّه توجيهاته عن طريق نائبه، ولو أنه كان سليما واشترك بنفسه في القتال كالمعتاد لانغمس داخل الجيش ولم يستطع الإشراف على كل مايجري في الساحة، وستأتي أمثلة تبين أنه أنقذ باطلاعه الدقيق على مايجري فئات من الجيش كاد العدو أن يفنيهم، وقد ساعده على ذلك أنه كان حديد البصر.

وإن المعارك الكبيرة كهذه المعركة تحتاج إلى تفرغ القائد لإدارتها ولكن المسلمين الأوائل أَلِفُوا أن يكون القائد بينهم وفي مقدمتهم.

ولايمكن أن يُظَنَّ بسعد رضي الله عنه أنه ترك المشاركة في القتال جبنا ولارعاية لحَظِّ النفس، فإن بقاءه فوق قصر غير محصَّن وبدون حراسة يعتبر غَاية الثبات والتضحية، وفي ذلك يقول عثمان بن رجاء السعدي: كان سعد بن مالك أجرأ الناس وأشجعهم، إنه نزل قصرًا غير حصين بين الصفين، فأشرف منه على الناس ولو أعراه الصف فواق ناقة أخذ بِرُمَّته [١]، فو الله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه [٢].

---

(١) يعني لو انحسر عنه صف المسلمين وانكشف للعدو مقدار حلب ناقة لأخذه الأعداء.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٠.

رستم يفزع من الأذان :

بعدما ردم الفرس نهر العتيق وعملوا لهم منه جسرا ظلوا يعبرون منه طوال الليل حتى وصلوا إلى ميدان المعركة .

ومن أخبارهم بعد العبور مارواه الإمام الطبري من طريق سيف ابن عمر عن ابن الرُّفَيل [1] قال : لما نزل رستم النجف بعث منها عينا إلى عسكر المسلمين ، فانغمس فيهم بالقادسية كبعض من ندَّ منهم، فرآهم يستاكون عند كل صلاة ثم يصلون ، فيفترقون إلى مواقفهم ، فرجع إليه فأخبره بخبرهم وسيرتهم ، حتى سأله : ماطعامهم ؟ فقال: مكثت فيهم ليلة ، لا والله مارأيت أحدًا منهم يأكل شيئًا إلا أن يمصوا عيدانا لهم حين يُمسون وحين ينامون وقبيل أن يصبحوا .

فلما سار فنزل بين الحصن والعتيق - يعني في القادسية - وافقهم وقد أذن مؤذن سعد الغداة فرآهم يتحشْحشُون- يعني يتهيئون للنهوض- فنادى في أهل فارس أن يركبوا ، فقيل له : ولِمَ ؟ قال : أما ترون إلى عدوكم قد نودي فيهم فتحشْحَشُوا لكم ! قال عَيْنُه ذلك: إنما تَحَشْحُشُهم هذا للصلاة ، فقال بالفارسية وهذا تفسيره بالعربية: أتاني صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل.

فلما عبروا تواقفوا وأذَّن مؤذن سعد للصلاة - يعني صلاة الظهر- فصلى سعد ، وقال رستم : أكل عمر كبدي [2] .

وهكذا فزع رستم من سماع الأذان ، ومن منظر المسلمين وهم

---

(١) لعل الرواية عن أبيه كما في سائر الروايات .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٢ - ٥٣٣ .

يستعـدون جميعًا للصـلاة بحيوية ونشاط ، ومن اجـتماعهم جمـيعًا خلف قائدهم في الصلاة .

وكان المسئول الأعلى في المسلمين آنذاك هو أمـير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فـما كـان من رستم إلا أن نسب إليـه هذه الآثار التربوية العالية .

فكيف لو كانت هذه الحروب في عهد النبي ﷺ وسمع رستم عن معجـزاته ، وحب المؤمنين وطاعتهم إياه وسـياسته العـالية في السلم والحرب بما لا مثيل له ، فماذا سيقول ؟

وماعمـر بن الخطاب بمواهبه الفذة وسـمعته العاليـة إلا قبس من ضوء رسول الله ﷺ .

ولو أنه تجرد من الـهوى ، واستـمع لإرشاد من أُعجب بـمنطقهم وأخلاقهم وصـلاتهم لأدرك أن النقلة العظيمة التي انتقل العـرب إليها في واقعـهم المذهل لم تكن من نتـاج البشـر مهـما بلغوا مـن الذكاء والتربية العاليـة ، وإنما هي وحي إلهي أنزله الله جل وعلا على خاتم الرسل ﷺ هداية للثقلين .

وإذا كان أحـد تلامذة النبي ﷺ الذين رباهم على يديه قـد أفزع قادة العالم آنذاك وملأ قلوبهم كـمدا فَبِمَ يوصف أثر النبي ﷺ ؟ إنه أمر عظيم يفوق حد الوصف، ولقد ظل مفكرو العالم آنذاك متحيرين من تلك الآثار الضخمة للدعوة الإسلامية، ولـم يخرج من هذه الحيرة إلا من مسَّت أنوار الإيمان شغـاف قلبه فأعلن إسلامه وتبعـيته للركب العظيم الذي ساد العالم وفرض عليه حضارته وعلومه .

وإنها لشهادة بيِّنة من مفكر عالمي تُظْهر ما للصلاة والأذان من أثر

بالغ في تقويم السلوك ، وإنه لمنظر عظيم حين يقوم جيش مكون من ثلاثين ألفا مستجيبين لنداء رجل واحد ، ويقفون للصلاة خلف إمام واحد ، ولكن الأَلْفَ والعادة يُفقدان العمل الرائع روعته وجلاله إلا عند من رسخ الإيمان في قلوبهم ، فأصبح يتجدد لهم اليقين مع كل صلاة ، وإذا كان كثير من المسلمين يغفل عن مزايا الأذان وصلاة الجماعة ، فإن مفكري الأعداء قد شهدوا بذلك ، والحق ماشهدت به الأعداء .

ولقد كان من مظاهر حرص الصحابة رضي الله عنهم ومن اتبعهم بإحسان على الالتزام بالسنة أن حملوا معهم أعواد الأراك من الحجاز وظلوا يستاكون بها حتى كانت من ملازمتهم إياها من المظاهر المهمة التي لفتت نظر جاسوس رستم فأبلغه عنها ، وإن من عوامل النصر المهمة الالتزام بسنة رسول الله ﷺ حتى في الأمور الصغيرة فإن هذا الالتزام دليل على كمال الطاعة لله تعالى وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم يُوْلُون التكاليف الشرعية من الاهتمام بقدر منزلتها ، وإذا كانوا يهتمون هكذا بالسنن التي لايعاقب تاركها فإن اهتمامهم بالواجبات من باب أولى ، والمسلم يثاب على حرصه على السنة ومحاسبته نفسه عن التقصير فيها .

مواعظ جهادية :

صدرت مواعظ بليغة من وجهاء المسلمين وقادتهم في بداية اليوم الأول من المعركة وكانت بأمر من سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لتقوية إيمان المسلمين وإثارة حماسهم ليبذلوا في سبيل الله كل طاقتهم، فلقد جمعهم سعد وقال لهم : انطلقوا فقوموا في الناس بما

يحق عليكم ويحق لهم عند مواطن البأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم ، وذووا رأيهم ونجدتهم وسادتُهم، فسيروا في الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال ، فساروا فيهم .

فقال قيس بن هبيرة الأسدي : أيها الناس احمدوا الله على ماهداكم له وأبلاكم يزْدكم ، واذكروا آلاء الله ، وارغبوا إليه في عاداته، فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم ، وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء، والأرض القفر، والظِّراب الخُشْن ، والفلوات التي لاتقطعها الأدلة .

وقال غالب بن عبد الله الليثي : أيها الناس احمدوا الله على ما أبلاكم وسلوه يزدكم ، وادعوه يجبكم ، يامعاشر معدّ ، ماعلّتكم اليوم وأنت في حصونكم - يعني الخيل - ومعكم من لايعصيكم - يعني السيوف - ؟ اذكروا حديث الناس في غد ، فإنه بكم غدًا يُبدأ عنده، وبمن بعدكم يُثَنَّى .

وقال ابن الهذيل الأسدي : يامعاشر معدّ ، اجعلوا حصونكم السيوف، وكونوا عليهم كأسود الأجم ، وتربَّدوا لهم تربُّد النمور وادَّرعوا العجاج ، وثقوا بالله ، وغضوا الأبصار ، فإذا كلَّت السيوف- فإنها مأمورة - فأرسلوا عليهم الجنادل ، فإنها يؤذن لها فيما لايؤذن للحديد فيه .

وقال بُسر بن أبي رهم الجهني : احمدوا الله وصدقوا قولكم بفعل، فقد حمدتم الله على ماهداكم له ، ووحدتموه ولا إله غيره ، وكبرتموه ، وآمنتم بنبيه ورسله ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ،

ولايكونَنَّ شيء بأهون عليكم من الدنيا ، فإنها تأتي من تهاون بها ، ولاتميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم ، انصروا الله ينصركم .

وقال عاصم بن عمرو : يامعاشر العرب إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان من العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ، ويخاطرون بالدنيا، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لاتحدثوا اليوم أمرًا تكونوا شينًا على العرب غدا .

وقال ربيع بن البلاد السعدي : يامعاشر العرب قاتلوا للدين والدنيا ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾[1] وإن عظَّم الشيطان عليكم الأمر فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم مادام للأخبار أهل .

وقال رِبْعِي بن عامر : إن الله قد هداكم للإسلام ،وجمعكم به، وأراكم الزيادة ، وفي الصبر راحة ، فعوِّدوا أنفسكم الصبر تعتادوه، ولاتعودوها الجزع فتعتادوه .

ذكر ذلك الإمام الطبري وقال : وقام كلهم بنحو هذا الكلام ، وتواثق الناس وتعاهدوا ، واهتاجوا لكل ماكان ينبغي لهم[2] .

أقول : وإن في بعض هذا الكلام ذكرًا للدنيا مع الآخرة ، وإنما أرادوا بذلك تحريض من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم وهم قليل .

يوم أرْماث :

في اليوم الأول من أيام القادسية ويسمى « يوم أرماث » وجه

---

(١) سورة آل عمران / ١٣٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٣ - ٥٣٤ .

سعد رضي الله عنه بيانه إلى الجيش قـائلا : الزموا مواقفكم لاتحركوا شيئًا حتى تصلُّوا الظهر ، فإذا صليـتم الظهر فإني مكبِّر تكبيرة فكبروا واستعـدوا ، واعلموا أن التكبير لم يُعْطَه أحد قـبلكم ، واعلموا أَنَّما أُعطيـتمـوه تأييدًا لكم ، ثم إذا سـمعـتم الثانيـة فكبروا ، ولتُـستَـتَمَّ عُدَّتكم، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ، ولينَشِّط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوكم، قولوا : لاحول ولا قوة إلا بالله(١) .

وهذا نموذج من البيانات الحربية التي يلقيها القادة قبل بدء المعركة لرسم خطة بدايتـهـا ، ومن مزايا التـخطيط الحـربي لدى المسلمين أن التـوقيت وإصـدار الأوامر للقـتال يكـون بالتكبيـر ، وفي ذلك أبلغ التذكـير بمعية الله سـبحانه لأوليائه بالنصـر والتأييد ، وحينمـا يذكر المسلم ربه جل وعـلا وهو متهـيئ لخوض المعـركة فإن إيمـانه يقوى ، ويكون الله سبحـانه بين عينيه والجنة محطُّ تفكيره ، وتتـضاءل الدنيا بكل مافـيها عنده، وحـينما يظل مصطحـبا ذكر الله تعـالى فإنه يأتي بالعجائب ولايقف له شيء ، ومن أجل أن يكبر المسلمون بقلوبهم مع ألسنتهم وأن يظلوا مصطحبين لذكر الله تعالى ، فإن سعدًا قال لهم : واعلموا أن التكبير لم يُعطَه أحد قـبلكم، واعلموا أنكم إنما أُعطيتموه تأييدًا لكم .

فالـله أكبـر تعني أنه أكبـر من الأعداء وإن كـانوا في نظر الناس أقوياء ، وأنه تعالى أكبر من كل شيء ، فـالذي يقولها من قلبه وهو يفقه معناها يستصغر قوة الأعـداء مهما عظمت ،ويحتقر مظاهر الدنيا

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٥ .

وإن كانت هيمنتـها على نفسه كبيـرة فيُقْدم على قتال الأعـداء بطاقته الكاملة ، ولذلك كان التكبير تأييدًا للمسلمين من الله تعالى .

ثم يختم سعـد بيانه بتوجيه أصحابـه إلى قول « لا حول ولا قوة إلا بالله » عند الزحف على الأعداء ، وهو توجيه آخر لربط المسلمين بربهم جل وعلا ، فلا تحـوُّل للمؤمن من حال القلق والاضطراب إلى حال السكينة والطمأنينة ، ومن حال الترقب والخوف من سوء العاقبة إلى العاقبة الحميدة إلا بالله جـلا وعلا ، ولاقوة للمؤمن على مواجهة الشدائد والمصائب إلا بالله تعالى ، ولذلك كان هذا التوجيه في نهاية البيان في غاية المناسبة .

وهذه الكلمـة العظيمـة تُؤتي مفعـولها في تقـوية قلب المؤمن ، ومعونته على تحمل الشدائد إذا نطق بها وهو مدرك لمعناها ، مستحضر لعظمة الله تعالى ، وأن كل شيء بيده يفعل ما يشاء ويحكم مايريد ، وأن يكون في حـال الرخاء من المتـقين لله جل وعلا ، ولذلـك كان الربَّانيون من أمثال عمر رضي الله عنه يخشون على جنود الإسلام من المعاصي أكثر من خشيتهم عليهم من الأعداء .

ولما صلى سعد الظهر أمر الغلام الذي كان ألزمه إياه عمر - وكان من القـراء - أن يقـرأ سورة الجـهـاد [يعني سـورة الأنفال] وكـان المسلمـون يتعلمـونها كلهـم ، فقـرأ على الكتيـبة الذين يلونه سـورة الجهاد، فقُرئت في كل كتيبـة ، فهشَّت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها(١) .

وهكذا يتزود المسلمـون المتقون بالقرآن ، ويجـعلون من كلام الله

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٦ .

تعالى مادة لحماسهم وإقدامهم على القتال ، فأين منهم الذين يرددون الشعارات الجاهلية ؟ ! وماهي النتائج المرتقبة للاتجاهين في الدنيا والآخرة؟

ولما فرغ القراء كبَّر سعد ، فكبَّر الذين يلونه بتكبيره ، وكبر بعض الناس بتكبير بعض ، فتحْشحَش الناس [يعني تحركوا] ثم ثنَّى فاستتمَّ الناس، ثم ثلَّث فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال ، وخرج من أهل فارس أمثالهم ، فاعتوروا الطعن والضرب [1] .

وكان لأبطال المسلمين من أمثال غالب بن عبد الله الأسدي ، وعاصم بن عمرو التميمي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي وطليحة بن خويلد الأسدي أثر ظاهر في النكاية بالعدو حيث قتلوا وأسروا عددًا من أبطالهم ولم يُقتل من المسلمين أحد فيما ذُكر أثناء المبارزة ، والمبارزة فَنٌّ عسير من فنون الحرب لايتقنه إلا الأبطال من الرجال ، وهي ترفع من شأن المنتصرين وتزيد في حماسهم ، وتخفض من شأن المنهزمين وتحط من معنوياتهم ، والمسلمون الأوائل متفوقون في هذا الفن على غيرهم دائمًا ، ولذلك فإنهم هم المستفيدون من المبارزة .

وبينما الناس ينتظرون التكبيرة الرابعة إذ قام صاحب رجالة بني نهد قيس بن جذيمة بن جرثومة ، فقال : يابني نهد انهدوا فإنما سميتم نهدا لتفعلوا ، فبعث إليه خالد بن عرفطة ، والله لتكفنَّ أو لأولِّين عملك غيرك، فكفَّ [2] .

وهذه نظرة حزم وانضباط من خالد بن عرفطة ، فإن سعدًا لم

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٦ .

(٢) المرجع السابق ٣/ ٥٣٧ .

يؤخر التكبيرة الرابعة إلا لحكمة يقتضيها الموقف ، ولعل من ذلك أن تتكشف نقاط الضعف في جيش الأعداء ، ولعل من ذلك أيضًا أن يبرز دور أبطال المسلمين في مبارزة الأعداء ، ومطاردتهم وفي ذلك تنشيط للمسلمين وتخذيل للكافرين وإذا التحم المسلمون بأجمعهم مع الأعداء لم تظهر هذه البطولات إلا لعدد محدود من الناس .

وهذا الهدف جاء التصريح به في كلام سعد السابق حيث يقول: «ولينشِّط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا » وقد برزوا وطاردوا وكانت الغلبة لهم ، وظهر فشل الفرس في مجالي المبارزة والمطاردة ، وهذا ماكان الفرس يتحاشونه في قتالهم مع المسلمين في كل لقاء .

ولما رأى رستم تفوق المسلمين لم يمهلهم حتى يكملوا خطة قائدهم في المزيد من حرب المطاردة والمبارزة ، بل أمر جانبًا من قواته بأن تهجم هجومًا عامًا على جانب جيش المسلمين الذي فيه قبيلة بجيلة ومن لَفَّ معهم ، وكان الهجوم ملفتًا للنظر لأن الفرس وجهوا ما يقرب من نصف الجيش إلى قطاع لايمثل إلا نسبة قليلة من الجيش الإسلامي ، وهذا يدل على محاولتهم المستميتة لقطع حرب المبارزة والمطاردة التي فشلوا فيها.

وهكذا هجم الفرس على أحد جناحي جيش المسلمين بثلاثة عشر فيلا وكل فيل يصحبه حسب تنظيم جيشهم أربعة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان ، ففرقت الفيلة بين كتائب المسلمين وكان الهجوم مركزًا على بجيلة ومن حولهم وثبت المشاة من أهل المواقف لهجوم الفرس.

وأبصرهم سعد فأرسل إلى بني أسد يقول لهم : ذَبِّبُوا عن بجيلة

ومن لاقَّهـا من الناس ، فخرج طليـحة بن خويلد وحَمَّـال بن مالك وغالب ابن عبد الله والربّيل بن عمـرو في كتائبهم ، يقول المعرور بن سويد وشقيق : فشَدُّوا والله عليهم فمازالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبسنا الفـيلة عنهم، فأُخِّرت وخرج إلى طليحـة عظيم منهم فبارزه، فما لبَّثه طليحة أن قتله .

ذكر ذلك الإمـام الطبري [1] وذكـر في رواية أخرى أن فـارس لما رأوا ما تلقى الفـيلة من كتيـبة أسد رموهـم بحدِّهم ، وبدر المسلمين الشَّدَّة عليـهم ذو الحاجب والجالنوس [وهما قائـدان من قادة الفرس] والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعـد ، فاجتمعت حلبة فارس على أسـد ومعهـم تلك الفيلة ، وقـد ثبتـوا لهم ، وقد كـبَّر سـعد الرابعة، فزحف إليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسد .

وحملت الفيول من الميمنة والميـسرة على خيول المسلمين، فكانت الخيول تحجم عنهـا وتحيد ، وتلح فرسانهم على المشاة ليـدفعوا بالخيل لتُقْدم على الفيلة .

فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو فـقال : يامعشر بني تميم ألستم أصحاب الإبل والخيل ؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ قالوا : بلى والله، ثم نادى في رجال من قـومه رماة ، وآخرين لهم ثقـافة[يعني حذق وخفة حركة] فقال لهم : يامعشر الرماة ذُبُّوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل ، وقال : يامـعشر أهل الثقافـة استدبروا الفيلة فـقَطِّعوا وُضُنَها [يعني آحزمتها لتسقط توابيتها التي تحمل المقاتلين] وخرج يحميهم ، والرَّحى تدور على أسـد ، وقد جالت الميـمنة والميسـرة غير بعـيد ،

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٨ - ٥٣٩ .

وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذنابها وذباذب توابيتها [يعني مايعلق بها] فقطعوا وُضنها وارتفع عواء الفيلة فما بقي لهم يومئذ فيل إلا أُعْرِيَ، وقُتل أصحابها ، وتقابل الناس ونُفِّس عن أسد، ورَدُّوا فارس عنهم إلى مواقفهم فاقتتلوا حتى غربت الشمس ، ثم حتى ذهبت هدأة من الليل ، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء ، وأُصيبَ من أسد تلك العشية خمسمائة ، وكانوا ردءًا للناس، وكان عاصم [يعني وبني تميم] عادية الناس وحاميتهم ، وهذا يومها الأول وهو يوم أرماث(١) .

وهكذا انتهى اليوم الأول بما فيه من شدائد ومفاجآت ، وكانت فيه مواقف تذكر لأبطال المسلمين ، ومواقف تذكر لقادتهم .

فمما ذُكر لقائد المسلمين سعد رضي الله عنه أنه كان يقظًا متنبهًا لما يجري في ساحة المعركة ، وأنه كان يتصرف في الوقت المناسب بما يناسب المقام ، وكان لموقعه المُشْرف من القصر ما يساعد على رؤية مايجري بوضوح ، ولئن كان الذي أقعده عن المشاركة في القتال هو المرض فإني أعتبر أن هذا المرض رحمة من الله تعالى بذلك الجيش ليتم إشراف القائد عليه وهو يرى كل جزئية فيه ، ولقد كان هذا الوضع هو المفترض حتى لو كان سعد صحيحًا في مثل هذه المعركة الكبيرة والجيش المترامي الأطراف، فإنه لو قادهم من الميدان لم يدرك كل مايجري ولفاتت أمور تحتاج إلى علاج فوري ، ومن هذه الأمور ماقام به الفرس من توجيه ثلاثة عشر فيلاً بصحبتها اثنان وخمسون ألف مقاتل إلى قبيلة بجيلة التي يبلغ عددها ألفين ومن معها من

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٩ - ٥٤٠ .

القبائل الصغيرة ، فلولا ما ألهم الله به سعدًا من تصرف حكيم لأُبيد هذا الجزء من الجيش ، ولكن سعدًا أبصر ذلك فأمر قبيلة أسد بالدفاع عن بجيلة وصد الفرس ، ولقد كان بإمكان قبيلة أسد أن تساند بجيلة لكن لن تفعل ذلك بالمستوى الذي قامت به لما أمرها القائد العام .

ومما يدل على مبلغ تأثير أمر سعد على بني أسد ماكان من زعيمهم طليحة بن خويلد فقد قال لقومه يومئذ : ياعشيرتاه إن المنوَّه باسمه الموثوق به، وإن هذا لو علم أن أحدًا أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم ،ابتدؤوهم الشدَّة ، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحَرِبة فإنما سُمِّيتم أسدًا لتفعلوا فعله شدُّوا ولاتصدوا ، وكُرُّوا ولاتفروا ، لله در ربيعة أيُّ فَرْيٍ يفرون ، وأيُّ قِرنٍ يغنون ، هل يوصل إلى مواقفهم ! فأغنوا عن مواقفكم أغناكم الله ، شدوا عليهم باسم الله[1] .

ولقد كان لهذا الكلام مفعول عجيب في نفوس قومه حيث تحولوا إلى طاقات فعالة ، وتحملوا وحدهم رحى المعركة إلى أن ساندهم بنو تميم، وقدموا في هذا اليوم خمسمائة شهيد .

ثم لما استحكم الأمر وادلهمَّ على بني أسد ، ووجه إليهم الفرس قائدهم بهمن جاذويه ومعه خمسة أفيال وعشرين ألف مقاتل ، لم يتركهم سعد بل وجه إلى عاصم بن عمرو زعيم بني تميم ليثير فيه مسئولية تحمُّل الدفاع عن بني أسد ومحاولة تعطيل سلاح الفيلة ، وكان لهذه الثقة الكبيرة التي أولاه إياها سعد أثر بالغ فيما جرى من النتائج المحمودة لأن شعور الإنسان بأنه المسئول الأول عن القضية يجعله يفكر فيها بما لايفكر به الآخرون ، ومع الاعتصام بالله تعالى

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٣٨ - ٥٣٩ .

أولاً والتعمُّق في التفكير ثانيًا يتفتق الذهن عادة عن الحلول المناسبة للمشكلة ، وهذا ماحصل لعاصم حيث ابْتكر الطريقة السالفة الذكر لتعطيل الفيلة وقضى هو وقومه على راكبيها .

مواقف بطولية في اليوم الأول :

لقد جرت في اليوم الأول من أيام معركة القادسية مواقف بطولية .

فمن ذلك موقف الأبطال من قبيلة بجيلة ومن معهم من النخع وكندة وغيرهم حيث رماهم الفرس بثقلهم ففرت خيلهم من الفيلة وثبت المشاة في وجه الفرس حتى ساندتهم قبيلة أسد .

ثم مواقف الأبطال من قبيلة أسد فقد وجهوا ثقلهم لحرب الفيلة ومن عليها وصمدوا لها صمودًا مذهلا يدل على شجاعة عالية وإيمان قوي، ولم يثن من عزائمهم سقوط المئات من الشهداء بين أرجلهم ، وإن ثبات رجال هذه القبائل وعدم فرارهم مع هذا الوضع الهائل الذي صبَّه عليهم الفرس لدليل على عظمة المسلمين الصادقين، وأنهم هم رجال المواقف حقًا .

ثم ما قام به بنو تميم بقيادة عاصم بن عمرو من التصدي للفيلة بقطع أحْزِمَتها وإلقاء التوابيت من فوقها التي كانت مملوءة بالمقاتلين والقضاء عليهم، وإن الوصول إلى الفيلة بحدٍّ ذاته مطلب عسير ، ومزلق خطير، فمع ماعرف عن الفيلة من مقدرة على القتال ، وصعوبة بالغة في إصابة مَقاتِلها فإن كل فيل حوله أربعة آلاف مقاتل من الفرسان والمشاة ،فإذا علمنا أن عدد الفيلة التي سيواجهها بنو تميم بعد انضمام بهمن جاذويه إلى الهجوم ثمانية عشر ، وأن عدد المقاتلين

حولهـا اثنان وسبعـون ألفًا فإننا نعـلم ضخامـة المهمة التي توجـه لها عاصم بن عمرو ومن انتخبهم من قومه من الرماة الذين كانت مهمتهم مشاغلة المقاتلين حول الفيلة ومن الذين اختارهم من الشجعان الحاذقين للوصول إلى مـؤخرة ا لفـيلة لتنفيـذ المهمة ، ولعله قـام بهذه المهـمة باختراق هذه المجـموعات واحدة بعد الأخرى لأن مهـمته التي تولاها هي حماية المجموعة التي تتولى الهجوم على مؤخرة الفيلة وهي مهمة أصـعب من مهـمـتهم ، فلـله درهم من أبطال مـغاوير ! مـا أعظم جسارتهم ! وما أبعد أثرهم !

لقـد ولَّت الفيلـة هاربة ولها عـواء ، وانشـغل الفرس بإصـلاح توابيتهـا ليلة ويومًا ، واستراح منها المسلمـون في اليوم الثاني من أيام المعركة .

وانتهى اليـوم الأول ، فماذا كان عـمل المسلمين في الليل ؟ لقد كان من رحـمة الله بهم أن توقفت المعـركة ليتـفرغوا لنقل شـهدائهم ودفنهم، ونقل الجـرحى إلى مـسـتشـفى الحـرب ، وأين مـوقع هذا المستـشفى ؟ إنه في «العُذَيب» حـيث تقيم نساء المجـاهدين الصابرات المحتسبات ، فيتلـقَّين الجرحى ويتولَّين علاجهم وتمريضهم إلى أن يتم قضاء الله فـيهم ، ومع ذلك فإن لهن مهمةً أعـجب من ذلك يشترك معهن فـيها الصبيان ألا وهي حـفر قبور الشهـداء ، ولئن كان تطبيب الجرحى وتمريضهم من المهـمات القريبة المنال للنساء فـإن حفر الأرض من المهمات الخـشنة ، ولكن الرجال كانوا مشغولين بالجـهاد ، فلْتقُم النسـاء بمهمـتهم عند الضـرورة ، وهنَّ أهلٌ لذلك لما يتصـفن به من الإيمان والصبر .

وتم نقل الشهداء إلى وادي مشَرِّق بين العذيب وعين الشمس في جانبيه جميعًا [1] .

وكان التحاجز بين المسلمين وأعدائهم تلك الليلة فرصة لزيارة بعض المجاهدين لأهلهم في العذيب .

ومما ذكر من الأخبار في ذلك مما فيه عبرة ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن الشعبي قال: كانت امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القادسية ، فقالت لبنيها : إنكم أسلمتم فلم تبدِّلوا ، وهاجرتم فلم تثوبوا[2]، ولم تَنْبُ بكم البلاد[3] ، ولم تُقحمكم السَّنَة[4]، ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره ، فأقبلوا يشتدُّون ، فلما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء وهي تقول : اللهم ادفع عن بَنيَّ، فرجعوا إليها وقد أحسنوا القتال ماكُلِمَ[5] منهم رجل كَلْما[6] .

وهكذا تكون المؤمنات ، فهذه المرأة تحب بنيها حبًا ملأ جوانحها، ولكن حبها لبنيها لم يحملها على منع الخير عنهم ، فالخير كل الخير في أن يجاهدوا في سبيل الله تعالى لمصلحتهم الخاصة في رفع درجاتهم ، ولمصلحة الأمة الإسلامية إذا أضيف إلى مجاهديها أربعة ليوث، يدافعون عن حرماتها وينشرون دين الإسلام في الأرض ،

---

(١) الطبري ٣/ ٥٤٢ - ٥٥٠ .

(٢) يعني فلم ترجعوا عن هجرتكم .

(٣) يعني ولم يستثقلكم الناس .

(٤) أي ولم يضعفكم القحط والجوع .

(٥) يعني لم يجرح .

(٦) تاريخ الطبري ٣/ ٥٤٤ .

ولكن كيف تجمع بين حبها المفرط لبنيها وحبها الخير لهم ولأمتهم ؟

إن السبيل هو ماسلكته من دفع بنيها إلى الجهاد ، والتضرع إلى الله تعالى في نفس الوقت بأن يدفع عن بنيها ويردَّهم إليها سالمين .

ولقد علم الله سبحانه صدق نيتها في حب الأمرين فجمعهما لها، وهو سبحانه القريب إلى عباده المتقين .

ويشبه خبر هذه المرأة ماجرى للخنساء مع بنيها الأربعة في دفعهم إلى الجهاد، فقد زارها بنوها تلك الليلة فقوّت من عزائمهم وحثتهم على التعرض للبأس الشديد من القتال ،وكان مما قالت لهم : فإن أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين ،فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين ،فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرت عن ساقها،واضطرمت لظًى سياقها وحلَّلت ناراً على أرواقها [جوانبها] فتيمموا وطيسها [وسطها] وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها [جيشها] تظفروا بالغنم والكرامة ، في دار الخلد والمقامة(١) .

وإنها لكلمات بليغة جمعت بين عمق المعنى ومتانة المبنى ، ولا عجَب في ذلك فإن الخنساء شاعرة مجيدة .

ولقد ضربت بهذا السلوك مثلا عاليًا للأم المؤمنة ، فلقد دفعت ببَنيها إلى مواطن الشهادة وهي أحوج ماتكون إليهم لكبَر سنها، ولكنها لرسوخ إيمانها تشعر بأن ماتنتظره عند الله تعالى في دار كرامته أعظم وأبقى .

وهكذا فلتكن النساء المؤمنات ، فإن لم يبلغن هذا الحد من

---

(١) الاستيعاب ٤/ ٢٨٩ .

التضحية فليكنّ كالمرأة النخعيـة السالفة الذكر ، التي دفعت ببنيها إلى الجهاد وسألت الله عز وجل أن يحفظهم لها .

ولئن خلَّد التاريخ ذكر هاتين المرأتين فَلَكَمْ حَـوَتْ مضارب النساء في العُذَيب من نسـاء مؤمنات مضحـيات مُربِّيات ، وإن مـاقدَّمْنه من المجاهدين الذين ملئـوا ساحات القادسيـة بذلا وتضحية ، وأصـبحوا مُثُلاً عالية لمن جـاء بعدهم . . إن ماقدَّمْنه من ذلك لدليل على صدق الإيمان وسمو التربية لديهن .

ولئن سكت التـاريخ عن تسطير مـآثرهن ومآثر كـثيـر من أبطال الإسلام ، فـإن ذلك كله مسـجل في تاريخ الخلود ، وسيـجدونه في كتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها .

يوم أغواث :

كان يوم أغواث هو اليوم الثاني من أيام القادسية . وفي ليلة هذا اليوم قدمت طليعة جيش الشام يقودهم القعقاع بن عمرو التميمي .

وقد كـان أميـر المؤمنين عمـر رضي الله عنه قد أمـر أميـر الشام أبـاعبيدة بإعادة جيش خـالد بن الوليد إلى العراق مددًا للمسلمين في القادسية، فـأعادهم وأبقى خـالدا عنده لحاجته إليه ، وولَّى عـلى هذا الجـيش هاشم بـن عتـبة بن أبـي وقاص ابـن أخي سـعد وكـان هـذا الجيش تسعة آلاف حـين قـدم من العراق إلى الشام بقيادة خالد وعـاد منهم إلى العـراق ستة آلاف، وقـد ولَّى هـاشم بن عتبـة القعـقاع بن عمرو على المقدمـة وعددهم ألف مجاهد، فأسرع القعـقاع حتى قدم بهم على جيش القادسية صبيحة يـوم أغـواث، وكـان أثـناء قـدومه قـد فـكر بعمل يرفع به مـن مـعنـوية المسلمين فقسم جيـشه إلى مائة قسم كل قسم مكوّن مـن عشرة ، وأمـرهـم بـأن يقـدمـوا تبـاعًا كـلما

غاب منهم عشرة عن مدى إدراك البصر سرّحوا خلفهم عشرة ، فقدم هو في العشرة الأوائل وصاروا يقدمون تباعًا كلما سرّح القعقاع بصره في الأفق فـأبصر طائفـة منهم كبّـر فكبر المسلمـون ونشطوا في قـتال أعدائهم، وهذه خطة حربية ناجحة لرفع معنوية المقاتلين، فإن وصول ألـف لايعـني مددًا كبيرًا لجـيش يبلغ ثلاثين ألفا ، ولكن هذا الابتكار الذي هدى الله القـعقـاع إليه قـد عوض نقص هذا المدد بما قـوّى به عزيمة المسلمين .

وقد بشرهم بقدوم الجنود بقوله : يا أيها الناس إني قد جئتكم في قوم والله إن لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حَظْوتها وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فـاصنعوا كما أصنع ، فـتقدم ثم نادى : من يبارز؟ فـقالوا فـيه بقـول أبي بكر : لايهزم جـيش فيهـم مثل هذا ، وسكنوا إليه، فخرج إليه ذو الحاجب [وهو قائد كبير من قادة الفرس وأبطالهم وهو الذي أصاب المسلمين يوم الجـسر] فقال له القـعقاع : من أنت ؟ [وكان لايعـرفه لأن القعـقاع يوم الجسر كـان في الشام] فقال: أنا بهمن جاذويه.

وهنا تذكّر القعقاع مصيبة المسلمين الكبرى يوم الجسر على يد هذا القائد فأخذته حميته الإسلامية فنادى وقال: يالَثارات أبي عبيد وسُلَيط وأصحاب الجـسر ، ولابد أن هذا القائد الفارسي بالرَغم مما اشـتهر به من الشجاعة قد انخـلع قلبه من هذا النداء ، فلقد قال أبو بكر رضي الله عنه عن القعقاع « لَصَوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل » فكيف سيثبت له رجل واحد مهمـا كان في الشجاعة وثبات القلب ؟ ولذلك لم يمهله القعـقاع أن أوقعه أمـام جنده قتيلا فكان لقـتله بهذه

الصورة أثر كبير في زعزعة الفرس ورفع معنوية المسلمين لأنه كان قائدًا لعشرين ألف مقاتل من الفرس .

ثم نادى القعقاع مرة أخرى : من يبارز ؟ فخرج إليه رجلان ، أحدهما البيرزان والآخر البندوان ، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان ابن الحارث أخو بني تيم اللات ، فبارز القعقاع بيرزان [وهو قائد مؤخرة الفرس ويتبعه أربعة وعشرون ألف مقاتل] فقتله القعقاع، وبارز ابن ظبيان بندوان وهو من أبطال الفرس فقتله ابن ظبيان .

وهكذا قضى القعقاع في أول النهار على قائدين من قادة الفرس الخمسة، ولاشك أن ذلك قد أوقع أربعة وأربعين ألف مقاتل من الفرس في الحيرة والاضطراب لفقد قائديهم إلى جانب إنكسار معنوية بقية الجيش الفارسي .

والتحم الفرسان من الفريقين ، وجعل القعقاع يقول : يامعاشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يُحصَد الناس بها، فتواصى الناس، وأسرعوا إليهم بذلك فاجتلدوا بها حتى المساء .

وذكر الرواة أن القعقاع حمل يومئذ ثلاثين حملة ، كلما طلعت قطعة حمل حملة وأصاب فيها وجعل يرتجز ويقول :

أُزعجهم عمدًا بها إزعاجا   أطعن طعنا صائبا ثجّاجا

أرجو به من جنة أفواجا

وكان آخر من قَتل بُزُرْجَمَهْر الهمذاني وقال في ذلك القعقاع :

حبوتُه جيَّاشةً بالنفس   هدَّارة مثل شعاع الشمس

في يوم أغواث فَلَيْلُ الفرس   أنخس بالقوم أشد النخس

حتى تفيض مَعْشَرِي ونفسي (١)

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٤٢ - ٥٤٧ .

وهكذا رأينا هذا البطل العظيم يطوي الأرض طيا بين الشام والعراق ليمد الجيش الإسلامي بنفسه ومن معه ، فيواصل الليل مع النهار، حتى إذا وصل وشاهد مايكابده المسلمون من قتال أعدائهم بادر إلى أشد نوع من القتال وهو المبارزة ، في الوقت الذي كان بحاجة إلى أن يأخذ قسطا من الراحة بعد سفر شاقّ طويل ، ولكن أنَّى له أن يستريح وهو يملك قلبًا كبيرًا يحمل همّ الأمة الإسلامية ومستقبل الإسلام .

ولله در أبي بكر رضي الله عنه حينما اكتشف في وقت مبكر عظمة هذا الرجل ومقدرته الحربية فبعثه وحده مددًا لخالد بن الوليد في العراق وقال عنه « لايُهزم جيش فيهم مثل هذا » وقال عنه «لَصَوتُ القعقاع في الجيش خير من ألف رجل » ، ولقد أثبتت الأيام صدق فراسة أبي بكر رضي الله عنه كما في هذه المعركة وماسبقها من معارك .

إن القعقاع بن عمرو وأصحابه بماقدَّموا ذلك اليوم لأصدق دليل على أن الله تعالى قد أودع في الجسم الإنساني طاقة ضخمة ولكن الإنسان العاديّ لايبذل إلا جزءًا من طاقته ، ولايمكن أن يوجد من يبذل طاقته الكاملة في القتال إلا المسلمون الذين صدقوا مع إسلامهم، لأنهم ينسون أنفسهم تمامًا في سبيل الدفاع عن دينهم وأمتهم الإسلامية، وهؤلاء يتفاوتون في بذل الطاقة حسب قوة إيمانهم .

وهذا بطبيعة الحال لايكفي عن التدريب البدني الطويل المتواصل، ولكن هذا التدريب متوفر لدى العرب منذ الجاهلية لكثرة مايقوم بينهم من الحروب ، وجاء الإسلام فحث المسلمين على ركوب الخيل والرماية والسباحة وغير ذلك من إعداد القوة البدنية ، مع مارسخ في

قلوبهم من العقيدة الإيمانية التي تجعل هدف المسلم الأعلى ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية ، فتجردوا لله تعالى ونسوا ذواتهم في سبيله جل وعلا، فأتوا بالعجائب ودوخوا الأمم وأقاموا دولة الإسلام العظمى ، لأنهم بلغوا الغاية في الأمرين : التدريب البدني ، والقوة الروحية .

فأما حين يحصل الضعف والخلل في الأمرين أو أحدهما فإن الإنسان لايبذل إلا جزءاً من طاقته ويهدر بقيتها لضعف الدوافع التي تدفعه لإبراز الطاقة المدخرة .

بطولات أخرى في هذا اليوم :

إضافة إلى بطولات القعقاع بن عمرو التميمي المذكورة فقد برزت في هذا اليوم مواقف بطولية تستحق الذكر والثناء ، فلقد جاء في تاريخ الطبري من رواية سيف بن عمر عن شيوخه أن رجلا من الفرس خرج ينادي : من يبارز ؟ فبرز له « علباء بن جحش العجلي» فنفحه علباء فأسحره [يعني أصابه في رئته] ونفحه الآخر فأمعاه [يعني أصابه في أمعائه] وخراً ، فأما الفارسي فمات من ساعته ، وأما الآخر فانتثرت أمعاؤه فلم يستطع القيام ، فعالج إدخالها فلم يتأت له حتى مر به رجل من المسلمين فقال: ياهذا أعنِّي على بطني ، فأدخله له ، فأخذ بصفاقيه [يعني جلد بطنه] ثم زحف نحو صف فارس مايلتفت إلى المسلمين ، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعًا من مصرعه إلى صف فارس وقال:

أرجو بها من ربنا ثوابا   قد كنت ممن أحسن الضِّرابا [1]

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٤٦ .

فهذا الفارس الصريع يزحف إلى جيش الأعداء وهو ممسك بطنه حتى لاتخرج أمعاؤه مرة أخرى ، وكأنه يعطي من نفسه نموذجًا لبذل آخر ما في الوسع والطاقة في قتال الأعداء ، وهو في أثناء زحفه يحتسب هذه الخطوات عند الله تعالى ،وهو منظر مَهيب مذهل لمن شاهده من الأعداء، فإنه لم يزحف نحو المسلمين ،ولو فعل لم يكن ملومًا فقد بذل مايجب عليه وأصبح عاجزًا عن القتال ،ولكنه زحف نحو الأعداء إمعانًا منه في تحديهم والنكاية بهم ، وتقربا إلى الله تعالى بتلك الخطوات ، وتقوية لعزائم المسلمين الذين مازالوا بكامل قواهم، وهذا نموذج من السمو الذي كانت الأمة الإسلامية تتمتع به في عصورها الزاهرة.

ومثل آخر يبين لنا ماكان يتمتع به أولئك الأعلام من مقدرة فائقة في القتال والخروج من الأزمات ، فقد روى الإمام الطبري من طريق سيف ابن عمر عن شيوخه : أن رجلا من أهل فارس خرج فنادى : من يبارز؟ فبرز له " الأعرف بن الأعلم العُقَيلي " فقتله ، ثم برز له آخر فقتله، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه ، وندر سلاحه عنه فأخذوه، فغبَّر في وجوههم بالتراب حتى رجع إلى أصحابه [1] .

فهذا البطلِ المقدام حينما سقط سلاحه واجتمع عليه عصابة من أهل الكفر حوّل تراب الأرض سلاحًا فصار يغبِّر في وجوه الأعداء وهو يتراجع إلى الوراء حتى لحق بأصحابه ، وهذا بقَدر مايُظهر أبطال المسلمين بمظهر الجمع بين الشجاعة النادرة والرأي الحصيف فإنه يظهر جنود الكفر بمظهر التخاذل والاشتغال بوقاية النفس حتى من غبارٍ ثائر، وذلك يُظهر الفرق الشاسع بين جنود الإسلام وجنود الكفر .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٤٦ .

وكان لأبناء الخنساء الأربعة مواقف فدائية في ذلك اليوم وسبق أن ذكرنا وصيتها لأولادها في ليلة ذلـك اليوم بأن يقصدوا مواطن البأس الشديد في القتال ، فلما غَدَوا ذلك اليـوم اندفعوا إلى القتال بحماس وقال كل واحـد منهم شعرًا حـماسيًـا يقوِّي به نفـسه وإخوانه فـقال أولهم:

يـاإخوتي إن العجوز الناصحة   قـد نصحَتْنا إذ دعتنا البارحـة
مـقالـةً ذات بـيـان واضـحة   فباكروا الحرب الضَّروس الكالحـة
وإنمـا تلـقـون عـنـد الصائحـة   مـن آل ساسان الكلاب النابحـة
قـد أيقـنوا منـكم بـوقع الجائحة   وأنتمُ بين حـيـاة وحيـاة صالحـة
أو مـيتة تُـورِث غُنمًا رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل ، فحمل الثاني وهو يقول :

إن العجـوز ذات حـزم وجَـلَـدْ   والنَّظر الأوفـق والـرأي السَّدَد
قـد أمـرتنا بالسداد والـرشـد   نـصيحـة مـنـهـا وبـرًّا بالـولـد
فباكروا الحرب حماة في العـدد   إمـا لـفـوز بـارد عـلى الكـبـد
أو ميتة تـورثكم عـزَّ الأبـد   في جـنة الفردوس والعيش الـرغد

وقاتل حتى استشهد ، وحمل الثالث وهو يقول :

والله لانعـصي العجـوز حـرفـًا   قـد أمـرتنا حـدبًا وعطـفـا
نصحا وبـرًّا صـادقـا ولـطـفـا   فبـادروا الحـرب الضَّروس زحـفا
حـتى تَلُفُّـوا آل كسـرى لفَّـا   أو يكشفوكم عن حماكـم كشفـا
إنا نـرى التقصير منكم ضعفـا   والقتـل فـيكم نجـدة وزلـفـى

وقاتل حتى استشهد ، وحمل الرابع وهو يقول :

لست لخنساء ولا للأخرم ولا لعمرو ذي السناء الأقدم
إن لم أرِدْ في الجيش جيش الأعجم ماض على الهول خِضَمٍّ خضرم
إما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة في السبيل الأكرم

وقاتل حتى استشهد ، فبلغ الخنساء خبر بنيها الأربعة ، فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته[1] .

هذه المرأة العظيمة التي بكت أخاها صخرًا ورثته بالأشعار المبكية دهرًا طويلاً في الجاهلية نجدها في الإسلام تدفع بنيها جميعًا إلى حِمَام الموت، ثم تقول هذا الكلام الإيماني الرفيع بعد استشهادهم ، وهذا شاهد من الشواهد الكثيرة التي تدلنا على التحول الكبير الذي طرأ على حياة الأمة الإسلامية بعدما دخلوا في الإسلام .

وفي هذا اليوم قام القعقاع بن عمرو وبنو عمه من تميم بمكيدة بالغة التأثير على الفرس ، وذلك أنه لما علم بما فعلته الفيلة في اليوم الأول بخيول المسلمين قام هو وقومه - بتوفيق من الله تعالى - بتهيئة الإبل لتظهر في مظهر مخيف يُنَفِّر الخيول فألبسوها وجلَّلوها ووضعوا لها البراقع في وجوهها ، وحملوا عليها المشاة وأحاطوها بالخيول لحمايتها ، وهجموا بها على خيول الفرس ، ففعلوا بهم يوم أغواث كما فعلوا بالمسلمين يوم أرماث، فجعلت تلك الإبل لاتصمد لقليل ولالكثير إلا نفرت بهم خيلهم وركبتهم خيول المسلمين ، فلما رأى

(١) الإستيعاب ٤/ ٢٨٩ .

ذلك الناس استنُّوا بهم، فلقي الفرس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث (١) .

وهكذا نجد أن المسلمين الأوائل يتفوقون على أعدائهم في الابتكار الحربي، فالفرس أنهكوا المسلمين في اليوم الأول بسبب استخدام الفيلة، ومادام المسلمون لايملكون الفيلة فليخترعوا مما يملكون من الإبل مايكيدون به الأعداء فكانت هذه الحيلة الحربية الممتازة التي أخافت خيول الأعداء فنفرت بمن عليها من الفرسان ، وهكذا يجب أن يكون المسلمون متفوقين في مجال الإعداد المادي بعد تفوقهم في الإعداد الروحي .

ليلة السواد :

مازلنا مع يوم « أغواث » وقد استمر القتال فيه إلى منتصف الليل، وسميت تلك الليلة ليلة السواد ، ثم وقف القتال بعد أن تحاجز الفريقان، وكان لوقف القتال منفعة كبيرة للمسلمين ، حيث كانوا ينقلون شهداءهم إلى مقر دفنهم في وادي « مُشَرِّق » ، وينقلون الجرحى إلى « العُذَيب» حيث تقوم النساء بتمريضهم .

ولقد شارك في القتال في هذه الليلة لأول مرة أبو محجن الثقفي .

قال ابن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه : فقالوا : ولما اشتد القتال بالسواد(٢) ، وكان أبو محْجَن قد حُبس وقُيِّد ، فهو في القصر، فصعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقيله ، فزبره وردّه ، فنزل

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٤٥ .

(٢) اي ليلة السواد .

فأتى سلْمَى بنت خَـصَفَة ، فـقال : ياسلمى يابنت آل خَصَـفة ، هل لك إلى خير؟ قالت: وماذاك ؟ قـال: تخلِّين عنِّي وتُعيرينني البَلقاء ، فلله عليَّ إن سلَّمني الله أن أرجع إليك حتى أضعَ رجلي في قَيْدي ، فقالت: وماأنا وذاك ! فرجع يرسُف في قيوده ، ويقول :

كَفَى حزَنًا أن تَـرْدِيَ الخَيْلُ بالقَنا[1] وأُتركَ مشدودًا عـليَّ وثـاقـيـا

إذا قُمْتُ عَنَّاني الحديدُ وأُغلقتْ مصاريعُ دوني قد تُصمُّ المُناديـا

وقد كنتُ ذا مال كثير وإخْـوَةَ فقد تركوني واحدًا لا أخـا ليَـا

ولله عَـهْدٌ لا أخـيسُ بعـهـده لئن فُرِجَتْ ألاَّ أزورَ الحـوانيـا

فقالت سَلْمى : إنِّي استخرتُ الله ورضيتُ بعهدك، فـأطلقَتْه. وقـالت: أمَّا الفَـرَس فلا أعـيرها ، ورجـعتْ إلى بيتـها، فـاقتـادها فأخرجها من باب القصر الذي يلـي الخندق فركبها ، ثم دبّ عليها ، حتى إذا كان بحـيال الميمنة كبَّـر ، ثم حمل على ميسـرة القوم يلعب برمحـه وسلاحـه بين الصّفَّين ، فـقالوا : بسـرجها ، وقـال سعـيد والقـاسم : عُـريًا ، ثم رجع من خلف المسلمين إلى المـيسـرة فكبَّـر وحمل على ميمنة القوم يلعب بين الصّفَّين برمحه وسلاحه ، ثم رجع من خلْف المسلمين إلى القلب فندَر أمـام النَّاس ، فحـمل على القوم يلعب بين الصّفين برمحه وسلاحه ، وكان يـقصف الناس ليلتئذ قصْفًا منكرًا وتعجب الناس منه وهـم لايعرفونه ولم يروهْ من النَّهار ، فـقال بعضهم : أوائل أصحاب هاشم أو هاشم نفسه وجعل سعد يقول وهو مُشـرف على النَّاس مُكبّ من فـوق القصـر: والله لولا مَحْـبس أبي محْجَن لقلتُ : هذا أبو محْجن وهذه البلقاء! وقال بعض الناس : إن

(١) يعني الرماح .

كـان الخَضِـر يشهـد الحروب فنظنّ صـاحب البلقاء الخَـضر ، وقـال بعضهم: لَولا أنّ الملائكة لاتُباشر القتال لقلنا : مَلَكٌ يثبّتنا ، ولايذكره الناس ولا يأبهـون له ، لأنَّه بات في محـبسـه ، فلما انتـصف الليل حاجز أهل فـارس،وتراجع المسلمون ، وأقبل أبو محْـجَن حتى دخل من حـيث خرج ،ووضع عن نفـسه وعن دابتـه ، وأعاد رجلَيْـه في قيديه، وقال :

لـقـد علمَتْ ثَقيفٌ غيرَ فَخْـر بأنّـا نحـن أكرَمُـهم سيُـوفًا

وأكـثَرُهُم دُروعًا سـابغَـات وأصبَرُهم إذا كَرهوا الـوُقُوفـا

وأنّا وَفـدُهـم في كـل يـوم فإن عَمـيُوا فَسَل بهمُ عَريـفًا

وليلةَ قـادسٍ لم يَشْعُـروا بي ولم أُشْعِرْ بمَخْرَجي الـزُّحُـوفَا

فإن أُحْبَسْ فـذلكُـمُ بـلائي وإنْ أتـرك أذيقُـهُمُ الحُـتوفا

فـقالت له سلْمى : يا أبا مـحْـجَن ، في أيّ شيء حبـسك هذا الرجل ؟ قال: أمـا والله ماحـبسني بحـرام أكلته ولاشربتـه ، ولكنّي كنت صاحبَ شراب في الجاهليَّة ، وأنا امـرؤ شاعر يدبّ الشعر على لساني، يبعثه على شفتي أحيانًا ، فُيساء لذلك ثنائي،ولذلك حبسني، قلت:

إذا متُّ فادْفنِّي إلى أصـل كَـرْمَـة تُرَوِّي عظامي بعـد مـوتي عُرُوقها

ولاتَـدْفـنَنِّي بالـفَـلاة فـإنني أخـافُ إذا مـا مـتُّ ألا أذوقـهـا

وتُرْوى بخمر الُحصِّ لَحدي فإنني أسيرٌ لها من بعد مـاقد أسوقُهـا

فلما أصـبحتْ سلمى أخـبرت سعـد بن أبي وقاص عن خـبرها وخبر أبي محجن ، فدعا به فأطلقه ، وقال : اذهب فما أنا مؤاخذك

بشيء تقوله حتى تفعله ، قال: لاجرم لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبدًا [١] .

فهذا موقف يذكر لأبي محجن الثقفي في الشجاعة وحسن الطِّراد وسرعة الحركة في الهجوم على الأعداء ، وقد شفع له جهده الكبير الذي بذله في الجهاد ، ووفاؤه حيث عاد وأدخل رجليه في القيد ، فعفا عنه سعد، وأطلقه ليكمل دوره الجيد في الجهاد ، وقد أفاد من هذا العفو وقابله بالحسنى حيث وعد بأن لايستجيب للسانه في قوله ما لايليق من الشعر .

وموقف لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يدل على بصره النافذ في الحرب ، فحينما رأى ذلك الفارس يتقلب بين الصفوف قال: والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء، وفي رواية أنه قال : الطِّراد طراد أبي محجن والضَّبح ضبح البلقاء ، وهذه نباهة عالية وإدراك حربي رفيع ، مع أن سعدًا لم يشاهد أبا محجن في الحروب إلا قليلاً .

وموقف آخر لسعد حينما عفا عن أبي محجن عما كان من تجاوز لسانه الذي وازن بينه وبين بلائه الكبير في الجهاد وحفظ العهد فرجح عمله الصالح ورجا من الله أن يعفو عنه بجهاده وأخلاقه .

أما نصف ليلة السواد الأخير فإن من أبرز ماجرى فيه أن القعقاع بن عمرو اغتنم الفرصة في التخطيط لخطة يرفع بها من معنوية المسلمين في يومهم القادم ، فلقد أمر أتباعه بأن يتسللوا سرًا ثم يقدموا في النهار تباعًا على فرق كل فرقة مائة مقاتل ، وقال لهم :

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٤٨ – ٥٥٠ .

إذا طلعت لكم الشمس فأقبلوا مائة مائة ، كلما توارى عنكم مائة فليتبعها مائة ، فإن جاء هاشم فذاك ، وإلا جددتم للناس رجاء وجِداًّ .

فلما ذرَّ قرن الشمس والقعقاع يلاحظ الخيل وطلعت نواصيها كبَّر وكبر الناس وقالوا : جاء المدد .

وقد تأسى به أخوه عاصم بن عمرو فأمر قومه أن يصنعوا مثل ذلك فأقبلوا من جهة « خفَّان » .

فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم بن عتبة في سبعمائة من جيش الشام ، فأخبروه برأي القعقاع وماصنع في يوميه ، فعبَّى أصحابه سبعين سبعين ، فلما جاء آخر أصحاب القعقاع خرج هاشم في سبعين معه[1] .

وهنا نقف قليلاً لنشيد بموقف هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فلقد قبل الأخذ بالرأي الأمثل في التخطيط الحربي فصنع بتفريق جيشه كما صنع القعقاع بن عمرو ، ولم يمنعه اعتبار النفس والمنصب من أن يأخذ برأي قائد من قواده ، بل كان رجلاً من الرجال الذين تخرجوا في مدرسة التربية النبوية ، فأصبحوا يُلغون ذواتهم ومصالحهم الخاصة في سبيل مصلحة الإسلام ومصلحة المسلمين العامة ، وهذا من أهم أسباب نجاحهم في إقامة الدولة الإسلامية الكبرى ، والقضاء على قوى العالم آنذاك .

أما الفرس فإنهم باتوا يعالجون توابيت الفيلة التي تحطمت في اليوم الأول ، وبسبب ذلك غابت الفيلة في اليوم الثاني ، فكان غيابها

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٥١ .

مع قدوم القعـقاع بن عمرو ومـاقام به من شجاعة وابـتكارات حربية سببًا في تفوق المسلمين في اليوم الثاني .

يوم عمَاس :

أما اليوم الثالث وهو يوم « عِمَاس » فقـد قدَّم الفرس فيه فيلتهم بتخـطيط جديد تلافـوا به ماكان في الـيوم الأول من قطع حبـالهم ، فجعلوا مع كل فيل رجالاً يحمونه ومع الرجال فُرسانٌ يحمونهم .

وظل المسلمون يقامون الفيلة والمقاتلين من فوقها وحولها ، ولقوا منها عنتًا شديدًا .

ولما رأى سعـد بن أبي وقاص رضي الله عنه مـا يلاقي المسلمون منها أرسل إلى مسلمي الفرس الذين كـانوا مع جيش المسلمين يسألهم عن الفيلة هل لها مـقاتل ؟ فقالوا : نعم المشافر والعيـون لاينتفع بها بعدها ، فأرسل إلى القعقاع وعاصم بْنَي عـمرو وقال لهما : اكفياني الفيل الأبيض- وكانت كلها آلفة له وكان بإزائهما - وأرسل إلى حمَّال ابن مالك والرِّبِّيل بن عمرو الأسديين فقال: اكفياني الفيل الأجرب ، وكانت آلفة له كلها وكـان بإزائهما ، فأخذ القعقاع وعاصم رُمـحَيهما ودبَّا إليه في كتيبة من الفرسان والرجـال ، فقالا لمن معهما : اكتنفوه لتحيـروه فأصبح الفيل ينظر يمـنة ويسرة متحيـرًا ممن حوله ، ودنا منه القعقاع وعاصم فحملا عليه وهو متـشاغل بمن حوله فوضعا رمحيهما معًـا في عيـني الفيل الأبيض ، ونفض رأسـه فطرح سائسـه ، ودلَّى مشفره ، فنفحـه القعقاع بسيفه فرمى به ، ووقع لجنبـه فقتلوا من كان عليه .

وحمل حـمَّال بن مـالك وقال للرِّبِّيل بن عـمرو : اختـر إما أن

تضرب المشفر وأطعن في عينه أو تطعن في عينه وأضرب مشفره ، فاختار الضرب ، فحمل عليه حمال وهو متشاغل بملاحظة من اكتنفه لايخاف سائسه إلا على بطانه [وذلك لأن المسلمين قطعوا ذلك منها في اليوم الأول] فانفرد به أولئك فطعنه حمَّال في عينه فأقعى على خلفه ، ثم استوى ، ونفحه الربيل بن عمرو فأبان مشفره ، وبصُر به سائسه فضرب جبينه وأنفه بحديده كانت معه وأفلت منها الربيل وحمال .

وصاح الفيلان صياح الخنزير ، وكانت الفيلة تابعة لهما فرجعت على الفرس ورجعت معها الفيلة تطأ جيش الفرس حتى قطعت نهر العتيق وولَّت نحو المدائن وهلك من كان عليها[1] .

وهكذا أنقذ الله المسلمين بهؤلاء الأربعة الأبطال ومن كان معهم من المساعدين لهم ، وردَّ الله كيد الفرس للمرة الثانية ، وأبطل مفعول سلاحهم الأكبر ، سلاح الفيلة ، هذه المخلوقات العظيمة التي هي أشبه ما تكون بالجبال المتحركة .

ولاشك أن الفضل - بعد الله تعالى - يعود إلى قائد المسلمين سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه حيث أبصر البلاء الذي وقع على المسلمين من الفيلة فسأل مسلمي الفرس عن مقاتلها ، كما أنه أدرك ببصره الحادِّ وبصيرته النافذة أن جميع الفيلة تتبع اثنين منها ، فكلَّف أربعة من أبطال المسلمين بالقضاء عليهما ، وتم ما أراد فكانت الفيلة وبالاً على الفرس بعدما كانت سلاحًا فتاكا في أيديهم .

ولما خلا الميدان من الفيلة زحف الناس بعضهم على بعض واشتد

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٢ - ٥٥٦ .

القتال بينهم ، وكـان لدى الفرس جيش احتـياطي من أهل النجدات والبأس ، فكلمـا وقع خلل في جيـشهم ، أبلغوا "يزدجـرد" فأرسل لهم من هؤلاء .

قال الرواة : فلولا الذي صنع الله للمسلمين بالـذي ألهم القعقاع في اليومين وأتاح لـهم بِها شِم [١] كسر ذلك المسلـمين ، وقد انتهى ذلك اليوم والمسلمون وأعداؤهم على السواء [٢] .

بطولات أخرى جرت في هذا اليوم :

وجرت في هذا اليـوم بطولات ومغـامرات ، فمن ذلك مـاذكره الطبري بإسناده عن الشـعبي قال : قـال عمرو بن مـعد يكرب : إني حامل على الفـيل ومن حوله - لفيل بإزائهم - فلا تَدَعـوني أكثر من جزرجزور [يعني نحـر الناقة] فإن تأخرتم عني فـقدتُم أباثور ، فأنَّى لكم مـثل أبي ثور! فإن ادركـتمـوني وجدتموني وفي يدي السـيف ، فحمل فما انثنى حتى ضرب فيـهم ، وستره الغبار ، فقال أصحابه : ماتنتظرون ؟ مـاأنتم بخلقاء أن تدركوه ، وإن فـقدتموه فقـد المسلمون فارسهم ، فحملوا حملة فأفرج المشركون عنه بعدما صرعوه وطعنوه ، وإن سيـفه لفي يده يضـاربهم وقد طُعن فرسـه ، فلما رأى أصـحابه وانفـرج عنه أهل فـارس أخـذ برجْل فـرس رجل من أهل فـارس ، فحركه الفارسي فاضطرب الفرس فـالتفت الفارسي إلى عمرو ، فهمَّ به وأبصره المسلمون ، فغَشُـوه ، فنزل عنه الفارسي ، وحاضر [يعني أسرع] إلى أصحـابه ، فقال عمرو : أمكنوني من لجـامه ، فأمكنوه منه فركبه[٣] .

---

(١) يعني بوصول هاشم بن عتبة وجيشه .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٢ .

(٣) المرجع السابق ٣/ ٥٥٤ .

وهذا نموذج رفيع من نماذج الشجاعة والثبات حيث ظل يقاوم مجموعة من الأعداء حتى بعدما فقد فرسه وأصيب في بدنه .

ومن البطولات التي جرت من المسلمين في اليوم الثالث من أيام القادسية ماروواه الإمام ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: لما كان يوم « عمَاس » خرج رجل من العجم حتى إذا كان بين الصفين هدر وشقشق ونادى : من يبارز ؟ فخرج رجل منا يقال له شَبْرَ ابن علقمة - وكان قصيرًا قليلاً دميمًا - فقال : يامعشر المسلمين قد أنصفكم الرجل ، فلم يجبه أحد ولم يخرج إليه أحد فقال : أما والله لولا أن تزدروني لخرجت إليه ، فلما رأى أنه لايُمنع أخذ سيفه وحجفته [يعني ترسه] وتقدم ، فلما رآه الفارسي هدر ، ثم نزل إليه فاحتمله فجلس على صدره ، ثم أخذ سيفه ليذبحه ، ومقود فرسه مشدود بمنطقته، فلما استل السيف حاص الفرس حيصة فجذبه المقود فقلبه عنه، فأقبل عليه وهو يُسْحب فافترشه ، فجعل أصحابه يصيحون به ، فقال : صيحوا مابدا لكم ، فو الله لا أفارقه حتى أقتله وأسلبه ، فذبحه وسلبه(١).

وهكذا رأينا هذا الرجل المؤمن الذي تضاءلت فيه عناصر الكفاءة الحربية المادية فهو قصير ضعيف الجسم ، ومن كانت هذه حاله لايدخل مجالات الحرب الشاقة كالمبارزة حيث تتطلب هذه المجالات أجسامًا قوية طويلة ، ولكنه لما رأى خلو ذلك المكان من أبطال المسلمين دفعه إيمانه إلى التصدي لذلك المبارز الفارسي مع معرفته سلفا

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٤ .

بنقص كفاءته في هذا الميدان ، ولكن عزَّ عليه أن يتبختر ذلك الفارسي بين الصفين ولايبرز له أحـد ، وفي ذلك تقوية لموقف الأعداء وتوهين لموقف المسلمين، فبرز لـه ثقة بالله تعالى وتوكلا عليه ، وحـمل معه مايستطيعه من الأسباب المادية ، وفوض ماينقص منها لمولاه جل وعلا، فنصره تعالى بجنود لايراهم وإن كان يؤمن بهم ، فنفرت الفَرَس بأمر الله تعالى وسحبت صاحبها إلى حتفه المنتظر ، وكان في ذلك إنقاذ لهذا المؤمن وتمكين له ليقضي على عدوه .

وهكذا فإن الله تعالى دائمًا مع أوليائه المؤمنين إذا صدقوا معه، فإن هذا الخبر فيه أبلغ الدلالة على ذلك ، ولا يخطرنَّ بالبال أن هذا الأمر جرى بشكل طبيعي وأسباب لاعلاقة لها بنصر الله تعالى لأوليائه ، فإنه لو كان هذا الأمر معتادًا ويجري في حياة الناس لأعدَّ ذلك الفارسي للأمر عدَّته ولم يفرط في أمر يكون سببًا في هلاكه .

واستمر القتال في اليوم الثالث إلى الليل ، ثم حجز بينهم صوت طليحة بن خويلد الأسدي ، وكان قد التف من وراء جيش الفرس، ففزع لذلك الفرس وتعجب المسلمون ، فكف بعضهم عن بعض للنظر في ذلك، وكان سعد رضي الله عنه قد بعثه مع أناس لحراسة مكان يحتمل منه الخطر على المسلمين ، فتجاوز مهمته ، ودار من خلف الفرس وكبَّر ثلاث تكبيرات [1].

ولقد أفادت حركته هذه حيث توقفت الحرب وكان هناك فرصة لإعادة الصفوف والاستعداد لقتال الليل .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٥٨ - ٥٥٩ .

ليلة الهَرير :

بدأ القتال لـيلة اليوم الرابع : وقـد بدأ المسلمـون على عـادتهم بالمطاردة، وانبعث لذلك أبطال المسلمين من أمثال القعقاع وعاصم بْنَي عمرو ، ومسعود بن مالك الأسدي وابن ذي البُـردَين الهلالي وقيس ابن هُبَيرة الأسـدي ، ولكن الفرس في هذه الليلة قد غيـروا طريقتهم في القتـال، فقـد أدرك رستم أن جيـشه لايصل إلى مـستوى فـرسان المسلمين في المطاردة ولايقـاربهم ، فعزم على أن يـكون القتال زحـفًا بجمـيع الجيش حتى يتـفادى الانتكاسات الـسابقة التي سـببت تحطيم معنوية جـيشـه، فلم يخرج أحـد من الفرس ، وإنما قدمـوا جيـشهم وجعلوه ثلاثة عشر صفا في القلب والمجنَّبتين.

وبدأ القعقاع بن عمرو القتال وتبعه أهل النجدة والشجاعة قبل أن يكبر سعد ، فـسمح لهم بذلك واستغفر لهم ، فلـما كبر ثلاثًا زحف القادة وسائر الجيش ، وكـانوا ثلاثة صفوف ، صفًا فيـه الرماة وصفا فيه الفرسان وصفا فيه المشاة .

وكان القـتال في تلك الليلة عنيـفًا ، وقد اجـتلدوا من أول الليل حتى الصباح لاينطقون ، كلامهم الهرير ، فسمِّيت ليلة الهرير .

وقد أوصى المسلمون بعضهم بعـضًا على بذل الجهد في القتال لما يتوقـعونه من عنف الصـراع ، ومما رُوي من الأقوال في ذلك مـاذكر الإمام الطبري عن دريد بن كعب النخعي أنه قال لقومه : إن المسلمين تهيئوا للمزاحفة فاسبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد ، فإنه لايسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على قدر سبقه ، نافسوهم في الشهادة وطيبوا

بالموت نفساً، فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة ، وإلا فالآخرة ماأردتم.

وقال الأشعث بن قيس : يامعشر العرب إنه لاينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت ولا أسخى أنفسًا عن الدنيا ، تنافسوا الأزواج والأولاد ، ولاتجزعوا من القتل فإنه أماني الكرام ومنايا الشهداء .

وكان بإزاء قبيلة « جُعْفى » ليلة الهرير كتيبة من كتائب العجم عليهم السلاح التام ، فازدلفوا لهم فجالدوهم بالسيوف ، فرأوا أن السيوف لاتعمل في الحديد فارتدعوا ، فقال حميضة بن النعمان البارقي: مالكم؟ قالوا: لايجوز فيهم السلاح ، قال : كما أنتم حتى أريكم ، انظروا ، فحمل على رجل منهم فاستدار من خلفه فدق ظهره بالرمح، ثم التفت إلى أصحابه فقال: ما أراهم إلا يموتون دونكم ، فحملوا عليهم فأزالوهم إلى صفهم .

وكان بإزاء قبيلة كندة تُرْك الطبري [أحد قادة الفرس] فقال الأشعث بن قيس الكندي : ياقوم ازحفوا لهم ، فزحف لهم في سبعمائة فأزالهم وقتل قائدهم .

وكان القتال في تلك الليلة شديدًا متواصلاً .

وقام زعماء القبائل يحثُّون قبائلهم على الثبات والصبر.

ومما يبين عنف القتال في تلك الليلة ما أخرجه الإمام الطبري عن أنس بن الحليس قال : شهدت ليلة الهرير فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم حتى الصباح ، أُفرغ عليهم الصبر إفراغًا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ، ورأى العرب والعجم أمرًا لم يروا مثله

قط، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وسعد ، وأقبل سعد على الدعاء حتى إذا كان وجه الصبح انتمى الناس - يعني المسلمين - فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وأن الغلبة لهم[1].

وأخرج ابن جرير الطبري من خبر أبي الأعور بن بنان المنقري قال: أول شيء سمعه سعد ليلتئذ مما يستدل به على الفتح في نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول :

نحن قتلنا معشرًا وزائدا أربعة وخمسة وواحدا

نحسب فوق اللّبَد الأساودا[2] حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا

الله ربي واحترزت عامدا [3]

وهكذا بات سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يدعو الله تعالى تلك الليلة ويستنزل نصره ، ومما ينبغي الإشارة إليه أن سعدًا كان مستجاب الدعوة ، روى ابن الأثير بإسناده عن قيس بن أبي حازم أن رسول الله ﷺ قال : اللهم استجب لسعد إذا دعاك، وكان لايدعو إلا استجيب له ، وكان الناس يعلمون ذلك منه ويخافون دعاءه[4].

ولاشك أن دعاء سعد وأمثاله أمضى في الأعداء من السيوف القواطع، والسهام المسددة .

وقاتل المسلمون أعداءهم تلك الليلة حتى الصباح .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٩ - ٥٦٣ .

(٢) اللّبَد سرج الفرس ، والأساود الحيَّات ، يعني كنا نظن ان فوق خيول الفرس رجالا شجعانا.

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٢ .

(٤) أسد الغابه ٢/ ٢٩١ .

يوم القادسية :

أصبح المسلمون في اليوم الرابع وهم يقاتلون ، فسار القعقاع بن عمرو في الناس فقال: إن الدَّبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر ، فآثروا الصبر على الجزع، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء ، وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح .

ولما رأت ذلك القبائل قام فيها رجال ، فقام قيس بن عبد يغوث والأشعث بن قيس ، وعمرو بن معد يكرب وابن ذي السَّهمَين الخثعمي وابن ذي البُردَين الهلالي ، فقالوا : لايكونن هؤلاء [يعني السابقين] أجدّ في أمر الله منكم ، ولايكونن هؤلاء [يعني أهل فارس] أجرأ على الموت منكم ، ولا أسخى أنفُسًا عن الدنيا .

وقام في ربيعة رجال فقالوا : أنتم أعلم الناس بفارس وأجرؤهم عليهم فيما مضى ، فما يمنعكم اليوم أن تكونوا أجرأ مما كنتم[1] .

وهكذا يضيف القعقاع بن عمرو مأثرة جديدة من مآثره الكثيرة فقد جمع الله له بين الشجاعة النادرة ، والرأي السديد وقوة الإيمان، فسخر ذلك كله لنصرة الإسلام والمسلمين ، وكان قدومه في هذه المعركة فتحًا للمسلمين .

لقد أدرك القعقاع أن الأعداء قد نفد صبرهم بعد قتال استمر يومًا وليلة دون انقطاع ، وقبل ذلك لمدة يومين مع راحة قليلة ، وعرف بثاقب فكره وطول تجربته - بعد ملاحظة التوجيهات الإلهية - أن عاقبة المعركة مع من صبر بعد هذا الإجهاد الطويل .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٣ .

ولاشك أن الأعداء يدركون شيئًا من ذلك بحكم خبرتهم الطويلة في الحروب الكبيرة ، ولكنهم لايملكون الطاقة التي يملكها المسلمون لما تقدم بيانه من المزايا القتالية التي لاتتوفر في غير المسلمين .

وقد استجاب له جماعة من القادة الأبطال ثم تتابع على ذلك سائر القادة وأفراد الجيش ، واستطاع القعقاع ومن معه من الأبطال أن يفتحوا ثغرة عميقة في قلب الجيش الفارسي حتى وصلوا قريبًا من رستم مع الظهيرة ، وهنا تنزَّل نصر الله تعالى ، وأمدَّ أولياءه بجنود من عنده فهبَّتْ ريح عاصف وهي الدَّبور ، فاقتلعت طيارة رستم عن سريره ، وألقتها في نهر العتيق ، ومال الغبار على الفرس فعاقهم عن الدفاع .

وهكذا نجد أن نصر الله تعالى يتنزل على أوليائه في اللحظات الحاسمة بعد أن يبذل المسلمون كلما في وسعهم من طاقة وقوة، وإن اقتلاع سقف السرير الضخم الذي قد صنع وركِّب باحكام شديد ليدلنا على أن تلك الريح لم تكن عادية وإنما كانت موجهة من الله تعالى لإنهاء المعركة لصالح المسلمين ، فالفرس أمة محاربة منذ عشرات السنين وهم يدركون تأثير عوامل الجو ، وقد أعدوا لهذه المعركة مالم يعدوه لغيرها، ولا شك أنهم قد حصنوا ذلك المكان الذي يشرف منه رستم على قيادة المعركة بحيث لاتصل إليه الأيدي ولا السهام ولا عوامل الجو المعتادة، ولكن الله تعالى فوق تدبيرهم وفوق كل شيء وهو جل وعلا مع أوليائه المؤمنين إذا صدقوا معه ، وقد صدق معه أولئك المؤمنون فسخَّر لهم الريح العاصف لتقلب موازين المعركة ، فأتى الله تعالى أعداء دينه من حيث لم يحتسبوا .

وتقدم القعقاع ومن معه حتى عثروا بسرير رستم وهم لايرونه من الغبار ، وكان رستم قد تركه واستظل ببغل من البغال المحملة ، وضرب هلال بن عُلَّفة [1] أحد عدلَى البغل فوقع على رستم وهو لايشعر به فأزال من ظهره فقارًا ، وهرب رستم نحو نهر العتيق لينجو بنفسه ولكن هلالاً أدركه فأمسك برجله وسحبه ثم قتله ، وصعد السرير ثم نادى : قتلت رستم ورب الكعبة ، إليَّ ، فأطافوا به ومايرون السرير وكبَّروا وتنادوا ، وانهزم قلب الفرس .

أما بقية قادة المسلمين فإنهم تقدموا أيضًا فيمن يقابلهم وتقهقر الفرس أمامهم ، ولما علم الجالنوس بمقتل رستم قام على الرَّدم المُقام على النهر ونادى أهل فارس إلى العبور فرارًا من القتل فعبروا ، أما المقترنون بالسلاسل وعددهم ثلاثون ألفًا فإنهم تهافتوا في نهر العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم ، فما أفلت منهم أحد [2] .

وهكذا تحطمت معنوية الفرس ولاذوا بالفرار لما قُتل قائدهم ، واعتبروا أن المعركة انتهت لغير صالحهم بينما كانوا ثابتين في الأيام الثلاثة الأولى ، حتى بعد هزيمة الفيلة وفرارها ، وقد كانوا يعتمدون عليها في حروبهم الكبيرة .

أما المسلمون فإن معنويتهم لاتتحطم بقتل قادتهم ولايلجؤون إلى الفرار بل يثبتون أمام الأعداء ، وقد يختارون قائدًا لهم من أبطالهم كما في غزوة مؤتة لما استُشهد قادتهم الثلاثة .

وهذا يدل على أن هناك فرقًا جوهريًا بين جيش المسلمين وجيش

---

(١) هو من تيم الرباب .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٣ - ٥٦٤ .

الكفـار، فالمسلمـون لايقاتلـون من أجل البشـر ، وإن كانوا قـادتهم وزعمـاءهم ، وإنما يقاتلون من أجل رب البشـر جل وعلا، وهذا من لوازم فهمهم الصحيح لمعنى كلمة التوحيد ، وتطبيقهم مقتضاها .

فكل واحد منهم يبذل طاقته حرصًا منه على أن لايؤتى المسلمون من قبَله ، وليس للقائد مزية إلا بالتنظيم وتوجيه المعركة ، ويبقى كل فرد في الجيش الإسلامي له حرية التصرف في النكاية بالأعداء من غير تهور ينقلب إساءة إلى المسلمين ، بينما تحُول عـبادة العباد عند الكفار دون بذل الطاقة وحسن التـصرف عند فقد القـيادة أو بُعدها عن مكان المعركة، ولذلك نـرى نجاح المسلمين في هذه المعركة وغـيرها مع بعد المسافة بينهـم وبين القائد الأعلى في المدينة المنورة لعدم حاجـتهم إليه في كل التفاصيل، بينما يحتـاج أعداؤهم إلى اتصالات متكررة لمعرفة رأي من يعملون لهم.

نهاية المعركة :

تبين لنا أن المعركـة انتهت بتوفـيق الله تعالى ، ثم بجـهود أبطال المسلمين وحكمـة قادتهم ، وكانـت معركـة عنيفـة قاسيـة ثبت فيـها الأعداء للمسلمين ثلاثة أيام حتى هزمـهم الله في اليوم الرابع ، بينما كان المسلمون يهزمون أعداءهم غالبًا في يوم واحد ، وكان من أسباب هذا الثبات أن الفرس كانوا يعتبرون هذه المعركة معركة مصير، فإما أن تبقى دولتهم مع الانتصار ، وإمـا أن تزول دولتهم مع الهزيمة ولاتقوم لهم قائمة، كما أن من أسباب ثباتهم وجود أكبر قادتهم « رستم» على رأس القيـادة ، وهو قائد له تاريخ حـافل بالانتصارات عـلى أعدائهم إضافـة إلى تفوق الفرس في العَـدد والعُدد ، حيث كان عـدد الفرس

عشرين ومائة ألف من المقاتلين من غيـر الأتباع ، مع من كانوا يبعثهم يزدجرد مددًا كل يوم ، بينما كان عـدد المسلمين بضعة وثلاثين ألفا ، كما ذكر الإمام الطبري [1].

ومع ذلك كله انتصـر المسلمون عليـهم بعد أن قدمـوا خمســمائة وثمانية آلاف من الشهداء[2] .

وهذا العدد من الشهداء هو أكبر عدد قدمه المسلمون في معاركهم في الفتوح الإسلامية الأولى ، وكـونهم قدموا هذا العدد من الشهداء دليل على عنف المعركـة وعلى استبـسال المسلمين وتعرضهم للشـهادة رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين .

وأمر سعـد رضي الله عنه بمطاردة فلول المنهزمين فوكل القـعقاع ابن عمرو وشرحبيل بن الـسمط الكندي بمطاردة المنهزمين يمينًا وشمالا دون نهر العتيق ، وأمر زُهرة بن الحـوية بمطاردة الذين عبروا النهر مع قادتهم، وكان الفرس قد بثقوا النهر في الرَّدْم حتى لايستطيع المسلمين متابعتهم فاستطاع زهرة وثلاثمائة فارس أن يتجاوزوا بخيولهم وأمر من لم يستطع بموافاتهم من طريق القنطرة ، وكان أبعد قليلا ، ثم أدركوا القوم وكـان الجالينوس وهو أحد قادتهم الكبـار يسير في ساقـة القوم يحميهم، فأدركه زهرة فنازله فاختلفا ضربتين فقتله زهرة وأخذ سلبه، وطاردوا الفرس وقتلوا منهم ، ثم أمسوا في القادسية مع المسلمين[3] .

وفي ذلك اليـوم حدث أمـر عـجيب يدل على مـقـدار اهتمـام

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٦ - ٥٣٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٥٦٤ .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٥ / ٥٦٦ .

المسلمين الأوائل بأمور دينهم وما يُقَرِّبهم إلى الله تعالى ، فقد قُتل مؤذن المسلمين في ذلك اليوم وحضر وقت الصلاة ، فتنافس المسلمون على الأذان حتى كادوا أن يقتتلوا بالسيوف ، فأقرع بينهم سعد ، فخرج سهم رجل فأذن(1) .

وإن التنافس على هذا العمل الصالح ليدل على قوة الإيمان ، فإن الأذان ليس من ورائه مكاسب دنيوية ولا جاه وشهرة ، وإنما دفعهم إلى التنافس عليه تذكر ما أعده الله تعالى للمؤذنين يوم القيامة من أجر عظيم، وإن قومًا تنافسوا على الأذان سيتنافسون بطريق الأولى على ماهو أعظم من ذلك ، وهذا من أسرار نجاحهم في الجهاد في سبيل الله تعالى والدعوة إلى الإسلام .

كتاب من سعد إلى عمر :

وكتب سعد إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهما يخبره بالفتح مع سعد بن عُمَيلة الفزاري وجاء في كتابه : أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كانوا قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتال طويل، وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعُدَّة لم ير الراؤون مثل زهائها [يعني مقدارها] فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سَلَبَهموه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام ، وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان ، ورجال من المسلمين لانعلمهم ، الله بهم عالم ، كانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل دَويَّ النحل ، وهم آساد

---

(1) تاريخ الطبري ٣/٥٦٦ .

الناس لايشبههم الأسود ، ولم يَفْضُل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم[1] .

وإننا حينما نتأمل هذا الكتاب نجد أنه قد تحلى بتوحيد الله تعالى وتعظيمه والبراءة من حول النفوس وقوتها ، فالنصر على الأعداء إنما هو من الله تعالى وحده وليس بقوة المسلمين ، بالرغم مما بذلوه من الجهاد المضني والتضحية العالية .

وقوة الأعداء الضخمة ، ليس بقاؤها أو سلبها للبشر ، بل ذلك كله لله تعالى ، فهو الذي حَرَم الأعداء من الانتفاع بقوتهم ، وهو الذي منحها للمسلمين ، وإنما البشر مجرد وسائط يُجري الله النفع والضرر على أيديهم ، وهووحده الذي يستطيع دفع الضرر وجلب المنفعة سبحانه وتعالى .

وهكذا يكون الموحدون ،وهم الذين يستحقون النصر من الله جل وعلا .

ونجد سعدًا يصف الصحابة رضي الله عنهم ومن معهم من التابعين بالتفوق في العبادة والشجاعة ، فهم عُبَّاد في الليل لهم أصوات مدوِّية بالقرآن كأصوات النحل لا تكلُّ ولاتَمَل ، وفرسان في النهار لاتَصل الأسود الضارية إلى مستواهم في الإقدام والثبات .

وحسبنا هذه الشهادة في بيان فضل من حضر تلك المعركة مَن استشهد ومن بقي ، وهم بضعة وثلاثون ألفا ، لأنها شهادة صادرة من رجل شهد له رسول الله ﷺ بالجنة ودعا له وأثنى عليه كثيرًا .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٣ .

أما أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه فقـد زاد همه لما نزل رستم بالقـادسية خـوفًا علـى المسلمين ، جاء في تاريخ الطبـري من طريق سيف ابن عـمر عن مجالد بن سـعيد قال : لما أتى عَـمر بن الخطاب نزول رستم القادسيـة كان يستخبر الركبـان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهـار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله قال: فلما لقي البشير سأله من أين ؟ فأخبـره ، قال : ياعبد الله حدثني قال : هَزَم الله العدو، وعـمر يخُبُّ معه - يعني يسـرع - ويستخبـره ، والآخر على ناقته ولايعرفه ، حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلِّمون عليه بإمرة المؤمنين فقال: فـهلاَّ أخبرتني رحمك الله أنك أمـير المؤمنين ! وجعل عمر يقول: لاعليك ياأخي[1] .

وإن لنا أمام هذا النص وقفتين : الأولى أمـام هذا الاهتمام الكبير من عمـر رضي الله عنه الذي دفعه إلى أن يخـرج إلى البَرِّية كل يوم لعله يجد الركبـان القادمين من العراق فيسـألهم عن خبر المسلمين مع أعدائهم، وقد كان بإمكانه أن يوكِّل بهذه المهمـة غيره ممن يأتيه بالخبر ولكن الهمَّ الكبـير الذي كـان يحـمله للمسلـمين لايتيح له أن يفـعل ذلك، وهذا منتهى الرحمة والشعور بالمسئولية .

والوقفة الثانية أمـام هذا التواضع الجمِّ من عمر رضي الله عنه ، فقد ظل يسـير ماشيًا مع الراكب ، ويطلب منه خبـر المعركة ، وذلك الرسول لايريد أن يخـبره بالتفـاصيل حتى يصل إلى أمـير المؤمنين ، ولايدري أنه الذي يخاطبـه ويعدو معه ، حـتى عرف ذلك من الناس في المدينة .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٣ .

وهذه أخلاق عـالية يحق للـمسلمين أن يفـاخروا بها العـالم في تاريخهم الطويل ، وأن يستدلوا بها على عظمة هذا الدين الذي أنجب رجالاً مثل عمر في عدله ورحمته وحزمه وتواضعه .

خطبة لعمر بعد الفتح :

ولما أتى عمرَ رضي الله عنه خبر الفـتح قام في الناس فقرأ عليهم الفتح وقال : إني حريص على أن لا أدع حـاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك منّا تآسـينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف ، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مـثل الذي وقع فيها لكم، ولست معلِّمكم إلا بالعمل ، إني والله ما أنا بملك فأستعبدكم ، وإنما أنا عبد الله عُرِض عليَّ الأمانة ، فإن أبيـتها [يعني أعففت نفسي من أموال الرعـية] ورددتهـا عليكم واتَّبعـتكم حتى تشـبعوا في بـيوتكم وترووا سعدت، وإن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتي شقيت ، ففرحت قليلاً وحزنت طويلاً ، وبقيت لا أُقَالـولا أردُّ فأَستَعْتِب[1] .

وهذه الخطبة تـعتبـر من النماذج العـالية للحاكـم العادل والمؤمن الورع، فقد ذكر عمر رضي الله عنه فـي هذه الخطبة أنه عبد من عباد الله تعالى لايزيد عن رعيته بشيء إلا أنه تحمَّل هذه الأمانة العظيمة .

فهو ليس بملك مستبدّ يستعـبد الناس ويستذلهم ، ومعنى استعباد الناس أن يحاول الهيمنة على أفكارهم ومشاعرهم ، فيجعلهم يفكرون كما يفكـر ، يحبون ما يحب ويبـغضون ما يبغض من غـير نظر إلى الحق والباطل، فـهذه هي الطاغوتيـة التي تزعَّمهـا فرعون حينمـا قال

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٤ .

لقومه فيما حكاه الله تعالى عنه ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾[1].

أما الحاكم المسلم فـإنه يفكر كما يريد الله تعالى ويأمر رعـيته بأن يسخِّروا أفكارهم وسلوكهم لبلوغ مراد الله سبحانه .

ثم ذكر المسئوليـة العظمى في تصريف أموال الدولة ، وأنه لو آثر نفسه بشيء من هذه الأموال فإنه قد يعيش بشيء من السعادة المؤَقَّتة ، ولكن يعقب ذلك الحـزن الطويل ، في حياة أبدية لاينفع فيـها الندم، ولايُقال فيها المذنب إذا طلب الإقاله ، ولايُردُّ لحياة العمل فيحسِّن من سيرته وسلوكه .

أمَّـا إن أَعَفَّ نفسـه عن أموال الرعـيـة، وأسهـر ليله في تفقـد أحوالهم واجتهد في العدل بينهم حـتى يراهم سعداء ، فإنه يسعد في أخراه بـرضوان الله تعـالى والدرجات العُلَى في الجنة ، ويعـيش في دنياه بسعادة نفسية على أمل حظوته بالسعادة الأخروية .

كتاب من سعد إلى عمر ومن عمر إلى سعد :

هذا وقد كتب سعد إلى أمير المؤمنين رضي الله عنهما كتابا آخر، يطلب فيه أمـره في أهل الذمة من عرب العراق الذين نقضـوا عهدهم في حال ضعف المسلمين فقام عمر رضي الله عنه في الناس فقال: إنه من يعمل بالهوى والمعصية يسـقط حظه ولايضر إلا نفسه ، ومن يتبع السنة ويَنْتَه إلـى الشرائع ويلزم السبـيل النَّهْجَ ابتغـاء ماعند الله لأهل الطاعـة أصـاب أمره وظفـر بحظِّه ، وذلك بأن الله عـز وجل يقـول

---

(١) سورة غافر / ٢٩ .

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [**الكهف** : ٤٩] .

وقد ظفر أهل الأيام والقوادس بما يليهم ، وجَلاَ أهله، وأتاهم من أقام على عهدهم ، فما رأيكم فيمن زعم أنه استُكره وحُشر وفيمن لم يدَّع ذلك ولم يُقمْ وجَلاَ ، وفيمن أقام ولم يدَّع شيئًا ولم يَجْلُ ، وفيمن استسلم ؟ فَأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكفَّ لم يزده غلَبُه إلاخيرا، وأن من ادعى فصُدِّق أو وَفَى فبمنزلتهم، وإن كُذِّب نُبذَ إليهم وأعادوا صلحهم ، وأن يُجعل أمرِ من جلا إليهم فإن شاؤوا وادعوهم وكانوا لهم ذمة ، وإن شاؤوا تَمُّوا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال، وأن يُخَيِّروا من أقام واستسلم الجَزاء أو الجلاء وكذلك الفلاحين [1].

هذا و إن لنا أمام هذه الخطبة وقفتين : الأولى عند تطبيق عمر رضي الله عنه مبدأ الشورى حيث كان يستشير أهل الرأي في كل أموره المهمة بالرغم مما عرف عنه من غزارة العلم وسداد الرأي ، وإن هذا السلوك الرفيع كان من أسباب نجاحه الكبير في سياسة الأمة .

الثانية : الاستفادة من هذه المقدمة التي قدمها عمر رضي الله عنه بين يَدي استشارته حيث ذكَّر الصحابة رضي الله عنهم بلزوم التجرد من الهوى وإخلاص النية لله عز وجل ، والاستقامة على المنهج القويم الذي سنه رسول الله ﷺ ، فمن فعل ذلك عُصم من الزلل في الحكم وأصاب الحق وظفر بثواب الله تعالى .

وقد لخص عمر رضي الله عنه هذه المشورة بخطاب وجهه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جاء فيه : أما بعد فإن الله جل

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٥ .

وعــلا أنزل في كل شيء رخصــة في بعض الحالات إلا في أمـرين : العدل في السيرة والذكر ، فأما الذكــر فلا رخصة فيه في حالة ، ولم يرض منه إلا بالكثير، وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولابعيد ، ولا في شدة ولارخــاء ، والعدل - وإن رُئِيَ لَيْنًا - فهو أقــوى وأطفأ للجـور ، وأقــمع للبــاطل من الجور، وإن رُئــي شديدًا فــهــو أنكش للكفر، فــمن تم على عهده من أهل السواد - يعني عـرب العراق - ولـم يُعِنْ عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية ، وأما من ادعى أنه استُكره ممــن لم يخالفهم إلــيكم أو يذهب في الأرض فلا تصــدقوهم بذلك إلا أن تشــاؤوا ، وإن لم تشــاؤوا فــانبــذوا إليــهم، وأبلغــوهم مأمنهم[1] .

ونجد أن عمر رضي الله عنه قــبل أن يوجه الجيش الإسلامي إلى ما يجب عمله تجــاه أهل العهد يتحفهــم بشيء مما علَّمه الله حيث بين لهم أن الله عز وجل قد يسر على عباده شريعتــه ، فجعل فيها رخصا يعلمها أهل العلم والاجتهاد ، ومن ذلك الاجــتهاد في معاملة الكفار بما يحقق مــصلحة الإســلام والمسلمين ، واستثنــى من ذلك أمرين : العدل في السيــرة والذكر ، فالعدل في الحكم لارخصة فــيه وإن كان ذلك مع الكفار، لأن العدل في الحكم هو الدعامة الكبرى لبقاء حكم الإسلام وســيادته وانتشار الأمن والرخــاء في بلاد المسلمين ، هذا في الدنيا وأما في الآخرة فلا مفــر من العقاب للظالمين ، لأن حقوق الله تعالى قد يغفرها لعبده ويتجاوز عنه ، أما حقوق الناس فإن الله تعالى يوقف الظالمين والمظلومين يوم القيامة فيقتصَّ لبعضهم من بعض .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٥ .

وأما ذكر الله تعالى فلا بد أن يسود حياة المسلم في قلبه ولسانه وجوارحه ، فيكون تفكيره خالصا لله تعالى ، ومنطقه فيما يرضيه وعمله من أجله ، ويكون همه الأكبر إقامة ذكر الله جل وعلا في الأرض قولا وعملا واعتقاداً ، فإذا كان كذلك عصمه الله سبحانه من فتنة الشبهات والشهوات .

وقد أخذ سعد ومن معه من المسلمين بتوجيهات أمير المؤمنين فعرضوا على من حولهم ممن جلا عن بلاده أن يرجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية .

وهكذا نجد أمامنا نموذجًا من نماذج الرحمة وتأليف القلوب فهؤلاء الذين نقضوا العهد قد كلفوا المسلمين حروبًا دامت سنة كاملة بقيادة خالد ابن الوليد رضي الله عنه ، فلما آنسوا من المسلمين قلة واجتمع شمل الفرس نقضوا عهدهم مع المسلمين وأظهروا ولاءهم للفرس ، ومع ذلك عفا عنهم المسلمون لما انتصروا على الفرس، وجاء بعض هؤلاء مستسلمين للمسلمين ، وبعضهم ظل بعيدًا ينتظر ما يفعله المسلمون بالقريبين منهم .

وهذه المعاملة الكريمة حبَّبت المسلمين والإسلام لهؤلاء الناكثين فدخلوا بعد ذلك على فترات في الإسلام وأصبحوا من جنوده الأقوياء.

تاريخ المعركة :

وقبل أن ننتقل إلى مواقف مابعد القادسية نشير إلى تاريخ وقوع هذه المعركة الكبرى التي كانت فاصلة بين المسلمين والفرس، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ، وللأستاذ أحمد عادل كمال

تحقـيق جيد في ذلك توصل فـيه إلى أنها في شـهر شعبـان من العام الخامس عشر للهجرة[1]، وهذا القول هو الذي تؤيده أحـداث العراق والشام آنذاك .

وعلى هذا فإنها تكون هي ومعركـة اليرموك في عام واحد ، وقد سبقتـها اليرموك حيث إن جيش العراق الذي سبق توجـيهه إلى الشام مع خالد رضي الله عنه عاد إلى العـراق بقيادة هاشم بن عتبة بـتوجيه من أبي عبيـدة بن الجراح وبناء على أمر أمير المـؤمنين عمر رضي الله عنهم بعد أن شهدوا اليرموك فشهدوا القادسية .

فـهل كان اتفـاق المعـركـتين الكُبْرَيَين فـي عام واحـد وفي وقت متقارب مقصوداً للأعداء ليُربكوا المسلمين ويحاولوا القضاء عليهم؟

الواقع أن التخطيط لمعـركة القادسيـة كان قبل ذلك بعـام وشهور سواء من قِبَل الفرس أو من قِـبَل المسلمين ، وذلك لأن الفرس اجتمع أمرهم عـلى ملكهم " يزدجرد" بعـد فرقـة ونزاع فعزمـوا على بعث جيش كبير لغزو المسلمين ، وأمـير المؤمنين عمر رضي الله عنه وقادته أدركوا ذلك فـأعدوا للمـعركة الحـاسمـة من بداية العام الرابع عـشر وصارت الإمـدادات تُبعث من دار الخـلافة في هذا العـام وبداية العام الخامس عشر إلى العراق.

واكتفى الخليفـة بما في الشام من الجند نظراً لأن المسلمين هناك قد تغلبوا عـلى الروم في معاركـهم الأولى واستـولوا على أكثـر مدنهم الكبرى مثل دمشق وحمص ، ولكن الروم فاجئوا المسلمين بجموع لم يحسبوا لها حـسابا ووجهوها بسرعة كبيـرة كما تقدم ، والظاهر أنهم

---

(١) القادسية / ٢٢٦ .

اغتنمــوا فرصة انــشغال أمــير المؤمنين بالإعداد للمــعركــة الفاصلة مع الفرس فوجــهوا حشودهم الضــخمة للقضــاء على المسلمين في الشام حيث كانوا يعرفون أن إمدادهم من دار الخــلافة أقرب إلى المستحيل ، ولكن الله سلَّم فانتصر المسلمون عليهم في اليرموك انتصارًا حاسما .

لقــد تعرضت الأمــة الإسلامــية الناشــئة لغــزو منظم من دولتين تمتلكان العالم آنذاك ، وكل دولة منهما قد حــشدت كل ما في طاقتها للقضــاء على دولة الإسلام ، ولكن هذه الأمــة الناشئــة استطاعت أن تقف بصلابة وعزم أمــام تلك القوتين حتى قضت عليــهما ، وإن هذا وحده يكــفي دليلاً على عظمــة المسلمين الصادقين وعلى عظــمة هذا الدين الذي دفعهم إلــى هذه التضحيات العــالية وأنه حق من عند الله تعالى الذي وعد بنصر دينه وأوليائه المؤمنين .

* * *

فهرس الجزأين الأول والثاني

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



دار الأمين للطباعة

٨ ش أبو المعالي (العجوزة) الجيزة - ت/فاكس ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق - الهرم - ت/فاكس ٥٦٣٤٦٩٩